فى النقد التطبيقى:

حلمى القاعود روائيا

(قـراءة تكامليـة)

في النقد التطبيقي:

حلمى القاعود روائيا

(قــراءة تكامليــة)

د. إبراهيم عوض

مكتبة الشيخ أحـمد
منشية الصدر - القاهرة

١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م

على سبيل التقديم

وصلتنى منذ فترة ليست بالبعيدة على سبيل الإهداء أربع روايات للزميل د. حلمى القاعود: رواية كانت قد صدرت فى شبابه، وكانت عن تجربته فى الجيش قبل انتصار رمضان المجيد عام ١٩٧٣، وهى رواية "الحب يأتى مصادفة"، التى أعاد طبعها بأُخَرَة وأرسل لى نسخة من طبعتها الجديدة، ثم ثلاث روايات صدرت حديثا جدا، وهى "محضر غش" و"اللحية التايوانى" و"شغفها حبا". وقد قرأت فى البداية اثنتين منها على نية الكتابة عن واحدة منهما، لكن تحمسى لما قرأته منها فى البداية بعثنى على أن أقرأها كلها وأتناولها بالعرض والتحليل. وقد استغربت أولا أن يكون القاعود بهذا التمكن فى ميدان الكتابة الروائية ثم يسكت منذ كتب روايته الأولى عدة عقود فلا يشفعها بأخرى وأخرى وأخرى وأخرى وأخرى... طوال تلك المدة بل ينتظر حتى السنتين الأخيرتين فيشرع فى استئناف الإبداعات الروائية. واستغربت ثانيا ألا يلتفت أحد إلى تلك الروايات ويكتب عنها لتنبيه الأنظار والعقول إلى أهميتها مع أن ثم روايات متهافتة كثيرة عربية تحظى كل منها بالحديث الواسع والمُلِحّ عنها لا فى صحيفة واحدة ببلد مؤلفها، ولكن فى صحف العالم العربى قاطبة من الخليج إلى المحيط، أو من المحيط إلى الخليج: واختر أنت الصيغة التى تعجبك، وإن كنت أنا أحب البدء بالخليج لأنه فى الشرق بينما المحيط فى الغرب، والشمس تظهر من الشرق حسبما هو معلوم من الفلك والجغرافيا بالضرورة، والشرق مقدم على الغرب. كما أن الخليج به فلوس كثيرة مثل المطر، والناس جميعا تحب الفلوس.

وقد لاحظت منذ البداية أن لدى القاعود القدرة على تحويل كل فكرة أو موقف إلى وقائع وحوارات ووصف وعقدة، بادئا عادة من شخصيات أو حوادث

يعرفها جيدا ويريد أن يجلى رأيه فيها وفيما تمثله فى المجتمع، ولكن على نحو غير مباشر، وإلا لكتب مقالا أو بحثا أو كتابا وانتهى الأمر بكل سهولة، ولكنه اختار الإبداع القصصى بما فيه من تعقيد فنى وعناصر متنوعة ومتشابكة وبناء مخصوص وقدرة على الضبط والربط: ضبط النفس فلا تظهر سافرة فى العمل القصصى، والربط بين شخصيات عمله ووقائعه وحواراته بحيث يخرج كل ذلك منسبكا فى بنية متماسكة مشوِّقة مقنعة تخيِّل للقارئ أن ما يطالعه حقيقى لا مؤلَّف.

وللأسف فإن هذه المقدرة يفتقر إليها كثير من المنتسبين إلى عالم التأليف القصصى، ولو فى بعض أعمالهم، ومنهم مشاهير تدوى أسماؤهم كالطبل البلدى، وعلى نحو خاص فى العقود الأخيرة. وأذكر مثلا فى هذا السياق رواية د. طه حسين: "دعاء الكروان"، التى تناولتها بالنقد فى كتابى: "فصول من النقد القصصى" وبينت تفصيلا ومن خلال النصوص وبالتحليل الفنى والمضمونى ضعفها ولامنطقيتها ومجافاتها للواقع بأى معنى فهمتَ ذلك الواقع. وأذكر أيضا هنا رواية يوسف إدريس: "قاع المدينة" المملة السخيفة الخالية من الإبداع إلا فى بقع جد ضئيلة منها. ومن روايات السنوات الأخيرة رواية علاء الأسوانى: "عمارة يعقوبيان"، التى نرى المصلين فيها مثلا يوم الجمعة يهتفون، والمصليات يزغردن كلما قال الخطيب شيئا يبعث على الحماسة، وكأننا فى مرقص أو صالة أفراح لا فى مسجد ولا فى صلاة جمعة، ولم يبق إلا أن تقوم النساء فيتحزمن ويرقصن على دقات أكفّ أزواجهن. وهناك كذلك رواية يوسف القعيد السخيفة التى يخر السخف من كل جوانبها لأنه ليس فيها إلا السخف والتفاهة، وهى رواية "قسمة الغرماء"، التى لا أدرى ماذا يقصد بعنوانها هذا والتى جند فيها كل طاقاته للهجوم على المسلمين واتهامهم بالعدوان على إخوان الوطن من النصارى وإيقاع الظلم

بهم، وحجته فى ذلك حوادث مستحيلة تَوَهَّمها توهُّمًا واختلقها اختلاقا، ولا يمكن أن تدخل عقل عاقل.

ومن تلك الروايات التى نالت شهرة واسعة عريضة ولا تستحق شيئا من تلك الشهرة رواية الغيطانى: "وقائع حارة الزعفرانى"، التى شرعت أقرؤها منذ وقت ليس بالقريب متحمسا لعلى أجد فيها تعويضا عما نالنى من روايته الأخرى المسماة بـ"الزينى بركات" من سأم وضيق صَدْر لخروجها عن الواقعية والمنطق ولما فيها من مبالغة مقيتة مما بينته فى مقالى المنشور فى عدة مواقع على المشباك، بَيْدَ أننى لم أستطع المضى فيها لما تتمتع به من غثاثة وتكرار مزعج وجَرْيٍ مع الأوهام وإغراق فى الغموض دون أدنى داع أو تعويض... وهذه الأمثلة تكفى.

ويتعرض القاعود فى كل رواية من رواياته لقضية عامة فى غاية الأهمية. ففى روايته الأولى تعرض لقضية الاحتلال الصهيونى لثلث مصر وشوق الجنود إلى الأخذ بالثأر واسترداد ما أُخِذ من جسد المحروسة، وصور حياة الجنود على خط النار وتغلغلَ إلى مشاعرهم ووصفَ أحاديثهم وأمانيهم وعلاقات بعضهم ببعض، كل ذلك مضفورا مع حكاية عاطفية شفيفة. وفى "محضر غش" نجده، رغم كون الواقعة المحورية فى الرواية حادثةً شخصية، وهى قيامُ إحدى الطالبات بالغش فى الامتحان وتحويلُها إلى التحقيق، قد وسع مجالها، إذ جعل الطالبة تدرس فى قسم اللغة الفرنسية وليس فى قسمها الحقيقى، وصور الخلاف المعروف بين مَوْقِفَيِ المثقفين من الحملة الفرنسية متمثلا فى أستاذين جامعيين: أحدهما يرى فى تلك الحملة استعمارا وحشيا أريد به احتلال مصر إلى الأبد والقضاء على هويتنا ونزح ثرواتنا، فضلا عما تمت إبادته بالألوف المؤلَّفة من المصريين على أيدى الفرنسيين المتوحشين، وثانيهما يضفى على الحملة ما ليس فيها بل عَكْس ما فيها على طول الخط، فهو يَكْذِب ويزيف الحقائق زاعما أن الفرنسيين ما أتَوْا إلى بلادنا إلا

لتنويرها والأخذ بيدها لتدخل عالم التحضر والمتحضرين. وقد صور القاعود هذا كله فى روايته وكساه لحما ودما وعظما وأعصابا وجعل له خلايا وأعضاء حتى استوى مخلوقا حيا يتنفس ويتحرك وينفعل ويفكر، ولكن فى صورة "رواية". كما جعل ذلك الصراع ينعكس على الطلاب والطالبات فى أحاديثهم وتصرفاتهم.

والرواية جيدة، وتدل على مقدرة حلمى القاعود على نفخ الروح فى حدث اعتيادى يقع كثيرا فى الجامعات والمدارس، وهو الغش فى الامتحان، فما أكثر الغش والغشاشين والغشاشات، ومع هذا لا أعرف أن روائيا من الروائيين المصريين أو من غيرهم قد خلق من حدث كهذا رواية هامة كالرواية التى أتحدث عنها الآن. وقد قرأتها واستمتعت بها رغم معرفتى بوقائعها كاملة وبأشخاصها الحقيقيين الذين حور فيهم المؤلف، فأضاف وبدل وحذف وغيَّر حتى لا يستطيع أحد أن يتعلل عليه بشىء، وبخاصة أن له اتصالا قويا بأهم أشخاصها، وحتى يستطيع أن يجعل منهم ومن تصرفاتهم وحواراتهم عملا فنيا مكتملا ومثيرا للشوق ومفعما بالدروس الغنية وبالقضايا السياسية والدينية الهامة. وقد أعجبنى أنه استطاع أن يفلت من إسار ما وقع من أحداث وأن يعطى كلا من شخوص روايته الاستقلاليةَ فى الفعل والقول، فبرهن بذلك على تحرره من ضغط الوقائع الأصلية وتفاعله من ثم مع عمله الإبداعى بكثير من الأريحية والانسجام. وقد نجح فى إقناعنا نحن القراء بمنطقية ما حدث، إذ كان لكل حدث علته ونتيجته الطبيعيتان فى معظم الأحيان، وكان الحوار واقعيا إلى مدى معقول، وتصويره للأشخاص وبيئاتهم سلسا لا تكلف فيه، والنهاية قوية ومؤثرة، ونبرة الوعظ خافتة يمكن بلعها وهضمها دون عسر.

وفى الرواية الثالثة: "اللحية التايوانى" نراه يتعرض لفصيل كبير من المتدينين الناشطين، وهم الفصيل الذى ينسب نفسه إلى السلف الصالح ويحرص على إعفاء اللحية ولبس الجلباب وما إلى ذلك ظانا أنه بذلك قد تمسك بالدين تمسكا

لا انفصام له وأنه سوف يعيد مجد الإسلام الأول. فبين د. القاعود أن هذا فهم سقيم للدين يقف عند حدود الشكليات التى لا تعنى الكثير، بل عند حدود الشكليات الزائفة التى يراد بها خداع الآخرين عن حقيقة المتمسكين بهذه الشكليات. وقد حفزنى هذا على تقصى موقف الأدب العربى: شعره ونثره من اللحية، التى أرى أنها مجرد عادة اجتماعية لا دخل للإسلام فيها إلا بتوصيته بتهذيبها وإدخال بعض التغييرات عليها بغية تمييز المسلم عن الوثنى واليهودى والنصرانى فى ذلك السمت، فألفيت من تنبهت إليهم من الشعراء والناثرين يسخرون من اللحية، وبخاصة اللحية الهائشة، ومن أصحابها وضيق عطنهم وسخف عقولهم وحماقة فهمهم. ولم أفرق بين من يسمون أنفسهم: "سلفيين" وبين غيرهم.

وأيا ما يكن الأمر فقد عرض القاعود هذا الاتجاه التدينى الشكلى عند بعض أصحابه من خلال بطل الرواية المسمى بـ"خميس" وبعض قادة ذلك الاتجاه عرضا فنيا ناجحا لم أتوقعه عند بداية قراءتى للرواية، إذ حسبت أنها ستكون زاعقة، وأنه سوف يظلم أصحاب اللحى التايوانية ظلما فنيا وإنسانيا، فإذا به يخيب حسبانى ويقود روايته إلى بر النجاح والأمان بمهارة ملحوظة، وإن كنت آخذ عليه انحيازه على طول الخط للفصيل المقابل، فقد أرى أنه ليس بالنقاء الذى تصوره الرواية متمثلا فى الأستاذ أحمد أحد نواب الشعب، وأنه لا يرتفع فى الاستقامة والخيرية عن كثير من أفراد المجتمع ممن لا ينتمون إلى أية جماعة أو حزب أو اتجاه سياسى أو دينى، إذ إن أفراد هذا الفصيل فيهم وفيهم: فيهم الحسنات وفيهم العيوب، فيهم المخلصون وفيهم المنافقون أكلة الدنيا بالدين المتظاهرون بأنهم حملان بريئة فى حين هم أفاع نهاشة قاتلة. ولسوف يجد القارئ رأيى فى الرواية

وكل ما يتعلق بها من شخصيات وقضايا مفصلا فى الفصل الخاص بها من هذا الكتاب.

ونأتى إلى آخر رواية قرأتها من الروايات الأربع التى تناولتها بالنقد فى هذا الكتاب، وهى "شَغَفَها حُبًّا"، وهى أكثر الروايات تعقيدا، ففيها أكثر من قصة، ووقائعها عنيفة، والعواطف والمشاعر عجيبة، والنماذج الإنسانية التى تعرضت لها نماذج شديدة الغرابة، والنهايات متنوعة: فإحداها مؤلمة، والثانية وإن لم تكن مؤلمة قد سبقتها حوادث غاية فى الإيلام تبكى الصخر، ولكن الله سلم، وانتهت هذه الآلام الصاعقة إلى كل خير... وهكذا. والرواية أفضل ما كتب القاعود، ولسوف تصمد للزمن بمشيئة الله. ولسوف يشيع اللقب الذى أطلق على بطلها لغرامه بالخمر وإدمانه لها والرخيص منها، وهو لقب "سَيِّد كُبَّايَة"، فى الدلالة على كل شخص يشبه فى أخلاقه ونفسيته شخصية سيد عبد الله بطل الرواية الأول بانحطاطه وقسوته وخشونته وجهله وإخلاده إلى عالم البذاءة والشراسة والذوق العامى العارى عن الرقة والرهافة وتمسكه بالخمر الرخيصة والمومسات والتشبث بالجانب الكريه من أخلاق الصنايعية الذين كان ينتمى إليهم قبل أن يصير دكتورا بالجامعة. وأضفت أنا بدورى له لقبا آخر هو "سيد محارة": من نفسى أنا أيضا. وقد استغرق نقد هذا العمل نحو مرة ونصف من الصفحات التى استغرقها نقد أية رواية أخرى للمؤلف.

والقاعود لا يستخدم إلا اللغة العربية الفصحى سواء فى السرد أو على ألسنة المتحاورين أيا كانت طبقتهم الاجتماعية أو مستواهم الثقافى، ومع هذا لا يحس القارئ أن فى الأمر غرابة على الإطلاق. وهو ما يدل على سخف الشبهة التى يرفعها محبو العامية كارهو لغة القرآن المجيد فى وجود من يعترضون على اتجاههم هذا، إذ يقولون إن الناس فى الحياة إنما يتكلمون العامية لا الفصحى.

وفات أصحاب هذه الشبهة المتهافتة أن أحدا أيضا لا يحكى قصة ويسرد أحداثها ويصف أشخاصها فى الحياة الواقعية إلا بالعامية. ثم إن الحياة تميز دائما بين مستويين رئيسيين فى كل المجالات: فالمنامة للبيت، والبدلة للحفلات. والشطيرة للمكتب أثناء العمل، والمأدبة للمناسبات الكبيرة. والكلام الاعتيادى للحياة اليومية، والشعر للمواقف الفخمة الراقية... وهلم جرا. ودعونا من أننا يجب أن نحرص على الوحدة العربية حتى لو لم تكن متحققة اليوم، فإن عاميات الشعوب العربية متباعدة، لكن الفصحى تقرب بيننا بل تصهرنا جميعا فى كيان واحد. والقرآن والحديث والتراث الأدبى والفكرى والعلمى العظيم مسجل بالفصحى. فلو انتصرت العامية لضاع كل هذا. وهو ما يرجوه كارهو الفصحى، وإن زعموا زورا أن باعثهم على النفور من الفصحى هو الفن. كما أن كبار الروائيين يستخدمون الفصحى دون أن يشعر القراء بأى شذوذ فى الأمر. ومنهم فى مصر وحدها نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم وعباس العقاد ومحمود تيمور ويحيى حقى وإبراهيم المازنى ومُحَمَّد فريد أبو حديد ويعقوب صروف وإبراهيم رمزى وثروت أباظة، ولم يشك أحدٌ أىُّ أحدٍ من استخدامهم العامية. كما أن فى الفصحى رقيا ورهافة وثقافة وجلالا وفخامة ليست للعامية مثلما هو معروف. وبالمناسبة ففصحى القاعود تتميز بأنها فصحى بسيطة سلسة قادرة على التقاط أدق المشاعر والانفعالات والأوصاف سواء أوصاف الجو أو أوصاف المكان أو أوصاف البشر.

وفى رواياته تَوَازُنٌ بين السرد والحوار والوصف، كما أنه لا يحصر وصف شخصيات أعماله ولا رواية وقائعها فى السرد بل كثيرا ما يسرِّب هذا وذاك فى الحوارات التى تدور بين أبطال الرواية. وكل شىء فيها تقريبا يؤدى منطقيا لما بعده، والمصادفات معدومة فيها أو تكاد. والنبرة الوعظية خافتة فى المواضع التى

تحتلها على قلتها. وهو حريص على تجنب البذاءات وإثارة الشهوات رغم أن فى رواياته مواضع لو كان مؤلفها واحدا من "إياهم" المحبين للوساخات والدنس لترك كل شىء فى الرواية وتفرغ للنفخ فى الشهوات ووصف السوءات ومد يديه مستمتعا باللعب فى إفرازات أبطاله وخَلَقَ الشذوذ خلقا ليرضى نفسه المريضة بما فى ذلك ممارسة الجنس مع الحيوانات من قرود وحمير. لعن الله كل قرد وحمار من غير جنس القرود والحمير. بل إنى لأذكر حتى الآن قصة قصيرة قرأتها فى إحدى الصحف فى القرن الماضى لمؤلف شهير فى ميدان الكتابة القصصية، وكانت تدور حول غش تقوم به إحدى الطالبات أثناء الامتحان باختلاس النظر إلى ما كتبته من المقرر على فخذيها، ورآها الملاحظ، فجاء إليها وأخذ يتطلع إلى أداة الغش الحية الشهية ودارت بينهما حوارات تناسب السياق أيما مناسبة لا أستطيع تذكر تفاصيلها الآن. ولا أدرى إلام انتهت القصة، ولكنى أحببت أن أبين أن باب الجنس مفتوح لمن يريد من المؤلفين لأوهى صلة. لكن القاعود ابتعد عن هذا الجانب بكل سلاسة وكياسة، ومع هذا لا يشعر القارئ أنه قد فاته شىء جَرَّاءَ هذا التجنب الكريم.

وبالنسبة لأسلوب السرد فقد روى أحداثَ روايته الأولى على لسان بطلها، فحكاها بضمير المتكلم على هيئة مذكرات، ثم لما مات البطل انتقل السرد إلى شخص آخر. وقد تسبب هذا الأمر فى بعض تعقيدات كانت الرواية فى غنى عنها. أما باقى الروايات الأربع فقد حُكِيَتْ على لسان راوٍ محايد، ولم تكن هناك أية مشكلة، إذ مضت وقائع الرواية فى سلاسةٍ متقدمةً فى ا لزمن من الخلف إلى الأمام دائما، كما كان السرد فى بعض الأحيان يترك مكانه فى كرمٍ جميلٍ لخواطر هذا الشخص أو ذاك ثم يعود كرة أخرى إلى حالته الأصلية على لسان الرواى المحيط بكل شىء علما بلا أى افتعال أو إرباك للقارئ. ومثل ذلك يقال عن

عمليات القطع التى كان السارد يقوم بها فى "شغفها حبا" منتقلا من حكاية هذا الشخص إلى حكاية ذاك فى براعة وخفة يد ودون إزعاج للقارئ بأى غموض مفتعل بسبب الانتقال، وهو الغموض الذى نلاحظه عند بعض متبعى هذا الأسلوب من الروائيين دون أن يكون هناك ما يستدعيه سوى غرام المؤلف بإرباك ذهن القارئ المسكين ظنا منه أن هذا هو ما تقتضيه الأساليب الحداثية فى التأليف الروائى. وهو وهم من الأوهام التى تسكن عقول بعضنا جراء رغبتهم الحارقة فى تقليد ما يقرأونه من الآداب الغربية حرفيا ظنا منهم أن كل ما يجدونه فى تلك الآداب هو مثال أعلى لا بد من تقليده والنسج على منواله دون تفكير أو مراجعة نظر، فتكون النتيجة حيرة القارئ وتوتره وسخطه لجهله علام ولا عَلَى مَنْ يدور الكلام.

ومن ناحية أخرى فإن مؤلفنا لا يتهيب التعامل مع أية قضية مهما تكن حساسيتها بما فى ذلك معاداة الإسلام والعمل بكل سبيل على كشطه من الحياة حسبما يوسوس الشيطان لبعض من ينتسبون أُسْرِيًّا إلى ذلك الدين العبقرى العظيم. وهو فى هذا لا يورِّى ولا يخافت ولا يخفف الكلام بل يعرض كل شىء بأريحية فنية متمكنة واضعا فى الكفة الأخرى ما يعادل تلك الكراهية بحيث يقوم تفاعل وتصارع بين الاتجاهين، وتنتهى الرواية انتهاء طبيعيا منطقيا إلى حد بعيد.

هذا، وقد استعملت فى نقدى لروايات د. القاعود كل ما اقتضته المعالجة من مناهج: فيجد القارئ اهتمامى باللغة والأسلوب ومقدرة الكاتب على السرد وإجراء الحوار على ألسنة شخصياته والكيفية التى يتجسد بها ذلك. وإلى جانب هذا يجد القارئ كلاما فى البنيوية، أى الشكل الفنى الذى تتخذه الرواية إن كان هناك مجال لتناول هذه الناحية ودلالتها على مدى براعة الكاتب الفنية. وهناك التحليل النفسى والأخلاقى لشخصيات الأبطال بل لشخصية المؤلف ذاته حين

تستلزم المعالجة النقدية ذلك. وهناك الوقوف لدن الدلالات الاجتماعية والثقافية لما يمر بالقارئ من أحداث أو يسمع من كلام بين المتحاورين بما فى ذلك الأمثال والعبارات التى تشيع فى الأوساط والطبقات الشعبية. بل لقد وقفت أمام المغزى الفنى لبعض الأسماء التى رأيت أنها لم تُخْتَر اعتباطا وأن المؤلف بالأحرى قد قصدها قصدا. لكنى لم أسرف فى ذلك، إذ لم أجد فى أى عمل من الأعمال الروائية الأربعة التى كتبت عنها هنا ما يدل على أن ذلك المغزى موجود دائما وراء كل اسم.

لكنى رغم هذا كله لم أتسامح مع ما يسمى هذه الايام بـ"عتبات النص"، تلك التى يعمل كثير من نقاد آخر زمن من فسيخها شربات، فبينتُ سخف الاهتمام الذى يتناول به أولئك النقاد ذلك الموضوع، وبرهنت على أنه لا يقوم فى واقع الأمر إلا على التنطع والتساخف والتفاهة والتهافت، وسقت بالتفصيل الأسباب التى جعلتنى أتخذ هذا الموقف الشديد تجاه هؤلاء "الهجاصين"، مما سيطالعه القارئ الكريم خلال نقدى لروايات د. القاعود.

وعلاوة على كل ما سبق سوف يرى القارئ الكريم فى الفصول التى هو مقبل على مطالعتها فى هذا الكتاب قدرا غير قليل من النقد الانطباعى، ذلك النقد الذى يتسرع السطحيون فيبدون نفورهم منه وتقليلهم من شأنه باعتباره نقدا قديما لم يعد يصلح هذه الأيام، بينما أرى أنا على العكس من ذلك أنه نقد أصيل وخالد ولا يمكن تذوق أى عمل أدبى إلا بالاستعانة به، إذ الغاية من مطالعة الإبداعات الأدبية هى التذوق والاستمتاع، وهو ما لا يمكن أن يتحقق من غير النقد الانطباعى، أو إن شئت فقل: التأثرى. ويجد القارئ هذا اللون من النقد فى أعمال كبار نقادنا كالعقاد والرافعى وطه حسين وزكى مبارك وإبراهيم المازنى ومُحَمَّد النويهى ويحيى حقى ومُحَمَّد مندور مثلا. إن النقد الانطباعى هو ما يضفى على

العمل الأدبى الحياة ويشحنه بالحيوية ويشيع فيه الدفء والحرارة، وبدونه لا يكون تذوق. وهذا النقد هو عصارة جميع ألوان النقد الأخرى والقراءات المتعددة التى أنجزها المؤلف طوال حياته والتجارب البارزة التى مر بها والقصص والحكايات التى تختزنها ذاكرته وحس المقارنة المرهف لديه وموقفه من الحياة والوجود ومشاعره العميقة تجاهها. إنه هو الذوق المدرب المصفى فى أحسن أحواله وأنقى صوره.

وأخيرا لقد أقبلت على قراءة روايات د. القاعود وأنا أضع يدى على قلبى خشية أن يكون قد اقتحم ميدانا لا يصلح له وتَعَرَّض من البلاء لما لا يطيق على عكس ما ينصحنا به رسولنا الكريم، لكنى ألفيته ينجح ويفلح ويحالفه التوفيق، بل ويتفوق فى روايته الرابعة المسماة: "شغفها حبا" تفوقا جد ملحوظ. وهنا أحب أن أقول إنى قد رتبت الفصول التى تناولت فيها بالنقد الروايات القاعودية الأربع فى هذا الكتاب حسب القيمة الفنية لتلك الروايات بادئا بالأقل قيمة، وهى رواية "الحب يأتى مصادفة"، التى كتبها وهو شاب فى مقتبل حياته، وكانت أول ما وضع من روايات، ومنتهيا بـ"شغفها حبا"، التى أرى أنها أحسنها.

وثم روايتان أخريان له جيدتان تعالج كل منهما موضوعا غاية فى الأهمية والجرأة وتتصل، فيما شعرت، بكاتبين معروفين للجميع لا يمكن أن تخطئ العين حقيقة أى منهما: أحدهما أستاذ جامعى يكره الإسلام ويدعى التنوير والديمقراطية رغم كراهيته لكل من يختلف معه فى شىء مهما يكن تافها ومسارعته إلى إيقاع الأذى به، ورغم عمله الدائب وبكل وسيلة على استئصال أى فكر مخالف لفكره، ورغم محدودية علمه التى يغطيها بكثرة زَنِّه على الآذان بشعارات الحداثة والتنوير وما أدراك. وقد فضحته الرواية فضيحة بجلاجل ولكن بأسلوب فنى هادئ ليس فيه افتئات ولا وعظ ولا مباشرة. والثانى كاتبٌ دبلوميٌّ تافه الإنتاج، وصفحات حياته ملوثة بالسلوك الردىء والشعور المؤلم بالنقص والهوان، ويشترك

مع السابق فى كراهيته للإسلام وادعاء التنوير مع أن كل ما فيه ينطق بالتخلف والانغلاق والجهل الغليظ. وكلاهما آتٍ من قاع المجتمع، لكنه سرعان ما تنكر لبيئته وأهله وشمخ بأنفه عليهما. وقد قرأت تَيْنِك الروايتين، وعنواناهما "شكوى مجهولة" و"الرجل الأنانى"، وهما تحت الطبع لم تصدرا بعد، فلهذا لم أتناولهما بالدراسة مع الروايات الأربع السابقة رغم أهميتهما الفائقة وجودتهما البارعة.

وهناك روايتان أخريان لم تقدَّما إلى المطبعة بعد لأنهما لا تزالان فى طور المراجعة، واسمهما "مَكْر الليل والنهار" و"الشمس الحارقة"، وللأسف لم أطلع عليهما فلا أستطيع أن أتحدث عنهما بشىء. وإلى جانب هذا لا ينبغى أن تفوتنا الإشارة إلى رواية ثامنة سبق نشرها مرتين، وعنوانها "رائحة الحبيب"، وهى من بواكير إبداعات المؤلف، لكنى لم أقرأها. كما أن له مجموعة قصصية بعنوان "منامات الشيخوخة"، ولم أطلع عليها أيضا.

الحب يأتى مصادفة

قبل أن أدخل فى صلب الموضوع وأتناول الرواية التى بين أيدينا بالنقد والتحليل والتذوق لا بد أن أتوقف أمام ما قاله د. حلمى القاعود فى مقدمته لتلك الرواية من أنه لم يكتب فيها حرفا واحدا، معللا ذلك بأن مجال إبداعه هو المسرح، الذى لا يحتاج إلى كلام كثير وعكوف طويل على إبداع نص من نصوصه، بخلاف كتابة القصة، التى لا يحبها ولا يبرع فيها والتى تقتضى مؤلفَها الجلوسَ وقتا طويلا على مكتبه لا يتحرك، وكأن أهل البيت يسألونه: يا تُرَى أنت مقبل على كتابة مسرحية أم رواية؟ فإن قال: "مسرحية" تركوه لحال سبيله، وأما إن قال: "رواية" فإنهم يربطونه بـ"مسامير حَدَّادِى" فى الكرسى ولا يفكونه حتى ينتهى من كتابة الرواية المذكورة.

ومن الواضح أننى إنما أضحك وأداعب المؤلف والقراء لأنى لست مقتنعا بهذا التعليل. والسبب الذى حدا بى إلى الوقوف أمام هذا الكلام أن د. القاعود ليس له، فيما أعرف، كتابات مسرحية، اللهم إلا ما سمعته من أنه كتب فى سبعينات القرن البائد، وهو شاب، مسرحية لم يعاود فيها النظر قط منذ ذلك التاريخ ولا فكر فى نشرها، بخلاف الكتابة الروائية، إذ له عدة روايات جيدة، وإحداها على الأقل أكثر جدا من جيدة. فهذه واحدة. وأما الثانية فنفيه أن يكون قد ساهم ولو بحرف واحد فى الرواية الحالية رغم أنه سيعود بعد أسطر ليقول إنه قد أكمل مع بعض أصدقاء المؤلف الحقيقى نص الرواية الذى تركه صاحبه غير مكتمل. ومعنى هذا أنه لم يشارك فى الرواية بحرف واحد فقط بل بحروف كثيرة ربما بلغت عددا من الصفحات.

وأما الثالثة، والثالثة ثابتة، فلو كان المؤلف هو المرحوم حامد الشيمى رفيق سلاح الدكتور حلمى كما يقول فلِمَ يا ترى لم يكتب على غلافها أنها من تأليف ذلك "الفتى" كما سماه فى كلمة الإهداء، وكتب بدلا من اسم حامد الشيمى اسمه هو لا فى طبعتها الأولى فى سلسلة "روايات الهلال" فقط بل فى طبعتها الثانية أيضا الصادرة عن دار الوادى سنة ٢٠١٥م؟ أى أن أربعين سنة تقريبا قد انصرمت على إصدار الرواية وعليها اسم حلمى القاعود، ولم يفكر د. القاعود فى تغيير اسم المؤلف وإسناد العمل لصاحبه الحقيقى رحمه الله بل أبقى اسمه هو عن قصد وإصرار. وإذا كان السبب أنه قد أضاف بعض الحروف أو الكلمات أو حتى الصفحات إلى الرواية التى كان المرحوم الشيمى قد غادر دنيانا دون أن يتمها فلماذا لم يضع مع اسمه على الغلاف أسماء الزملاء الآخرين للشهيد ما داموا قد أسهموا فى إكمال الرواية كما أسهم هو؟ صحيح أن حلمى القاعود قرب آخر الرواية، وتحديدا فى نهاية الفصل الثانى والعشرين، قد ذكر لنا أن ما مضى من الرواية هو ما كان كتبه حامد الشيمى فى كراسة واحدة قبل أن يرحل غريبا، وأن ما تبقى من الرواية قد استُخْلِص من أوراقٍ مبعثرةٍ عثروا عليها فى مِخْلاته العسكرية وغيرها. لكن منذ متى كانت هذه الحيل الفنية، وبخاصة تلك الحيلة القاعودية "المفقوسة"، تجوز على النقاد؟

ليس ذلك فقط بل لقد روى جزءا من باقى الأحداث أشرف الصعيدى، وهو جندى آخر يعيش أهلُ أمه بنفس قرية حامد الشيمى، الذى هو واحد من أقاربهم. ثم لا تنتهى المسألة عند هذا الحد، بل ينتقل السرد إلى شخص آخر هو بطبيعة الحال حلمى القاعود. وهذا تعقيد فى السرد لا أدرى فلسفة المؤلف من ورائه، وبخاصة أن الجزء المضاف الململم من أوراق حامد إلى ما كتبه حامد بنفسه لا يضيف إلى الرواية ما يعلى قيمتها. وكان بمستطاع د. القاعود أن يغير طريقة

السرد منذ البداية إلى السارد العليم بكل شىء فلا يُضْطَرّ من ثم إلى اللجوء إلى هذه الحيلة المربكة المرتبكة ويُدْخِل فى الرواية، على نحو سلس وطبيعى، ما حدث بعد موت حامد بفترة من اشتعال الحرب الرمضانية المجيدة، التى أزالت عنا بعضا من الخزى والهوان فى حينها مما تكفل به الفصل السادس والعشرون من الرواية.

كذلك فإن د. القاعود، الذى أخذ على عاتقه إتمام الرواية، ظل يتكلم عن كفر المحاريم قرية حامد الشيمى وكأنه من سكانها، فهو يحكى لنا كل ما وقع بها ويصف مشاعر الناس وصف من يعايشهم. فهل كان حلمى القاعود واحدا من أهل تلك القرية؟ الواقع أن الرواية لم تشر إلى شىء من ذلك قط. ثم هل نحتاج من الرواية أن تقول هذا، ونحن نعرف أن القاعود من قرية بجوار دسوق، بينما كفر المحاريم تقع قرب شبين بالدقهلية حسبما جاء فى الرواية؟ وهذا إن كان لكفر المحاريم وجود حقيقى خارج الرواية. فما الذى لم الشامى على الحامى؟ وإذن كيف عرف زميلنا العزيز بكل ما كان يدور بالقرية المذكورة وما يجرى بين أهلها من أحاديث وما يقع منهم من تصرفات، وعلى وجه التفصيل؟ وبالمناسبة لم يمت حامد فى اشتباك مع العدو أو قذيفة أو رصاصة آتية من الضفة الشرقية للقناة بل مات ميتة ربه كما يقال تعبيرا عن الموت الطبيعى. وشىء آخر هو أن أسلوب الرواية قبل وفاة حامد الشيمى، أى بقلمه، هو نفس أسلوبها بقلم عمنا حلمى القاعود. فكيف كان ذلك؟ أحسب أن هذا كله دليل فى منتهى القوة على أن حلمى القاعود هو مؤلف الرواية "من ساسها لراسها" كما نقول فى مصر، أى مؤلف الرواية كلها.

لقد لجأت مثلا د. عائشة عبد الرحمن، عليها رحمات الله ورضوانه، إلى لقب "بنت الشاطئ" تضعه على مقالاتها الأولى حتى لا يعرف والدها أنها هى صاحبة تلك المقالات، إذ لم يكن الوالد يريدها أن تكمل تعليمها فضلا عن أن تكتب فى

الصحف والمجلات، ولكنها استطاعت بفضل تعاطف أمها معها وتعاونهما على كتمان الأمر عن الوالد أن تكمل التعليم وتصير تلك الكاتبة المرموقة التى قلما نجد لها نظيرة من النساء فى تاريخ الأدب والفكر العربى. ويسمى لقب "بنت الشاطئ" وأمثاله فى اللغة الإنجليزية: "pen name"، وبالفرنسية: " nom de plume"، أى الاسم الأدبى للكاتب لا الاسم الحقيقى، وإن كانت بنت الشاطئ قد صارت بعد ذلك من الشهرة بمكان حتى لم يعد ذلك اللقب يخفى شيئا من حقيقتها، بل إنها هى نفسها أصبحت تكتب اسمها هكذا: "بنت الشاطئ د. عائشة عبد الرحمن".

وهذا التخفى تحت اسمٍ آخر غير اسم المؤلف الحقيقى أمر معروف على نطاق واسع فى تاريخ الآداب العالمية. وبالنسبة لأدبنا فقد ذكر الجاحظ على سبيل المثال أنه، أيام لم يكن قد اشتهر بعد، كان يؤلف الكتاب ثم ينسبه لابن المقفع وغيره من المشاهير حتى يروج بين القراء والنقاد ويهتموا به. هذا ما قاله الجاحظ، وإن كنت لا أستطيع أن أستوعب هذا الذى قاله كاتبنا العبقرى، إذ ما دام قد اعترف بما حصل فلماذا لم يتم جميله ويخبرنا بأسماء الكتب التى نَحَلَها الكتابَ الآخرين؟ وبالنسبة لابن المقفع فإننا لا نعرف له سوى بعض الكتب القليلة، ولا يمكن أن يكون للجاحظ منها شىء لأنها تختلف اختلافا زاعقا بل صارخا عن كتب الجاحظ سواء فى الأسلوب أو فى الفكر أو فى الاهتمامات والتوجه أو فى الروح. وهذا من الوضوح بما لا يقبل أى مراء. وقد قرأت أن الشاعر العباسى الشهير أبا تمام قد تنازل للبحترى الشاب الفقير عن ملكية بعض شعره يأكل به عيشا. ولدينا أيضا "إخوان الصفا"، الذين كانت تصدر باسمهم هذا كتب شديدة الأهمية لا بأسمائهم الحقيقية.

وفى أوائل العقد الثانى من القرن العشرين أصدر د. مُحَّد حسين هيكل رواية "زينب"، وعوضا عن أن يكتب عليها اسمه سجَّل على صفحة العنوان أنها بقلم "مصرى فلاح" خشية أن ينصرف أصحاب القضايا عن مكتبه، الذى كان قد افتتحه للمحاماة عقب عودته من فرنسا بشهادة الدكتورية، ظنا منهم أن كتابة الروايات سوف تشغله عن الاهتمام اللازم بقضاياهم فيخسرونها. لكنه فى الطبعة الثانية وما تلاها قد أعلن على الغلاف اسمه الحقيقى.

وبالمناسبة فقد اتخذ د. عبد المحسن طه بدر فى كتابه الخاص بتطور الرواية المصرية مِنْ حَجْب د. هيكل اسمه عن الغلاف حجة على أن كتابة الرواية فى ذلك الوقت كانت عملا شائنا يغض من قدر صاحبه، وهو ما فندته تماما فى كتابى: "نقد القصة فى مصر من بداياته حتى ١٩٨٠م"، وبينت أن كتابة القصص فى تلك الفترة كانت تحظى بالاحترام الكامل، إذ يمارسها كبار الكتاب، ويتناولها بالنقد كبار النقاد، ويشجع أصحابها كبار علماء الدين.

وهناك كتاب "على السفود"، الذى وضعه مصطفى صادق الرافعى فى نقد العقاد نقدا عنيفا يفيض بألوان السباب المنتقَى، وكان فى بداءة الأمر مقالات سرعان ما جمعها وأصدرها فى كتاب متكامل عام ١٩٣٠م لكن دون أن يضع عليه اسمه بل عبارة "إمام من أئمة الأدب العربى".

وهناك القصص القصيرة التى كان يكتبها الصحفى إبراهيم الوردانى بمجلة "آخر ساعة" فى بداية حياته الصحفية تحت اسم "مَىّ الصغيرة". ولدينا كذلك المقالات التى كانت تنشرها مجلة "صباح الخير" فى ستينات القرن المنصرم باسم نادية عابد بينما كان يكتبها فى الحقيقة صحفى لا صحفية هو مفيد فوزى، الذى ظل يكتب بهذا الاسم المستعار لمدة ١٨ عامًا متناولا قضايا المرأة بشكل غير

مألوف فى الصحافة العربية والمصرية فى ذلك الوقت، إذ الكتابة باسم مستعار تمنح الكاتب قدرا من الحرية حسبما قرأت له.

وكان هناك باب فى صحيفة "الأخبار" اسمه "أبو نظارة" كان يهتم بأخبار الفن والفنانين، وصاحبه نبيل عصمت. والتسمية مستوحاة أو مأخوذة أخذا، أو منتحَلة إذا أردت استعمال مصطلحات النقد الأدبى العربى، من الاسم الذى كان يطلقه على نفسه وعلى جريدته فى فترة من الفترات يعقوب صَنُّوَع الكاتب المسرحى اليهودى فى عهد الخديوى إسماعيل. وفى سبعينات ذلك القرن كان الناقد الرياضى أحمد علام يوقع مقالاته فى جريدة "الأخبار" بـ"ابن جُهَيْنَة"، إذ كان والده إبراهيم علام رائد الكتابة الرياضية فى الصحف المصرية يسمى نفسه: "جُهَيْنَة".

وهناك كتاب اسمه "قَسٌّ ونبىّ" كتبه نصرانى لبنانى فى أواخر القرن الماضى يريد أن ينال به من صدق نبوة مُحَمَّد عليه السلام، وكُتِب اسم مؤلفه على أنه أبو موسى الحريرى، وهو اسم ليس له وجود. كذلك هناك كتاب آخر بعنوان "هل القرآن معصوم؟" صدر، كما هو مذكور على صفحة العنوان، فى النمسا عام ١٩٩٤م، غايته التشكيك فى إلاهية المصدر القرآنى، ويحمل اسم عبد الله عبد الفادى، وهو اسم مزيف. وقد رددت على كل ما فيه من سخف وتنطع وتهافت وتفاهة و"مَعْيَلَة" فى كتاب لى اسمه "عصمة القرآن الكريم وجهالات المبشرين".

وهناك أيضا الحيلة التى لجأ إليها الفيلسوف مالك بن نبى فى مفتتح كتابه المشهور الذى ترجم فيه لنفسه: "مذكرات شاهد القرن"، إذ حكى لنا أنه بينما كان يصلى العصر وحده فى ركن منعزل بمسجد قسنطينة بالجزائر شعر بشخص يتسلل إلى جانبه وهو ساجد فى ركعته الثانية ويترك ربطة أوراق ثم يمضى، وحين انتهى من صلاته ووجد الربطة ولم يظهر صاحبها اضْطُرَّ إلى فتحها فوجد مذكراتٍ

شخصيةً هامة كتبها بعضهم ورأى هو، نظرا لأهميتها الشديدة، أن ينشرها على الناس. لقد كان على مالك بن نبى أن يبين لنا كيف بلغته تلك المذكرات التى ينشرها على القراء ما دام لم يشأ أن يذكر أنه هو صاحبها وكاتبها، وإلا لقد كان ينبغى أن يقول بصريح العبارة إنه هو صاحبها وكاتبها، وهو ما لم يشأ أن يفعله لأمر أو لآخر، فكان لا بد إذن من اصطناع تلك الحيلة، وإن كانت حيلة مكشوفة كما نرى وكما لابد أن يكون هو أيضا قد شعر، ولكن هذه نقرة أخرى. ولا أظن ما صنعه حلمى القاعود فى عَزْو الرواية إلى زميل السلاح الشهيد إلا حيلة من هذا النوع. وما سقته هنا من أمثلة هو مجرد عينات سريعة جدا من الأدب العربى وحده.

وهذا الذى مضى يندرج تحت ما يسميه الفارغون هذه الأيام بـ"عتبات النص"، وهو باختصار كل ما لا يدخل فى نص العمل الأدبى مباشرة رغم وجوده على غلاف الكتاب وفى أوراقه الأولى. ومما يدخل فى تلك العتبات أيضا عنوان الكتاب. وعنوان روايتنا هو "الحب يأتى مصادفة". وأجد كثيرا من النقاد فى العقود الأخيرة يردد فى ثقة ويقين أن العمل الأدبى يكمن كله فى العنوان وينطلق كله من العنوان مع أن العنوان كثيرا ما يتأخر التفكير فيه إلى ما بعد الانتهاء من ذلك العمل. كما أن كثيرا من الروايات مثلا تحتوى على عدد من الموضوعات، ثم نرى العنوان يشير إلى موضوع واحد منها فقط مثلما هو الحال فى رواية كاتبنا المسماة: "شغفها حبا"، فقد احتوت تلك الرواية على عدة حكايات لكل منها بطلها أو بطلتها، ومع هذا فالعنوان يشير إلى شىء واحد مما وقع لبطلة إحدى حكاياتها ويترك الأبطال والموضوعات الأخرى.

ليس ذلك فقط، إذ إننى قد قبل قراءتى تلك الرواية الأخيرة لم يكن يمكن أن يدور بخيالى، مهما كان خيالى واسعا ونشطا ومحلقا، معنى هذا العنوان. وكيف

كنت أستطيع ذلك وأنا لست من الذين يشمون على ظهر أيديهم؟ وقد وقع الكتاب فى يد أحد أقاربى، فظن أنه عن قصة يوسف عليه السلام، وبخاصة أن المؤلف قد صدَّر الرواية بآية قرآنية من السورة "الخاصة بذلك النبى، وهى قوله تعالى: "وقال نسوةٌ فى المدينة: امرأةُ العزيز تراود فتاها عن نفسه. قد شغفها حبا. إنا لنراها فى ضلال مبين"، ليكتشف سريعا أن الرواية لا صلة بينها وبين ذلك النبى على أى نحو. بل إنى لأستغرب كيف وضع المؤلف هذه الآية الكريمة فى بداية روايته رغم أنه لا توجد وشيجة بينها وبين القرآن الكريم كله لا قصة يوسف فقط.

الحقيقة أنه لا بد من قراءة الرواية، أية رواية، كاملة حتى نستطيع الربط بينها وبين عنوانها، وإلا فكيف يمكننا أن نخمن مثلا موضوعات روايات نجيب محفوظ: "السراب، بين القصرين، قصر الشوق، السكرية، بداية ونهاية، أولاد حارتنا، الشحاذ"... إلخ من مجرد قراءة العناوين؟ ذلك أمر مستحيل. أما عنوان روايتنا الحالية: "الحب يأتى مصادفة" فليس له صلة بنصها، اللهم إلا أن أشرف صَدِيق حامد بطلها حين ذهب معه فى إحدى إجازاته من الخدمة العسكرية إلى قريتهم، التى هى فى ذات الوقت قرية أهل أمه، ولاحظ أن حامد متعلق بزينب سأله: هل أحببتها مصادفة كما أحببت أنا هدى؟ وهذا كل ما هنالك من صلة بين العنوان ونص الرواية.

وبمناسبة تلك العتبات غير المقدسة فإنى أقرأ الرواية التى فى يدى الآن من نسخة بى دى إف تخلو من صورة الغلاف الخارجى، وما أدراكم ما الغلاف الخارجى؟ إنه أهم عتبة. إنه "العتبة الجزاز" فى الأغنية الشهيرة التى كسرت الدنيا عندما ظهرت فى ستينات القرن البائد: "العتبة جَزَاز، والسِّلِّم نايْلو فْ نايلو". نعم ففى رأى المخابيل الذين هم "كالهبلة اللى مسّكوها طبلة" أن هذه الرواية ينقصها

أهم شيء: الغلاف وتصميم الغلاف، ونوع الخط الذى كُتِب به العنوان ولونه، وصنف الورق الذى فُصِّل منه الغلاف. يقينا لسوف تخر السماء بنجومها وكواكبها وتندك الأرض وتنهد الجبال هدا إذا لم نعرف كل هذا.

وأنا فى الواقع دائم السخرية ممن يقيمون الدنيا ويقعدونها فى الحديث عن هذه العتبات، وأنظر إليهم على أن بعقولهم خللا. ذلك أن تلك العتبات لا علاقة لها بالإبداع الأدبى. فالأدب شيء، وتصميم الغلاف أو كتابة عبارة الإهداء شيء آخر. وها نحن أولاء قد شاهدنا بأم أعيننا كيف أنه لا صلة بين رواية "شغفها حبا" وبين قصة يوسف فى القرآن المجيد. لقد اجتهد الكاتب فاستشهد بالآية القرآنية المذكورة، لكن لم يكن لتلك الآية موضع فى الرواية. كما أن مصمم الغلاف بل مصمم الكتاب كله ليس هو الأديب الذى كتب الرواية، بل شخص آخر، فكيف نحاسب العمل الأدبى وصاحبه على ذلك؟ وحتى لو كان المؤلف والمصمم شخصا واحدا فإن ذلك الشخص مصمما لا علاقة له به هو نفسه روائيا. هذه نقرة، وتلك نقرة. هذا روائى، وذاك مصمم. فما الذى وضع أبا قرش مع أبى قرشين؟ ثم فلنفترض أن الكاتب كان ضعيف الإمكانات المادية وأخرج روايته فى ورق ردىء واختار له الطبّاع خطا غير مريح، فما ذنبه هو؟

لقد قرأت مثلا روايات المنفلوطى شبه المترجمة، أول ما قرأتها وأنا صبى، فى طبعة فاخرة وورق أبيض سميك فى أواسط ستينات القرن الماضى، وكان الخط كبيرا واضحا جميلا، وكانت الصفحة واسعة، وكانت هناك هوامش تشرح الكلمات والعبارات الجديدة والصعبة، وكنت فى غاية "الانشكاح" وأنا أقرؤها. ثم مرت الأعوام، ووقعت فى يدى نفس هذه الروايات فى طبعة أخرى ضيقة الصفحات كابيتها، صغيرة الحروف، وأعترف أننى لم أهش لها كما كنت أهش لطبعة الصبا، لكنى بحمد الله من العقل والحصافة بحيث لا أفكر فى تحميل الكاتب مغبة هذا

التغيير. ثم إن الطبعتين قد ظهرتا بعد موته بأزمان، فما علاقته بكل هذا؟ وكيف يمكن أن يدور فى عقل عاقل أن نحمِّل المنفلوطى وِزْر الطبعة الصغيرة أو ننسب إليه الفضل فى الطبعة الأخرى الجميلة، ولا فضل له فيها مثلما لا وزر له فى الأخيرة؟

وأمامى الآن وأنا أكتب هذه الكلمات مقال نقدى لرواية من الروايات كتبه أستاذ جامعى ترك الدنيا كلها وأمسك بغلاف الكتاب: لونه والصورة التى تحتله بتفاصيلها وخطوطها وألوانها والمغزى من وراء كل ذلك. خيبة الله على مثل هذا نقدا. إنه خبل أصاب الكثيرين ممن يحسبون أنفسهم على فئة النقاد بقوة النبوت، والعياذ بالله. ومع هذا فإن الرجل يؤدى مهمته بكل أعصابه وتركيزه الحاد، وقد توفَّز كل عِرْق فيه وتسارعت نبضات قلبه موشكا على الانفجار الكونى العظيم وكأنه يؤدى مهمة مقدسة، أعانه الله على ما هو فيه. بل إنى لأسمع ناقدنا الهمام وقد ارتفع زحيره من بين ورقات المقال المذكور كما تزحر المرأة التى تلد ولادة متعسرة يمكن أن تروح فيها من بُرَحَاء ما تقاسى ومن الصعوبة البالغة للوضع البائس الذى هى فيه. مسكينة!

ومعروف أن من الكتّاب من يبرع فى اختيار العبارات الجميلة يرصّع بها مقدمات أعماله الأدبية على حين لا يرقى مستواه الإبداعى إلى الدرجة العاشرة، فى الوقت الذى نجد كاتبا عملاقا كنجيب محفوظ لا يفكر فى اقتباس عبارة من كاتب أوربى يقدم بها رواية من رواياته، بل يدخل فى الكتابة مباشرة. أفنقول حينئذ إن الكاتب الأول التافه أبرع من نجيب محفوظ بسبب عتبة الإهداء، التى غابت عن رواية صاحب جائزة نوبل، إذ تركَنا (منه لله!) ندخل روايته فورا دون أن تكون هناك عتبة، فلم تكن هناك فرصة لكى نغنى ونحن نشرع فى قراءتها: تاتا خط العتبة! تاتا حبة حبة؟

ألا خيبة الله على التافهين والتافهات الذين خلعوا عقولهم ورَمَوْها قبل أن يعبروا العتبة وظنوا أنه ما دام النقد الغربى قد رفدنا بموضوع العتبات فقسمًا بشنبى ومركوب سيدى غازى: لن أكتب نقدا للرواية قبل أن أقف أمام العتبات وأنحنى عليها وأقبلها وأنظم فيها قصائد الغزل وأعبر عن ولهى بها وبعبقرية صاحبها وأتوصل إلى المغزى الميتافيزيقى الذى يكمن وراءها أو أمامها أو فوقها أو تحتها أو عن يمينها أو يسارها. أتظنون الأمر سبهللا؟ إننا فى مجتمع يدلق الملوخية المطبوخة والمياه المعزَّم عليها عند العتبة، ولا بد لكى ينفك النحس أن نقف أمام العتبة نحن أيضا ونعزِّم تعزيمة مضادة توقف عمل التعزيمة الأولى المؤذى. أرأيتم كيف أن عتبات النص من الخطورة بمكان؟ يا أمةً ضحكت!

ثم ما دمنا قد وقفنا عند العتبة فكيف نهمل الباب والشباك؟ لقد غنت الأغانى لهما كما غنت للعتبة. ألم تقل فايزة أحمد: "م الباب للشباك. رايحة وجاية وراك"؟ ألم تقل مطربة أخرى مهددة حبيبها الذى لا يرقّ لها قائلة: "ومن الشباك لارْمِى لك حالى"؟ فلم التمييز إذن بينها وبين العتبة؟ هذه تفرقة نسوية. فالباب والشباك مذكران، والعتبة مؤنثة. والغريب أن النساء، وهذه مندبة أخرى أخذنها عن الرجال الفاضين المولعين بالتفاهات والسخافات، يشكون دائما بحق فى بعض الأحيان، وبغير حق فى معظم الأحيان، أن مجتمعاتنا العربية والإسلامية مجتمعات بطرياركية، أى تمالئ الرجل على حساب المرأة وتظلمها ظلم الحسن والحسين وتقهرها وتستغلها وتقمعها وتعذبها وتحرمها كل حقوقها وتريها النجوم فى عز الظهر وتتركها تقاسى الحمل والولادة وحدها دون أن تقسم هذه المهمة بينها وبين زوجها، الغريب أن النساء لا يتقدمن وينصفننا نحن الرجال وينادين بأن يشمل نقادنا الأشاوس، نقاد العتبة، بعين العطف والمرحمة والاهتمام الباب والشباك،

اللذين ينتسبان إلى جنس الرجال البلاليص، قصف الله رقابهم جميعا، مثلما شملوا بها العتبة، التى تنتمى بتأنيثها إلى جنس القوارير الهَشَّات البَشَّات.

على أن المسرحية السخيفة لما تتنه فصولا، فهناك العنوان، وما أدراكم ما العنوان؟ لقد قرأت مرة لأحد النقاد العراقيين التافهين الضحال المعرفة والموهبة أن الكتاب كله يتركز فى العنوان، والعنوان كله يتركز فى الكلمة الأولى منه، وأن الكلمة الأولى تتركز فى الحرف الأول. أرأيتم عبقرية متعبقرة كهذه العبقرية؟ شفى الله الكلاب وضرك أنت يا سيدى الناقد المتعوس المنحوس! وقال سيادته توضيحا لهذا إن العنوان هو النواة المخصبة التى ينبت منها الكتاب. وطبعا هذا يستلزم أن يختار الكاتب عنوانه قبل أن يخط حرفا فيه، فالنواة تغرس فى الأرض ثم يظهر بعد ذلك ساق النبات، أما العكس فمستحيل. ومعروف أن كثيرا جدا جدا من المؤلفين، ومنهم أنا، لا نستقر على العنوان أو لا نختاره ولا نفكر فيه أصلا إلا بعد الانتهاء من تأليف الكتاب، ونظل أحيانا حيارى أياما بل أسابيع قبل أن نعزم أمرنا ونكتب العنوان. بل إنى اخترت ذات مرة عنوانا لأحد كتبى حين نشرته على المشباك (النت)، لكنى لما فكرت فى طبعه للدراسة أعطيته عنوانا آخر.

ثم بالله عليكم أى نواة مخصبة وأى بطيخ فى عنوان رواية نجيب محفوظ: "بداية ونهاية"؟ إن هذا العنوان ينطبق على أية رواية فى الدنيا، إذ ما من رواية بل ما من كتاب بل ما من شىء وما من نبات وما من حيوان وما من ابن من أبناء آدم وحَوًّا إلا وله بداية ونهاية. أما "قصر الشوق" فقد ظللت أتصور أنه اسم قصر مضاف إلى الشوق، ظانا أنه قصر كانت تجرى فيه غراميات وانتقاميات حتى قرأت الرواية وعرفت أنه حى من الأحياء القاهرية. أى أنه كان لا بد من قراءة العمل أولا قبل أن أفهم العنوان ثانيا. على أن العنوان لا يغطى الرواية ولا يخصبها ولا يلقحها ولا يتزوجها ولا ينجب منها لا من الحلال ولا من الحرام، إذ ماذا يعنى

اسم حى من أحياء القاهرة؟ إن من يعرف أن هذا حى قاهرى ولا يعرف طبيعة الكتاب وأنه رواية سوف يظن أنه كتاب فى الخُطَط. وحتى بعد أن يعرف أنه رواية فيا ترى ماذا يعنى العنوان؟

إن الرواية المذكورة عالم موار بالأحداث والأشخاص والمشاعر والمواقف والرجال والنساء والشبان والفتيات والزواج والدعارة والحب العذرى والخيانة العاطفية وعشق الوطن والموت فى سبيله وانكسار قلب الأم والأب على ابنهما الشاب والغيرة بين الأختين والتطلع من الشباك والضابط "أبو الشريط الاحمر يا اللى" والشراكة فى التجارة وجليلة العالمة وصبياتها وياسين وفهمى وسيدنا الحسين وعربة سوارس وسى السيد وتبخير زوجته له كل صباح حين يخرج لدكانه وكأنه ذاهب إلى خط النار من فوره. ماذا نقول؟ وماذا ندع؟ ثم يأتى المخابيل فيرددون كلاما قرأوه لبعض النقاد الغربيين متصورين أنهم بهذه الطريقة سوف يسامتون الغربيين المتحضرين على حين أنهم بهذه الطريقة إنما يثبتون أنهم لا يزالون مرتكسين فى مستنقع التخلف والجهل وضياع الشخصية وأنهم لم يغادروا مرحلة الببغائية ولن يغادروها بمشيئة المولى العظيم ما داموا ينهجون ذلك النهج القرودى. وهذا فى العنوان كاملا، فما بالك إذا ما انخبطنا فى يافوخنا مثلهم وقلنا إن الكلمة الأولى من العنوان تختزل العنوان كله، وإن الحرف الأول يختزل الكلمة الأولى التى تختزل العنوان الذى يختزل الكتاب الذى يختزل حال المؤلف التاعس البائس؟ ألا خيبة الله على الرقاعة والرقعاء!

ما علينا، فلنلتفت إلى رواية د. القاعود، وإلا فلن ننتهى من هذا المَوَّال. وأول ما ألاحظه عابرا أن الرواية، رغم أهمية موضوعها وقدرة الكاتب على أن يرسم من خلالها مواقف المثقفين والناس من قضايا الفترة السابقة مباشرة على حرب رمضان المجيد، قد خطها قلمُ روائيٍّ كان ينقل خطواته الأولى فى عالم القص.

ذلك أن حامدا سارد أحداث الرواية، وهو شخص من أشخاصها مجند فى الجيش وله مشاركات أدبية ونقدية ويتردد على دار الأدباء أوائل سبعينات القرن المنصرم، يخبرنا مثلا فى أول الرواية بحرصه على ألا يناقش الكاتبَ الأستاذَ عامر المنوفى، الذى صادفه فى دار الأدباء حين زارها فى إحدى إجازاته، لأنه متصلب الرأى ولأنه مصاب بارتفاع ضغط الدم، فيخشى إن ناقشه وخالفه فيما كان يتحدث إليه فيه أن يحدث له ما لا تحمد عقباه، لنباغت بعيد قليل أنه نسى هذا الحرص واندفع فى مناقشة الرجل ومخالفته، ولم يحدث للرجل أى شىء.

كذلك نراه يقول إن الأستاذ المنوفى هذا يكتم سرا فى قلبه يستحى أن يجهر به، وإنه لو وجد أديبا ناشئا مثلا يستمع إليه لباح له به، لكن البطل لا يفهمنا نوعية هذا السر الذى يمنع صاحبَه من البوح به أن الكل مقتنعون بضحالة ذلك "الجهبذ الكبير" كما كانوا يسمونه على سبيل التهكم. فلم أثار الكاتب تلك النقطة ما دام لا ينوى أن يفتحها مع أن فرصة البوح كانت متاحة على أحسن ما يكون، إذ حامد أديب ناشئ، وليس هناك أحد آخر يمكن أن يعكر على عامر المنوفى صفو إحساسه الحاد بذاته؟ أتراه يريد تشويق القراء؟ لكنه تشويق فى غير محله لأن التشويق الروائى يدفعك للاستمرار فى القراءة بشغف حتى تصل إلى نهايتها لا أن يهم المؤلف بفتح الباب، لكنه عوضا عن فتحه يعود فيغلقه بالضبة والمفتاح تماما.

كذلك هناك المبالغات فى الوصف. خذ مثلا قوله عن عامر المنوفى وهو يناقشه محاولا إقناعه بألا بد لنا من دولة كبرى تقف إلى جوارنا، ألا وهى روسيا، وأن اعتمادنا على أنفسنا هو ضرب من السذاجة والجعجعة الفاضية: "علا صوته، وانتفخت الأوداج، وأخذت عيناه تسح ماء ساخنا ممزوجا بمشاعر التيه والصلف والأستاذية وحب الذات. كل هذه المشاعر تجمعت فى رأسه المستطيل

فتدور به كما المروحة، فلا يقر على قرار. كنت أريد أن أحكى له عن جيلى وعن وطنى وعن الأسى وعن المستقبل، ولكنى أحسست رغما عنى بالحزن يتسلل إلى داخلى، وشعرت كأن قطرات الدم تتساقط من قلبى بكاء صموتا لا يكف عن المطر. حاولت أن أخفى مشاعرى، ولكن الليل أضوانى، فسكبت على شفتى قطرات من الشجاعة المصطنعة فى لحظة قهر". وواضح مدى المبالغة الهائلة فى كلام حامد عن عامر المنوفى وعن نفسه. وواضح أيضا أنه أخذ عبارة "الليل أضوانى" من قصيدة أبى فراس الحمدانى، التى كانت حديثة عهد بالتلحين والغناء والتى يقول فيها الشاعر الفارس الكبير:

إذا الليلُ أَضْوَانِى بسطتُ يد الهوى وأذللتُ دمعًا من خلائقه الكِبْرُ

وهذا كله سببه أن الكاتب كان لا يزال فى بداياته الأدبية. ومع هذا فإننا نتوق بخلع الضرس أن يستطيع أحد الشبان الأدباء هذه الأيام كتابة جملة واحدة مستقيمة لغويا وأسلوبيا كهذه الفقرة. بل لقد كان هناك فى ذلك الوقت روائيون لا يرتفع أسلوبهم إلى هذا المستوى كإسماعيل ولى الدين مثلا، الذى أذكر أننى كنت أعانى من الأخطاء اللغوية الكثيرة فى رواياته رغم أنه كقصاص كان يشدنا بوجه عام إلى ما يكتبه. ولا أظن الغيطانى ولا القعيد حتى بعدما اشتهرا واستعانا بمن يصحح لهما لغتهما يمكنهما الكتابة بمثل تلك الاستقامة. ومع هذا فلا بد لى من أن أقول وأنقد، وأوضح فى نفس الوقت وأبين أن تلك الملاحظات التى آخذها على الرواية، ومن صفحاتها الأولى، هى أمر طبيعى. فالكاتب الجيد لا يولد فى ميدان الإبداع كاتبا جيدا بل لا بد له من التمرس والدأب والمثابرة والتطوير الذاتى المستمر واستماع كلمات النقد الصادقة والأخذ بها، وعندئذ يرتقى ويعلو، وقد يبلغ مستويات لا تُصَدَّق بفضل الله وإذنه.

هذا، وقد ضربت صفحا عن قول السارد التالى: "أخذت عيناه تَسُحّ ماء ساخنا" معيدا ضميرا مفردا (هو الضمير المقدر فى الفعل: "تسح") على فاعل مثنى (هو "عيناها"). وقد كتب فى هذا الموضوع منذ وقت بعيد المرحوم مدحت عاصم الملحن المعروف (الذى لم أسمعه فى حوارته الإذاعية يتكلم بغير الفصحى) حين رد على من خطأ الشاعر فتحى سعيد فيما أظن فى مثل هذا التركيب قائلا، حسبما أذكر، إن ذلك جائز مع العينين، ومستشهدا على ما يقول ببعض الشعراء القدامى. وقد بحثت الآن عن شواهد على ذلك فوجدت لابن الأبار الأندلسى:

وَلْـيَكْهَمِ السيفُ الصقيلُ فَإِنّما عيناهُ تُغْنى عن ذَلاقَة حَدِّهِ

ولابن الوردى:

عيناهُ أفنتْ أكثرَ العشاقِ وهكذا تصنعُ فى البواقي

ولابن زَمْرَك:

لم تروِ لى عيناه حكمة بابل إلا أخذتُ حديثها مقبولا

ولابن فرج الجَيَّانى:

عيناه تطلب فى آثار من قتلت فلست تلقاه الا خائفًا وجِلا

ولابن قلاقس:

وكنتُ كَمَنْ عَيْنَاهُ تَرْقُبُ فَجْرَهُ فلما تَبَدَّى الفَجْرُ أَوْسَعَنَا الفَجْرا

* * *

يَسْعَى بها رَشَأٌ عيناه مُذْ رَمَقَتْ لم يُبْقِ فِى ولا فيها سوى الرَّمَقِ

ولأبى الرَّقَعْمَق:

عيناه تسطو على فؤادي والموت فى سطوة العيون

ولأبى نواس:

عَينــــاهُ تقــــسمُ داءً فى مَجاهِرِهــــا   وَرُبَّمــا نَفَعَــتْ مِــن صَــولَةِ الــداءِ

ولسبط بن التعاويذى:

إنْ أَنكَرَتْ مِن دَمِى عَيناهُ ما سَفَكَتْ   فَقَــد أَقَــرَّ بِــهِ خَــدّاهُ وَاعتَرَفــا

وما دمنا دخلنا فى اللغة فينبغى أن أتعرض لقول السارد عن أحد المجندين إنه ترك الأزهر فى العام "الواحد والستين"، وهو ما يرفضه المتنطسون فى استعمال اللغة، إذ الصواب الذى لا صواب سواه فى رأيهم هو "الحادى والستين". وقد سمعت هذا من أحد الصحفيين فى تسعينات القرن المنصرم حين استخدمت تلك الصيغة معه فى الهاتف خلال ردى على بعض الأسئلة التى كان يستفسر عنها منى، مما استفزنى فقلت له: لكن الأصل فى الكلمة هو "الواحد"، أما "الحادى" فهى منقلبة عنها، والعودة إلى الأصل لا تُخَطَّأ. وقد ظللت أيامها "أدعبس" فى كتب النحو واللغة القديمة، فعرفت أن من العرب فعلا من يقول ذلك، بل ويقول أيضا: "الكتاب الواحدَ عَشَرَ" (بدلا من "الكتاب الحادىَ عَشَر")، و"عندى واحدَ عشرَ كتابا" (عِوَضًا عن "أَحَدَ عَشَرَ كتابا")، فتعلمتُ ما لم أكن أعلم، وحمدت الله على تلك النعمة التى سيقت إلىَّ دون سعى منى فى البداية.

أما "يضجّ الخندق النصف مظلم بالضحك" فليس لها فى حدود علمى تبرير، لأن الاسم المعرف بـ"أل" يجب أن يعرى من الألف واللام عند إضافته إلى اسم آخر ما عدا ما كان مشتقا ومضافا إلى معموله المعرف هو أيضا بالألف واللام أو إلى ما كان مضافا إلى معموله المعرف بدوره باللف واللام... إلخ كما فى قولنا على الترتيب: "الممزِّق الكتابِ، الممزِّق غلافِ الكتاب، الممزِّقه". وواضح أن "النصف مظلم" لا تدخل تحت أى بند من هذه البنود.

وأذكر أنى فى السنة الثانية الثانوية كنت أكتب فى موضوعات الإنشاء عبارات تشبه فى تركيبها عبارة "الغير مناسب"، فيصححها لى أستاذ اللغة العربية إلى "غير المناسب" ولكن دون أن يوضح لى وجه الخطإ فيها، فكنت أستغرب تخطئته للتركيب، إلى أن أشرق على عقلى فجأة بعدها بسنواتٍ السرُّ فى ذلك حين كنت أراجع باب الإضافة لنفسى ذات يوم. وكذلك تكرر فى كلام السارد تركيب يشبه تركيب عبارة "يحب الناس بعضهم"، والصواب فيما أعرف "يحب الناس بعضهم بعضا"، أما التركيب الآخر فتركيب عامى، ولا أذكر أنى قابلته بتاتا فى قراءاتى التراثية ولا فى القراءات الحديثة المعتبرة.

وقد لاحظت أيضا أن السارد، وهو أحد أشخاص الرواية، لا يكتفى بمخاطبة سائر الشخصيات التى يقابلها، بل يخاطبنا نحن القراء أيضا بين الحين والحين، وإن كان لا يطيل فى العادة مخاطبتنا بل يكتفى بعبارة عارضة. ففى أثناء حديثه عن الخالة حياة مرعى صديقة أمه نراه يوجه الخطاب إلينا مباشرة: "وأظنكم تعرفون الخالة حياة جيدا. معظمكم ممن يعرف القراءة طالع مقالاتها فى مجلة "الجهاد الوطنى". توقع فيها مقالة إسلامية كل شهر باسم "حياة مرعى"، وأحيانا باسم مستعار: "أم مجاهد"...". فالرواية مسرودة بطريقتين: الأولى يتحدث فيها السارد فقط: لنفسه طبعا، وكأنه لا يتحدث بل يتذكر، والثانية يتحدث فيها إلينا.

وهذه الطريقة الأخيرة هى إحدى طرق السرد القصصى مع شىء من التعديل، إذ لا يوجه السارد فى هذه الطريقة كلامه إلى القارئ بل إلى البطل ذاته كما سأوضح حالا. وليس لهذه الطريقة نفس ذيوع السرد بضمير الغائب حيث يكون السارد هو السارد العليم بكل شىء، ولا نفس ذيوع السرد بضمير المتكلم، وهو السرد الذى يقوم به أحد أشخاص العمل القصصى. أما السرد المستخدم فيه ضمير المخاطب فهو سرد ممل ويستوجب أن يكون السارد ممسكا طوال

الوقت بذيل جلباب البطل، فكلما أتى البطل شيئا أو تركه أتاه صوت السارد يقول له: أنت فعلت كذا، وتفعل حاليا كذا، وتقول كيت وذيت. وهو أمر لا يطاق، لا من البطل ولا من القارئ: فلا أحد يطيق أن يكون عليه طوال الوقت رقيب عتيد ومرئى لا خفى كالملائكة التى تحصى علينا أعمالنا وأقوالنا وأنفاسنا، لكنها لا تزعجنا بحضورنا ونَقِّها طوال الوقت مثل السارد صاحب ضمير المخاطب. كما أن القارئ يضيق صدرا بهذا السارد لأنه يقف حائلا بينه وبين البطل ولا يتركه يستمع بنفسه إلى ما يقوله أو يفعله بل يتدخل تدخلا سمجا، فضلا عن أنه إنما يخاطب البطل، وهل هناك أحد فى الدنيا يحتاج إلى من يخبره بما فعله ويفعله وسيفعله؟ ولقد شرعت منذ وقت ليس بالبعيد فى قراءة رواية فرنسية مسرودة بضمير المخاطب، فاستسخفت الأمر كله ولم أستطع الاستمرار.

ونعود مرة أخرى إلى د. القاعود فأقول: يا حبذا لو لم يتوجه بالخطاب إلى القارئ حتى لا يخدش الوهم الذى يعيشه ذلك القارئ، إذ يحس أن الأمر غير طبيعى، فلا أحد فى الروايات والأقاصيص يمكن أن يتواصل مع القراء كما فعل حامد بطل الرواية. كذلك استغربت أن يزور بطلنا الخالة حياة فى إحدى إجازاته من الجيش، وكان قد تعرف بابنها مصادفة فى الخدمة العسكرية، فلا يكون أول ما يخبرها به هو أنه قابل ابنها وتعرف إليه، بل يسكت ويذهب يتأمل الأثاث واللوحات والتحف وما إلى ذلك، وترحب هى به وتقدم له الشاى ويؤدى إليها رسالة أمه وتشرح له عذرها فى أنها لم تعد تزورهم بالقرية كما كانت تفعل قبلا، مع كلام آخر كثير، ثم يجرهما الكلام جرا إلى الجيش، فتقول له على سبيل الاستطراد العارض إن لها ابنا فى الجيش، وهنا وهنا فقط لا غير ولا سوى يقول لها: "أشرف؟"، فسألته وكأنها لا تصدق: هل تعرفه؟ فيحكى لها ظروف تعارفهما.

إن هذا التصرف من بطل الرواية وساردها تصرف غير واقعى. بل إن تصرف الخالة حياة هو أيضا غير طبيعى. ذلك أن حامد الشيمى بطل الرواية وساردها سيقول لنا فيما قال إنه قد نصح أشرف الصعيدى ابنها أول تعارفهما فى الجيش: "قل لأمك يا أشرف: اصنعى لى زوادة مثل أم حامد. خالتى حياة خير من يفهم هذه الأمور. أليست فلاحة مثل أمى رغم قشرة المدنية على مظهرها؟". ولم يكذب أشرف الصعيدى خبرا بل نقل لأمه ما قاله له حامد الشيمى، وفرحت أمه بكلام حامد وصنعت له الزوادة المقترحة. إذن فكيف سكتا، فلم يفتح أى منهما موضوع معرفته بابنها أول ما زارها؟ يبدو أن حامدا كالقطط: يأكل من الزوادة وينكر!

كذلك لم يحاول السارد أن يوضح لنا السبب فى أن هذه السيدة الريفية التى لا تتميز عن أمه فى شيء تكتب مقالات إسلامية فى المجلات، ويعرفها الناس جيدا لشهرتها بذلك. ومما يجعل توضيحه ذاك لنا أمرا لازما أن الخالة حياة تجمع بين الكتابة فى القضايا الإسلامية وحبها للرقص الشرقى، وبخاصة أنه هو الذى تعجب أكثر من مرة من هذا الجمع الغريب، فكان ينبغى أن يبل ريقنا ويشبع فضولنا ويحكى لنا عن السيدة المذكورة ما يقشع ذلك الظلام بدلا من أن يتركنا نتقلى ونتلعبط من الألم على صفيح ساخن كما يقال فى مثل تلك الحالة بينما هو ينظر إلينا متلذذا بما نحن فيه من آلام التشوق المبرحة. أأقول: "حسبنا الله ونعم الوكيل فيك يا حامد يا شيمى" مثلما يقول كل المصريين فى أى شخص يمشى على غير هواهم؟ هأنذا قد حسبنت عليك يا حامد يا شيمى، وفششت شيئا من غليلى، والحمد لله. ارتحتَ وهدأتْ أعصابك يا عم حامد؟ ولقد انتظر السارد عشرات الصفحات قبل أن يعاود فتح هذا الملف، فنعرف من محادثة بينه وبين خالته حياة بعد عدد كثير من الصفحات أن الأمر لم يكن سوى نزوة طفولية

ظلت عالقة بنفسها زمنا طويلا إلى أن شفاها الله منها وأراها وجه الحق وعرفت كيف تعيش الراقصات الشرقيات وماذا يعانين. وهذا كثير جدا، إذ ليس هناك مبرر لكل هذا الانتظار الذى لا معنى له فنيا أو مضمونيا.

ومع ذلك فإن وصفه لمنطقة الحسين والشوارع الموجودة بها والتى أتى على ذكرها نجيب محفوظ فى بعض رواياته، وكذلك لمنطقة المبتديان حيث يتقاطع قضبان قطار حلوان مع خط الترام المار من هناك، هو وصف ملىء بالشجن الشاعرى ترك السارد فيه نفسه على سجيتها، فبدا لنا مدى حبه لنجيب محفوظ وكذلك لمحمد عبد الحليم عبد الله، الذى يتعلق به حلمى القاعود تعلقا شديدا وكتب عنه دراسة هامة، والذى لا تبعد قريته: "كفر بولين" كثيرا عن قرية أبو المجد بلد د. القاعود كثيرا. وأتصور أن ما قاله السارد عن عبد الحليم عبد الله هنا يشى بأنه هو حلمى القاعود نفسه لا حامد ولا دياولو. وبالمثل تشى الإشارة إلى النهر الواسع الهادئ الذى تهبط شمس الغروب فى قاعه إلى أنه النهر الذى تقع عليه قرية أبو المجد والذى يطل عليه منزل حلمى القاعود شخصيا.

كذلك شدنى حواره الصامت مع سبط الرسول حين ذهب لزيارة مسجده رغم ما فى ذلك الحوار من طابع وعظى يتمثل فى إنكاره على الجموع المزدحمة بالضريح تأديتهم الطواف فى آلية ولامبالاة بقيم الدين ولا بمعانى الشهادة التى يمثلها الحسين عليه رضوان الله، ورغم أن الموضوع نفسه يمثل نتوءا فى السرد لا يمكن تسويته ببقيته. فقد ظهر فجأة، ثم اختفى فجأة كأنه لم يكن. وهو ما تكرر فى كلامه عن خان الخليلى ومآذنه، إذ ذكَّرته المآذن بأيام مجد الإسلام القديمة حين كان المسلمون يقدمون أرواحهم رخيصة فى سبيل نصرة الدين العظيم قبل أن يطوف على عيونهم الكسل السمج كما يقول.

والظريف الطريف أن السارد لا ينسى فى هذا السياق التاريخى الباكى الحزين نصيبه من الدنيا، إذ تمنى أن تكون له عروس جميلة مشوبة الخدين بالحمرة تهدهد بأناملها الرخصة مفرق شعره وتطفئ ظمأه. ثم ينخرط فى فاصل من الأحلام والمناجيات معها. الله الله يا سيدى على الشقاوة والعفرتة! كنا لتونا مع الحسين والمآذن والتاريخ المجيد والبلادة التى صارت سيدة الموقف منذ قرون، فما الذى لم عيشة على أم الخير؟ وأظرف من هذا كله أنه هو نفسه قد استحى حين وصل إلى مطالبته لفتاته، فى الخيال، أن تنهض ليقبلها، فقال: لا لا. نحن فى خزانة التاريخ، والخان يمتلئ بالناس. أى أنه لو لم يكن هناك ناس لكان قد احتضنها وقبلها وتركنا ننظر ونغار ونتحسر. إلا أنه سرعان ما يعود رغم ذلك إلى مناجاتها مخبرا إياها أنه سوف يذهب إلى أبيها ويطلب يدها. والصفحات فى هذا الجزء وفى أجزاء أخرى من الرواية تسير على ذلك النحو: تقرأ، فتحزن وتضحك وتنتقل فجأة من موضوع لموضوع، ومن البيئة الخارجية إلى الداخل النفسى والعكس بالعكس، وتستغرب هذه "الخلطبيطة" العجيبة، والظريفة بعفويتها وسذاجتها رغم كل شىء.

ومن ذلك أنه، حين رجع لقريته من القاهرة هذه المرة، فمر ببيت جيرانهم ورأى فى شباكهم ابنتهم زينب، حبيبة القلب التى يرجو أن يتزوجها رغم أن أباها أفيونجى كبير شرس الخلق ذو طبع إجرامى، أخذ يصف كل شىء هناك وأورد كل ما دار بينه وبينها هى وأمها من حديث رغم بساطته وعاديته وعفويته. وهو ما صنعه حين دخل بيت أسرته، فقام الجميع ليرحبوا به ويحتضنوه، إذ انطلق من هذا إلى أن أمه تعادى من لم تعبِّر من الجارات عن ترحيبها بعودة ابنها وتعلن عليها الحرب وعلى كل ما يتصل بها حتى لو أن قطة لها مرت من فوق سطحها لقامت حرب ضروس، ولا يمكن لماء النيل كله أن يطفئ تلك العداوة، بخلاف من تهنئها

بسلامة وصول ابنها، إذ تصير حبيبة قلبها ويسود الأمن والاطمئنان علاقتها بها. ويخرج السارد من موضوع إلى موضوع فى تدفق عفوى يفتقر إلى الترابط، وبدون داع. وهنا آخذ على السارد وصفه لأمه بـ"المرأة أم حامد". الواقع أن هذا كثير لا يحتمل. نعم هو يناديها بـ"أم حامد"، وهى تُؤْثِر هذا النداء على أن يقول لها: "يا امَّه". لكن هذا شىء، و"المرأة أم حامد" شىء آخر غير مقبول ولا متوقع ولا واقعى. ولم يكن الأمر سهوا، ودليلنا على ذلك أنه قد كرره بعد ذلك بقليل.

إن الرواية تعج بالتفاصيل والانتقال بسرعة من موضوع إلى موضوع ومن خاطرة إلى خاطرة، ولأقل تلامس بين الموضوعات والخواطر، بل فى كثير من الأحيان دون أى تلامس بين الموضوعات والخواطر. ومن هذا أن حامد الشيمى حين زار أسرته هذه المرة قد ذكر البطة أو الإوزة التى تذبحها وتحمِّرها أمه إكراما له فى مثل هذه الزيارات تعوضه بها عن الطعام الجَشِب القليل المتاح فى الوحدة العسكرية. ثم هو لا يكتفى بهذا بل يقول إن أمه قد جلست بجواره لتعطيه نصيبا من البطة أكبر من إخوته، ثم هى بدورها لا تكتفى بهذا بل تقطع له اللحم قطعا تسهِّل عليه الأكل والمضغ والبلع: "مَطْرَح ما يِسْرِى يِمْرِى"، ثم هو أيضا لا يكتفى بهذا بل يفصل القول تفصيلا فى الزوادة التى كانت تعدها له أمه ويأخذها معه إلى ثكنته فيفرّج بها على زملائه ويفرحون بها، ولا يفوته أن يصف مشاعر الضيق وهو يحمل تلك الزوادة فى شنطة تثقل أكتافه وتعوق حركته، وقد كتب عليها زملاؤه تعبيرا عن فرحتهم بما تتضمنه من طعام يعوضهم عن قلة طعام الجيش ورداءته: "الفرج بعد الشدة" مما كان سببا فى تعليق الناس عليها فى كل مكان يحل به أو يسير فيه. وهى عبارة مأخوذة من كتاب قصصى تراثى للقاضى التنوخى اسمه "الفرج بعد الشدة" لا يعرفه سوى المتخصصين فى الأدب العربى أو المتصلين من

الكتاب القصصيين بإبداعاته، وهو ما يرشح أن يكون حامد الشيمى هو نفسه حلمى القاعود المتخصص فى اللغة العربية وآدابها.

أما الخواطر فما من كلمة يسمعها أو تجول فى ذهنه إلا وتتبعها خاطرة بل خواطر أخرى كل منها تأخذ بذيل سابقتها، وبخاصة إذا كانت الخواطر تتصل بالمعركة والجيش والهزيمة المذلة فى عام ١٩٦٧م كما هو الحال فى هذا السياق بل فى كل سياق، إذ هو قادر على ربط كل شيء بالمعركة المنتظرة مع الصهاينة. ورغم كل ما يمكن أن يقال سلبا أو إيجابا عن تلك السمة التى تميز الرواية فإنها تعطينا صورة لما كان يسود البلاد أيامذاك من أفكار ومشاعر وتطلعات وقلق تجاه الجيش والجنود والضباط والمعركة القادمة.

لنقرأ معا: "الزوّادة مقدسة فى أيام الرحيل. الذى يرحل من بلدتنا يُعِدّون له زوّادة لأنه لن يجد أحدًا لن يخبز له أو يطبخ. وحين كان الفلاحون يخرجون فى أيام الحصاد إلى البرية للعمل كانوا يعودون ومعهم أَجْوِلَة الأرز قيمة أجورهم فى الحصاد. كانت تمتلئ أمتعتهم فى الذهاب بالزوّادات، وفى الإياب باللقيمات المتبقية من أيام الغربة. وكانوا يفرحون بالعودة مثلى إلى القرية. كانوا يشبعون حين يُشارِفون مدخلها، ويَرَوْن مئذنتها العالية، وبرج الحمام، وبيوتها الراكعة لرب الملكوت. تخضرّ الدنيا على جبينهم الودود. ولكنى عرفت قيمة الزوّادة فى أيام الرمادة، الأيام الأولى تحت رداء العسكر. لقد قُلتُ لأشرف الصعيدى فى أول لقاء: قل لأمك يا أشرف: اصنعى لى زوّادة مثل أم حامد. خالتى حياة خير من يفهم هذه الأمور. أليست فلاحة مثل أمى رغم قشرة المدنية على مظهرها؟ نقل أشرف ما قلته له. فرحت أمه بكلامى وصنعت له زوّادة قريبة الشبه من زوادتى ذكرتنى بأمى على الفور. تريدون الحقيقة؟ لقد كنت أستثقل الزوّادة وأنا عائد إلى الرفاق. كنت أبغضها، أشعر أنها قيد يغلنى ويعوقنى. وعندما أعود إليهم كانوا

يعتبروننى بطلا لأننى أفرجت عنهم وأطلقتهم من سجن التعيين الميرى. يُطْلِقون على حقيبتى: "الفرج بعد الشدة". أخذ أحدهم قلما ملونا وكتبها على الحقيبة بخط كبير. وفى سفرى يُعَلِّق الناس على العبارة ساخرين أو ضاحكين أو مقهورين: الفرج بعد الشدة؟ أى فرج؟ وأى شدة؟

– شدة! يهتف واحد: لم يعد لنا سواك يا رب.

أدارى خجلى. يسألنى مسافر: هل تحمل حقيبة الفرج حقا؟ أم إن مفاتيح الفرج بداخلها؟ الله يبشرك بالخير يا دفعة.

ألوذ بالصمت المضطرم. يفترّ ثغرى عن ابتسامة، أسرح أو أسوح مع الماضى والحاضر والمستقبل فى لحظة واحدة. المستحيل يحتل دماغى. زملائى يحترمون حقيبتى أكثر منى، أقصد ما بداخلها. بعد أن نأكل لا أسلم من النقد، أما الحقيبة فمقدسة قداسة السلاح، وتحظى أم حامد ببعض الثناء أحيانا. وقد حاولت أن أَثْنِيَها ذات مرة عن تجهيز الزوّادة، فأبتْ وأصرتْ، وبعثتْ من يحملها عنى حتى المحطة فى هذه المرة، واستسلمتُ. استسلمتُ رغم ثقل الزوادة وتحسن التعيين فى الوحدة. وفى الطريق تعطل القطار عند بنها، قبلها بقليل، فبحثنا عن سيارة تحملنا إلى داخل المدينة، ومن هناك نواصل السفر إلى الجبهة. طال الانتظار، وسيطر الجوع، ففتحتُ الزوّادة، وتزودتُ حتى شبعتُ. وفى سرى دعوتُ لأمى، وحينئذ أحسست بالحرارة تسرى فى بدنى، وتشجعت على السير مع عساكر آخرين متجهين نحو بنها، تحملنا الأقدار فى طابور غير منظم. ومن هناك واصلنا السفر نحو الجبهة فى زحف عظيم".

ومن الواضح أن السارد قد أخذ على عاتقه أن يورد كل شىء حتى ما ليس له أى دور فى تحريك الرواية إلى غايتها أو لا وشيجة بينه وبين خطها الأساسى. إنه مغرم بالتفصيلات بما فى ذلك تعطل القطار فى بنها، بل "قبلها بقليل" تحديدا

كما سارع ووضَّح، وكأنه إذا لم يحدد بالدقة أن العطل قد تم قبلها بقليل سوف تنهار الرواية أو يكدرونه فى الجيش ويحبسونه انفراديا ويحرمونه النزول فى الإجازة القادمة إلى أهله، فضلا عن حديثه عن بحثه هو وبقية الركاب، لَدُنْ تعطُّل القطار، عن سيارة تقلهم إلى داخل المدينة حيث يجد هو وزملاؤه من المجندين وسيلة مواصلات تحملهم إلى ثكناتهم وكذلك الطريقة التى قطع بها معهم الطريق بين موضع تعطل القطار وبنها. ولا أحب أن تفوتنى الإشارة إلى طبيعة كثير من الناس فى مجتمعاتنا حين تضيفهم وتكرمهم بطعام أو شراب، فإنهم يرونه واجبا مقدسا أن يقللوا قيمة ما أكرمتَهم به ويعيبوه ولو بالقول بأن الطعام كان باردا أو كان كثير الملح أو قليله أو أنه قد أصابهم بالمغص. إى والله، وذلك دون أى حياء أو خجل، ودعك من ضرورة الشعور بالجميل والشكر عليه. وهنا نجد هذه العادة المهببة فى زملاء القشلاق، إذ يخبرنا السارد أنه، بعد انتهاء زملائه من التهام ما فى الزوادة، لا يسلم من انتقادهم. طبعا: "مخزون ثقافى" طبقا لمصطلحات النقد الثقافى الميمون، لا قطع الله لنا عادة!

وثم خطأ تاريخى أبلق، وإن كنت أظن سببه السهو لا الجهل، فلا يمكن أن يقع واحد كحلمى القاعود فى مثل هذا الخطإ، إذ نقرأ أن مأساة كربلاء واستشهاد الحسين وسَوْق بنات فاطمة الزهراء وأحفادها سبايا إلى دمشق كانت فى عهد معاوية بن سفيان، بينما الحقيقة أن معاوية كان قد مات وورث الحكم بعده ابنه يزيد، الذى وقعت فى عهده كل تلك الأحداث.

ومع كل ما قلته من ملاحظات وانتقادات فى حق روايتنا هذه فإنها، رغم سذاجتها بسبب كونها أول ما أبدع قلم مؤلفها من روايات، تتفوق فى رأيى مثلا على "قسمة الغرماء" السمجة ليوسف القعيد، و"الضهرية" للمذكور أيضا، و"الزينى بركات" و"وقائع حارة الزعفرانى" لجمال الغيطانى، تينك الروايتين

السخيفتين سخافة لا تطاق رغم إظهار كثير من الناس إعجابَها بهما، ورواية صغيرة لخيرى شلبى اسمها "لحس العتب"، وهى عن طفل مريض مكرَّش من قرية قريبة من دسوق يعيش فى غرفة مكدسة بالكراكيب هو وإخوته تشاركهم فيها الثعابين، ذهب إلى الأطباء فلم ينجع معه علاج، فشرعت جدته تدور به على أولياء الله فى المنطقة يلحس أعتاب ضرائحهم واحدا واحدا أملا فى الشفاء، إلى أن كتب الله الشفاء على يد عرافة بدوية بوصفة بلدية بدائية.

وقد قرأتها وأنا ضائق الصدر غير مستريح لها لا فنيا ولا مضمونيا، مثلما قرأت لتوى قراءةً سريعةً دراسة عنها منشورة فى مجلة هندية يكرر صاحبها مرارا مصطلحات مثل "المتن والهامش" و"المعلن والمضمر" و"الفحولة الذكورية" (الله يخرب بيت "المتن والهامش" و"المعلن والمضمر" و"الفحولة الذكورية" فى يوم واحد والذين أبدعوها!): يقصد بالمتن الناس المتعلمين والقادرين، وبالهامش الناس الفقراء الجهلاء المطحونين، وبالمعلن ما هو مكتوب فى العمل، وبالمضمر ما يقصده الكاتب فعلا، وعلى النقيض مما هو مكتوب، فالكاتب فى نظر أولئك النقاد يقول شيئا لكنه يريد شيئا آخر، وكأننا أمام كذاب قرارى أخذ على عاتقه تضليلنا عمدا مع سبق الإصرار، أو ملحوس فى عقله لا يعرف عم يتكلم ولا ماذا يقصد، وبالفحولة الذكورية سيطرة الرجل على المرأة، والمفروض عندهم أن تركب المرأة الرجل وتدلدل رجليها على راحتها، وكأن نقاد آخر زمن لا يكفيهم أنها "الحكومة"، التى لا يمكن أحدا فى البيت حتى لو كان أجدع "دكر" أن يخرج من تحت طوعها (رجالة إيه دى يا خويا؟)، وغير ذلك من المصطلحات التى تدل على خواء نقدى، فيلجأ الكاتب إلى ترديدها توقا إلى إيقاع الرعب فى قلب القارئ المسكين كى يظن أنه يقرأ لجهبذ كبير من جهابذة النقد بينما ذلك الجهبذ مجرد ببغاء يردد عميانيا مصطلحات آخر منهج نقدى ظهر فى الغرب ويطبق مقولاته

آليا دون أن يفكر فى إعمال آلته النقدية فى سبر أغوار ذلك المنهج لمعرفة حسناته وعيوبه، تلك الآلة التى وضعها له الله فى جمجمته بين تلافيف مخه كى يستعملها لا ليوقفها إيقافا ويعتمد بدلا منها "القرودية" التى لا تبرع فى شىء إلا فى التقليد الآلى.

كما تتفوق روايتنا الساذجة على روايتَىْ بهاء طاهر: "خالتى صفية والدير" و"واحة الغروب"، اللتين يسودهما الاصطناع والتصنع، وتحس وأنت تقرؤهما أنهما ليستا خارجتين من قلب الكاتب بل من عقله البارد، وهو ما يذكرنا بموضوعات الإنشاء الميتة التى كانوا يكلفوننا بكتابتها ونحن صغار، فلا نجد لها ترحيبا فى نفوسنا، ومع هذا كان علينا أن نكتبها، والسلام. وبالمثل تتفوق تلك الرواية الساذجة على بعض روايات فتحى غانم، الذى لا أعجب بشىء من أعماله الروائية عدا "الرجل الذى فقد ظله" رغم كتابة حواراتها بالعامية، التى أفقدتها كثيرا من بهائها. فقد قرأت له ضمن أعمال أخرى: "الساخن والبارد" و"الجبل" فلم تهش نفسى إلى الأولى، أما الثانية فقد أعجبنى فيها، أيامَ قرأتُها فى شبابى الأول، مشهد المداولة التى كان يعقدها الرجال الصعايدة فى الخلاء وهم يقضون حاجتهم ليلا فى شكل دائرى، لكنى لما عدت إليها منذ بضعة أعوام ألفيتها مملة لا تصمد للنقد. كذلك لا أظننى أبالغ حين أضع روايتنا هذه الساذجة فى مرتبة أعلى من رواية إحسان عبد القدوس: "لن أعيش فى جلباب أبى"، التى خففت جودة الفيلم المأخوذ عنها من وحاشتها كرواية غير مقنعة.

ذلك أن روايتنا تعطيك صورة عن الريف وكثير من عادات الريفيين وأوضاعهم فى كثير من المجالات مما سوف يختفى مع الأيام فتكون الرواية من الشهادات الثمينة على ما كان يحدث واندثر. وقد سبق أن تكلمنا عن بعض تلك العادات والتقاليد. ومنها كذلك ما أخبر حامد الشيمى صديقه أشرف الصعيدى

ابن الخالة حياة عن طباع أهل الريف حين سأله الأخير عن مدى صحة ما يسمعه عن الفلاحين من أنهم خبثاء، فكان جوابه أن فيهم بعض الخبث، لكنه الخبث الذى يتعلق بالحرص على الذات من الذوبان والضياع، فتراهم مثلا لا يتخذون قراراتهم سريعا بل يترددون كثيرا قبل ذلك. كما أن الواحد منهم إذا ما أتاه خطاب من قريب له مسافر فإنه يعطيه لمن يقرؤه له، لكنه لا يكتفى بذلك بل يعطيه لآخر يقرؤه له من جديد خوفا أن يكون الأول قد أخفى عنه من الخطاب شيئا لسبب أو لآخر. ومنها خروج الجيران جميعا على بكرة أبيهم كلما عاد حامد من الجهادية فى إجازة يرحبون به ويدعونه للنزول عليهم ضيفا قبل الوصول إلى دارهم. ومنها كذلك أن الناس هناك لا يبدون ما فى قلوبهم تجاه من يخشَوْن أذاه مهما كانت كراهيتهم له ونفورهم منه كبعض المرشحين لعضوية الجمعية الزراعية الذين سبق أن نالهم منهم الضرر البالغ لما فيهم من شراسة وأذى ومقدرة على الوصول لأصحاب النفوذ بالمركز والشرطة وغيرهم من ذوى المناصب الإدارية المؤثِّرة، ومع هذا كانوا يظهرون لهم الحب ويؤكدون لهم فى الانتخابات الجديدة أنهم سوف ينتخبونهم، ثم لا يفعلون.

ويمكننا أن نأخذ فى طريقنا أيضا منظرا من المناظر التى اندثرت الآن، وكانت شائعة فى ذلك الوقت فى الأرياف والمراكز، ألا وهى عربات فورد القديمة التى كان الفلاحون يركبونها من المركز أو العاصمة إلى قراهم، ولا يكتفى السائق بالعدد القانونى الذى تتحمله السيارة من الركاب بل يَكُظّها من الداخل كَظًّا حتى إذا لم يعد بداخلها ثقب إبرة فارغ ركبت طائفة أخرى على الرفارف، وطائفة غيرها على السطح، وطائفة ثالثة على مقدمتها، وطائفة رابعة على الشنطة من الخلف. وكان ذلك النوع من السيارات قويا عفيا، والصاج ثخينا متينا يتحمل كل تلك القناطير من البشر دون أن يئن أو يتغضن أو ينفطس.

وقد أذكر أنى ركبت فى ستينات القرن الماضى حين كنت لا أزال طالبا بالجامعة عربة من هذ النوع أقلت جيشا عرمرما من الركاب، وجلست أنا وزميلى بالجامعة محسن يوشيهارو أوجاساوا اليابانى على مقدمتها وحولنا وحول السيارة كما تقدم عدد رهيب من الركاب لم يتركوا للسائق سوى فرجة صغيرة ضئيلة فى الزجاج الأمامى ينظر منها إلى الطريق أمامه ليس إلا، وكنا ذاهبين من كفر الشيخ إلى قرية ميت الديبة، التى تبعد عن المدينة أحد عشر كيلو مترا فى زيارة لإخوتى الصغار من أبى رحمه الله، وكنت لا أكف أنا ومحسن عن الضحك من منظر السيارة وقد حطت عليها أسراب الركاب من كل الجوانب فلم يعد يظهر منها سوى العجلات تقريبا، وكأنها قطعة من الحلوى الرخيصة قد حطت عليها أسراب الذباب والنحل، والزنابير أيضا. وكان محسن يقول لى ضاحكا إنه سيصف لأمه منظر السيارة وعدد الركاب بالداخل والخارج، وهو واثق أنها لن تصدق بل لن تتخيل الأمر مجرد تخيل، ولسوف تحسبه يتحدث عن حافلة عامة لا سيارة أجرة. وكنا طوال الوقت ندعو الله ألا يخطئ السائق فينحرف ويسقط فى مصرف أو ترعة لأنه لم يكن يمكنه إلا رؤية الطريق أمامه مباشرة كما ذكرتُ آنفا.

ومما قدمته الرواية أيضا من أحوال الفلاحين تلك الرسالة التى جاءت إلى حامد الشيمى من أخيه فى قرية كفر المحاريم، وعثر عليها أصدقاؤه فى أوراقه بعد وفاته فى الخندق. وهى تجرى على النحو التالى: "بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ. الأخ المحترم الأستاذ حامد الشيمى، دام. أبعث إليك بالتحية والسلام، ونحن مشتاقون إليك كما يشتاق الزرع إلى الماء، والعليل إلى الهواء. ونحن بخير، وأمك بصحة جيدة، وتسأل عنك كثيرا، وتدعو لك آناء الليل وأطراف النهار. أعرفك أن محمود المندلاوى جعل الدورة فى أرضنا لزراعة الأرز. إنه لم يقدر على أحد غيرنا، ونفذ إبراهيم عرام رأيه، وأبعد زراعة الأرز عن أرضه حتى لا يشقوا فيها مصرفا.

والمندلاوى اتفق مع المشرف على هذا، وختم مجلسُ إدارة الجمعية على هذا الكلام. وأعرفك أن إخواتى زعلوا وراحوا إلى المشرف، ولكنه قال لهم إن القرار صدر وانتهى. وأمك قالت: معلهش، اتركوا الأرض بورا ولا تزعلوا، وربنا معاكم يا أولادى. وأعرفك أن عم رضوان زعلان أيضا، وحلف ألا يكلم المندلاوى طول عمره ولا يبص ناحيته ولا يبيع له ولا يشترى منه. كما أعرفك أن المولد فى الأسبوع القادم، وسيأتى الشيخ صالح وفرقته وسيارات المركز كلها. أمك تبعث إليك بألف مليون سلام، والجميع يسلم عليك. والسلام عليكم ورحمة الله. أخوك المخلص منصور الشيمى ٣/ ١ بمدرسة شربين الإعدادية".

وهذا الخطاب قد ذكرنى بالخطابات المماثلة التى كنت أكتبها بطلب من جيراننا الفلاحين لأقاربهم الذين يعيشون بعيدا عنهم سواء فى الجيش أو فى غير الجيش، فكنت أقول كلاما كالذى قاله منصور الشيمى فى مفتتح الرسالة وفى مختتمها، إذ كان الكلام عبارات محفوظة لا تتغير: "نحن مشتاقون إليك كما يشتاق الزرع إلى الماء، والعليل إلى الهواء"، ولكن مع زيادة العبارة التالية: "والطفل إلى ثدى أمه"، "أمك تبعث إليك بألف مليون سلام"، وإن كنت أحيانا من باب المبالغة والتفوق على غيرى ممن يكتبون مثل تلك الخطابات لا أكتفى بـ"ألف مليون سلام" بل أقول: "ألف ألف ألف مليون سلام"، وهل على كلام الخطابات ضريبة أو جمرك؟ لكننى لا أذكر أنى كتبت فى نهاية الرسالة "أخوك" بالواو أبدا، بل كنا نكتبها: "أخيك"، وإلا فما الفرق بين الكلام العامى الذى نقول فيه: "أخوك راح، أخوك قال، أخوك عمل" وبين الكلام النحوى: "أخيك"؟ لقد أخذنى الخطاب الظريف إلى الماضى البعيد أيام كنت ولدا فى الكتاب، فهذه كانت حصيلتنا من اللغة والأسلوب. وكان جيراننا الذين يطلبون منا كتابة خطاباتهم إلى ذويهم ينظرون إلى ما نكتبه وكأننا نأتى بالبدائع والروائع، وكنا نحن الأطفال من

جانبنا نحس بالزهو والفخار. ألسنا ذاهبين لفتح عكا؟ هيييييييييييييييه! أيااااااااااااااااااااااام! منك لله يا عم حلمى القاعود! ذكَّرْتَنا بالذى مضى!

وبالمثل قدمت لنا الرواية صورة عن أحوال المصريين فى الأعوام التى سبقت حرب رمضان المجيد والروح التى كانت سائدة آنذاك، والعلاقة فى جبهة القتال بين المجندين بعضهم وبعض وبين المجندين والعُرَفاء الذين يدربونهم ويتحكمون فيهم، والأحاديث التى تدور بينهم، والكيفية التى يقضون بها أوقاتهم، والرجولة التى تتبدى فى تصرفات معظم الجنود، وبخاصة أولئك الجنود الأميون الذين يحبون أوطانهم حبا جما دون أن يستطيعوا ترجمة ذلك الحب إلى شعارات زاعقة، وهم مستعدون للموت فى سبيلها كى تبقى عزيزة الجانب رافعة رأسها فى السماوات العلا. وانتهت الرواية بانتصار رمضان المجيد والابتهاج الذى عم مصر جراء هذا الانتصار العزيز المتعسر.

وإلى جانب ذلك هناك قصة الحب بين حامد الشيمى وزينب بنت جيرانهم، تلك القصة التى أُجْهِضت فصولها بموت حامد، وإن كانت زينب قد تزوجت من صديقه وقريبه أشرف الصعيدى بعد أن كان أشرف قد وقع فى غرام هدى الشيوعية. وثم أيضا الحرارة التى نفتقدها فى الروايات التى فَضَّلْتُ روايتنا هذه عليها، إذ إن تلك الروايات قد صُنِعَت، فيما هو واضح، بالعقل وحده دون أن تمر بالقلب أو بالخيال الحى اللاهب، بل رُسِمَتْ كما تُرْسَم العمائر والجسور وكما تخطط الطرق وكما تُرَكَّب مواد الرصف مثلا طبقا لما يقول الكِتَاب بعيدا عن أية مشاعر أو عواطف أو خيالات. إلا أن حرارة روايتنا هذه كانت تزيد عن الحد المعقول المقبول أحيانا بترك المؤلف أبطاله يبالغون فى وصف مشاعرهم ومواقفهم مبالغة كانت تحتاج إلى بعض الكبح والإلجام كى تكون أكثر تأثيرا وفاعلية.

ومما تعرضت له الرواية كذلك قصة الحب بين أشرف ابن الخالة حياة وبين هدى بنت الأب المصرى المليونير والأم اليهودية الشيوعية الأجنبية التى أعلنت إسلامها. وكانت أم أشرف تتوجس من ذلك الحب وتراجع فيه ابنها كثيرا وتريده أن يفض علاقته بتلك الفتاة. وقد انتهت قصة الحب فجأة دون أن نعرف لماذا، وتزوج أشرف من زينب، تلك الفتاة التى كان حامد صديقُه وقريبُه ينوى الاقتران بها، والتى ذهبت أمه إلى قرية كفر المحاريم خصيصا لتخطبها له ونجحت فى ذلك. إلا أننا ظللنا لا نعرف شيئا عن أمه السيدة حياة مرعى ولا أية شهادة حصلت عليها ولا كيف أصبحت كاتبة إسلامية وصاحبة مجلة تنشر فيها مقالاتها ومقالات من يسيرون معها فى ذات الاتجاه ولا الموضوعات التى كانت تكتب فيها على وجه التحديد ولا كيفية تلقى الناس لتلك الموضوعات، ما عادا المقال الذى هاجمت فيه الرقص الشرقى، وانقسم الناس حوله ما بين مؤيد ومعارض يتهمها بالرجعية ويزعم أن الرقص نوع من العبادة والجهاد.

ولقد تغيرت الرواية من منتصفها تقريبا وصارت أكثر نضجا وأشد اهتماما بالقضايا المصيرية، وعلى رأسها وصف الحياة التى يعيشها الجنود على الجبهة مباشرة قبيل الحرب الرمضانية العظيمة، وبقصة الحب بين أشرف الصعيدى وصديقته الشيوعية بنت اليهودية الأوربية التى أسلمت والأب المصرى الأرستقراطى الذى مَرْكَسَتْه زوجته.

فأما بالنسبة لحياة الجنود على خط النار فإلى القارئ بعض الصفحات التى تعرضت لها، وفيها تفصيلات غير قليلة تضعنا فى قلب الحدث مباشرة. وفيها حرارة، وفيها عفوية، ولا تخلو من بعض السذاجة الفنية كما أشرت أكثر من مرة فى حديثى عن الرواية. إلا أننا لا يصح أن نغضى الطرف عن الحقيقة القائلة بأن المؤلف قد كتبها أول ما تخرَّج من الجامعة، وكان ساعتئذ فى منتصف العشرينات

من عمره، وكانت أول ما كتب من روايات. فأنا أغبطه على تصديه لمعالجة هذا الموضوع الكبير وأرى أن ما أنجزه شيء طيب رغم كل ما قلته فى حقها وما يمكن أن أقوله أيضا، وأفضِّل الرواية لهذا على كثير من روايات بعض المشاهير الذى يشار إليهم بالبنان بوصفهم من كبار القصاصين مثل رواية "قاع المدينة"، التى يجد القارئ فصلا كاملا عنها فى كتابى: "فصول من النقد القصصى" أودعته تحليلى لها ورأيى فيها، وهو رأى فى عمومه شديد السوء. وأستطيع أن أضيف إلى تلك الرواية الغثيثة رواية لذات الكاتب اسمها "فيينا ٦٠" قرأتها مرتين فى وقتين متباعدين، وأعوذ بالله من مجرد ذكرها هنا، فهى لا تقل غثاثة عن الأولى. ولله فى الشهرة التى يعطيها بعضَ الكتاب حِكَمٌ تخفى علينا.

قال السارد فى وصف حياته هو وزملائه فى خط النار على شط القناة أيام كانت إسرائيل تحتل سيناء كلها وتذل أنوفنا إذلالا، والنص منقول من الفصل السابع: "الجبهة لا تسألونى عنها، أنتم تعرفونها، وأنتم الذين سميتموها كذلك يوم انـدحرت قواتنا فى العام السابع والستين، وبقيت الفلول على الضفة الغربية للقناة، حينئذ أسميتم هذا الخط الفاصل المسمى: قناة السويس: "جبهة القتال". هل هناك فرق بين القفا والجبهة؟ فى أيامنا لا أرى فرقًا. الجبهة تحت الجلد وفى خلايا الدم. إذا سقطت هذه الجبهة أو فقدت فلا جبهات ولا قتال. الجبهة فى داخل حامد الشيمى، فى شرايينه وأوردته. حامد الشيمى فى داخله جبهة! ولكنها محطمة. هشة. ميتة. حامد لم تتحرك جبهته تحركا حقيقيا حتى الآن. إنه ينتظر كل يوم دانة تسقط على موقعه، أو طائرة تدك بطاريته، ولكن الدانة لا تأتى، والطائرة لا تحضر. ماذا جرى؟ لقد فرح حامد يوم اشتعلت الجبهة فى السويس. خسر المصريون معمل التكرير. لا بل احترقت السويس وضاعت أرواح. كُفِّن الكثيرون من الرفاق، سقطت يومها القنابل كالمطر، الطائرات فى السماء كالعصافير بلا

حساب. كان الناس يظهرون على حقيقتهم تلك الساعة. كثيرون كنا نعتبرهم بلا فائدة، وحين امتلأت السماء بالنار، أصبحوا عظماء. هل أحدثكم عن زميلى عبد الراضى؟ عبد الراضى فتى صعيدى، أسمر الجبهة، أبيض الثغر، كان يحب حلقات الذكر وأكل المكرونة واليَمَك، ويكتب اسمه بالعافية. رأيته تحت النار يقفز نحو الملجإ الذى يُخَزَّن فيه الوقود، ثم يحمل دانة لم تنفجر، ويجرى بها بعيدًا ويصيح: "بَهْ. بَهْ. يا بُوى. أنا عبد الراضى"، ويتمتم مخاطبًا الطيار اليهودى المعتدى فى السماء ليفهمه أن الوقود لن يحترق، والدانة لن تنفجر، والعربات لن تتحطم. عبد الراضى يتحدث عن الحرب التى لم تأت، ينتظر الحرب التى لا تأتى. يريد أن يقذف قنابل على عساكر اليهود الغزاة، يقول إن أمنيته الوحيدة أن يَعْبُر ويحارب ويَقْتُل ويُقْتَل. عبد الراضى يحب البلح الرطب الذى يأتى من الصعيد. يجمعه من النخيل بنفسه، وأعمامه يلفون له سباطة بأكملها يضعونها فى قفة، فيثور ويقول لهم: هل سأضعها على قفاى حين أسافر؟ فيستبدلونها بمقطف صغير يحمله من أذنيه المضمومتين، ويأتى إلينا مشرق الجبين مفتر الثغر باسمًا: وحشتونى يا أولاد. والله كنت سآتيكم بقفة. نضحك ونضحك. يتحول عبد الراضى الذى يكتب اسمه بالعافية إلى وحش ضارٍ حين تلمع طائرة معادية فى السماء. يهتف من قلبه: أنا قاعد لك يا ابن الـ... يخاطب الطيار الصهيونى. وَهْ يا بوى. عبد الراضى يقول، ويستطرد: أبواى لم يرسلانى إلى المدرسة. ما ذنبى؟ علِّمونى يا ناس، وسأتعلم. عبد الراضى الأمارة يحب ملجأ الوقود، ويعتبره كدارهم تمامًا: شرفه وعرضه. يغار عليه من أى نظرة ترسلها طائرة فى الجو، يوصينا بالملجإ قبل أن ينزل إجازته الدورية، فنوصيه نحن بالتمر والعيش الشمسى وبطة محمرة. عبد الراضى الصعيدى ابن حلال. له زوجة وولد لا يكف عن الحديث عنهما: شف يا حامد، أنت الذى يفهمنى. الأولاد الآخرون لا يفهموننى. أنت ابن بلد مثلى

وفلاح ولا تحب الكلام الكثير. ابنى عبد الرحيم له سنة ونصف. يعرفنى، ويضحك لى حين أدخل عليه الدار مع أمه. نفسى أراه وأقبله فى كل نقطة من جسده. ولد أسمر وحلو. امرأتى بنت غلبانة تظل، يا عينى، فى انتظار، وتحسب للإجازة باليوم وبالثانية. وتعد القطارات الذاهبة والآيبة من أجل عيونى أنا. فاهمنى يا حامد؟ يضحك عبد الراضى الأمارة، ويتركنى ويمضى إلى الكانتين ليشرب الشاى ويشعل اللفائف ويحكى مع أبناء الصعيد عن النزول من الجبهة والعودة إليها.

لم أر حياة أكثر إثارة من الحياة فى الجبهة: الصمت المهيب يظللها. على القرب تربض حصون العدو، وخلفها مدافعه ومراصده تطل من خلال الجدار الرملى الصعب. يومَ احترقت السويس وبعدها كانت القذائف تنصب من عيون هذا الجدار انصبابا، ولكنى كنت أحس بها دموع اليهودى التائه مغموسة بالسم الزعاف، يشربها وطنى دون مبرر.

كانت المدافع تقطع الصمت المهيب أحيانًا، وتعوَّدْنا ساعات انطلاقها، وكنا نتنبأ بالمكان الذى تنطلق منه والموقع الذى تتجه إليه. وكان أشرف الصعيدى ساعة التراشق ينظر إلىَّ فى أسًى ولامبالاة. عيناه تنطقان بشىء ما، ولكنه لا يبين. كنا نضحك فى ساعات الانتظار حتى تسكن المدفعية، وبعدها نقوم نحن بمهماتنا خلف خطوط العدو حين يُطْلَب منا. عبد الراضى هو سلوتنا فى زمن الصمت. يجعلنا نضحك. وحين يهاجم أشرف الصعيدى يضج حتى يكاد الموقف يتحول إلى كارثة تنذر باشتباك رهيب بين أشرف وعبد الراضى. وحينئذ أتدخل بينهما لفض الاشتباك، وألمح فى عينى أشرف سره الدفين فأداعبه:

– اسمع يا أشرف. عبد الراضى صعيدى بالفعل. أما أنت فصعيدى بالاسم.

– هل تعرف هذا الفرق يا أشرف؟

يضحك أشرف. لا يبتسم فقط، ويغادرنا خارجا خوفا من حملتنا عليه. ولكن عبد الراضى يحلل موقف أشرف بمنتهى البساطة:

– تريدون الحق؟ أشرف يريد أن يتزوج. ولكن أحدا لا يرضى به.

فيرد عليه زميلنا إسماعيل: أشرف أحلى منك على الأقل.

يضحك عبد الراضى: يبدو أنك مثله يا إسماعيل. طيب، فسر لى لماذا هو زعلان دائمًا. إنه لا يفرد وجهه أبدا. يشيل الغم على كتفيه. يا سلام يا أولاد. بَهْ يا بوى. افهمونى يا ناس.

يضج الخندق النصف مظلم بالضحك. ويهتف إسماعيل: ملعون أبو ديان!

– سوف آتيك بعينه الثانية

– يظهر أنك صعيدى!

يتغير عبد الراضى. يثور. ينقلب وحشا ضاريا كالذى يحمل الدانة الساقطة على مخزن ويهتف من أعماقه:

– اسمع يا إسماعيل. الجد جد، والهزل هزل. فاهم؟

تقدح عيناه شررًا. إنه غضبان لأن إسماعيل وصفه وقال له إنك "صعيدى".

– ماذا تقصد؟

صمت إسماعيل ولم ينبس.

– الصعايدة أرجل ناس. آتى لك بالدليل؟

– نعم. أريد عين ديان الثانية.

أراد إسماعيل أن يلطف حدة غضبه، ولكن عبد الراضى خرج وترك الملجأ والقصف ما زال مستمرا. خفنا عليه. ذهب وراءه اثنان من الزملاء: محمود وأبو بكر ليقنعناه بالعودة إلى الخندق حتى ينتهى التراشق، ولكنه كان مُصِرًّا، فأقسما

عليه بابنه عبد الرحيم أن يعود معهما، ورجعا من قرب الباب ومعهما عبد الراضى الذى بدأت عضلات وجهه ترتخى، وحاولنا أن نضحكه.

– صاحبك هو السبب يا حامد

كان المتحدث زميلنا أبو بكر، وكان يقصد بصاحبى أشرف الصعيدى.

قلت له متصنعًا الجد: لقد خرج أشرف وتركنا. ولا نعرف هل أصابته قذيفة وهو سائر بين الملاجئ أو استطاع الاحتماء فى واحد منها.

ساد الوجوم جباههم، تحرك الشك فى داخلهم إشفاقا على أشرف الصعيدى، ورأيت عينى عبد الراضى لا تستقران على حال حين ذكرتُ أشرف، وصار ينفخ بفمه مغاضبًا ونادمًا. وبعد قليل قطع الصمت: أنا السبب. جعلته يخرج للموت. ليتنى ما تكلمت. لولا كلامى ما ذهب. مبسوط يا إسماعيل؟

لم يتكلم إسماعيل ولم يتكلم أحد. اشتد القصف، وكانت الأرض تهتز بالزلازل، والرعد يدوى فى السماء، وفجأة دخل أشرف وهو يضحك ويفاجئنى قائلا: ما الذى أحضرتَه من عند أم حامد؟

نظرت إليه وكأنى لا أصدق أنه حى أمامى.

– بَهْ يا بُوى. لك سبعة أرواح يا عفريت. فكرتُ أنك مُتّ. كنت أهم بالبكاء الآن على شبابك يا باشمهندس.

قال عبد الراضى. ضحك أشرف، وضحكنا جميعًا. وتحدث محمود مخاطبًا أشرف:

اسكت يا أشرف. انتظر حتى نرى ما أتى به الأستاذ (وأشار إلىَّ). هل تعاركتَ مع أم حامد هذه الإجازة فلم تأت بشيء؟

– أَطِلْ بالك يا محمود.

– خير البر عاجله.

هتف إسماعيل وهو ينظر إلى عبد الراضى بنصف عين، قمت من فورى واتجهت نحو الزوّادة، والتفت الجماعة حولها، وسمعت عبد الراضى يقول: يا جماعة، قبل أن نأكل اقرأوا الفاتحة لأم حامد، وسيدى عبد الرحيم. وضحكت الجماعة فى فرح عظيم، والقصف فوقهم يدوى فى عنف شديد".

هذا على الشط الغربى للقناة، لكن كان الجنود المصريون يتسللون بين الحين والحين لتأدية مهمة خلف خطوط العدو الصهيونى. ولم تغفل الرواية هذا الجانب من حياة الجنود: "الضفة الأخرى! الضفة الأخرى هى الجبهة التى تتكلمون عنها كثيرًا يا سكان القاهرة فى صحفكم الرغاية وإذاعاتكم المنافقة ولا تعرفون ما هى الجبهة بالضبط. الله والصحراء والصمت المهيب يعمرون سيناء، ويقيمون فوق كل ذرة من ترابها، يتحدثون إليها من عمق الريف والصعيد. تفضل. أهلا وسهلا. لا تلق بالا باليهود. فقد جاؤوا ليرحلوا. قبلهم جاء الكثيرون ثم رحلوا: الرعاة، الحيثيون، التتر، الصليبيون، نابليون، الإنجليز. كلهم رجعوا بنعل واحد من نعلى حُنَيْن مكتوبًا فى جوفه: صنع فى مصر. الله والصحراء والصمت المهيب يرحبون بالقادمين من كفر المحاريم وشارع القلعة ونجع الكوامل وأولاد على. أنتم ضيوفنا الليلة وكل ليلة. من يبقى؟ ومن يعود؟ الذى توحشه الغربة نأذن له بالرجوع، والذى يأنس هنا فعلى الرحب والسعة.

السماء صافية، والأرض ندية طرية مضمخة بعبير ضيوف أقاموا هنا منذ العام السابع والستين. قاموا يرحبون بنا أيضًا: قمصانهم، بنطلوناتهم، بقايا العظام المطحونة، قطع الحديد الصدئة، أوتاد الخيام المطمورة فى التراب، ليل الصحراء فوق الحصون والاستحكامات، عيون يهود المنبعثة من مخلال ملاجئهم البعيدة الغائرة فى عمق التراب، كنا نلبى الضيافة. ونقول: أهلا وسهلا. نِعْم الضيافة! وجَلَّ الضيف! أحسست بالفتى أشرف وهو يغدو كالطائر المغرد. جبهته تضىء

الليل فرحان يشقشق. يسير بهمة ونشاط. دبت فيه الحيوية. كان غريبًا هذه الليلة. لم يسأل عن شيء، لم يلعن شيئًا. فقط قال: انتهى زمن الانتظار. سوف تمضى الدنيا بغير انتظار.

ابتسمتُ فى جوف الظلام. لم أعلق بشيء لأنى كنت مشغولا بالمهمة. كنا قد عرفنا الموقع، وتوزعت المهام. وكلٌّ يفكر فى دوره صامتا، يضبط أنفاسه على إيقاع خطواته فى قلب الرمال الفرحانة بضيوف الليلة المظلمة. كنا نواصل السير حسب الخطة، وفجأة توقفت الجماعات. كان توقفهم نتيجة صوت غير مألوف. لعل العدو قادم. هل عرف الخطة فأعد خطة مضادة، وانتظر حتى أصبحنا فى قلبه، وأصبح هو قادرا على هضمنا بسهولة؟ كنت بالقرب من الملازم عبد الرحمن بحكم أقدميتى فى الجماعة. أفهمنى أنه يجب الانتظار حتى ينجلى الموقف.

مضت لحظات الانتظار بطيئة وثقيلة. أبدى الملازم عبد الرحمن خوفه من انقطاع الاتصال بالضفة الغربية، وكان إشفاقه على النقيب إسلام قائد العملية واضحًا. إنه مغامر مندفع جرىء، وكان ينتظر هذه اللحظة منذ زمان، وقد تقدم بمجموعة الاستطلاع نحو الهدف. اندفع إليه بأكثر مما هو مرسوم فى الخطة. بعد قليل بدأت الخطة تنفذ. انطلقت المدفعية الثقيلة من الضفة الغربية، وأخذت القذائف تنهمر كما السيل على الصحراء الساكنة، وانطفأت عيون يهود المنبعثة من خلال ملجئها البعيد. بدأنا نحن نتقدم. كان الهدف هو الملجأ الذى انطفأ، وتحت القصف الهائل من الغرب كنا نفتح النيران فى قلب الملجإ. وكان قتال، وكانت ليلة، وكانت نار تندلع فوق الصحراء وتشق الأفق نحو السماء".

ويلحظ القارئ كيف يخرج السارد، كعادته بين حين وآخر، عن حياديته تجاه القراء، فنراه يخاطب أهل القاهرة ويقرّعهم ويسخر منهم وينهال على رؤوسهم وعظا وتوجيها وإرشادا. كما يكثر فى النص، مثلما هو الحال فى كثير من المواضع

فى الرواية، الحوار الذاتى والكلام الباطنى الذى يدور فى قلب السارد ولا يبوح به لأحد بل يستبقيه لنفسه، وكذلك التهويمات الفكرية والعبارات الشاعرية ومحاولات استنهاض روح الصمود لدى نفسه، إذ يروح فى استدعاء صفحات الماضى العظيم حين استطاعت مصر أن تنتصر على غُزَاتها غازيًا غازيًا وتردهم على أعقابهم مدحورين مهما طال احتلالهم لها. وإلى جانب ذلك نجده يتغزل فى سيناء مصورا إياها منتظرة ضيوفها الجنود والضباط الذى سيعبرون القناة ويحررونها لترحب بهم وتكرمهم، وسوف يكون فى استقبال الضيوف أولئك الشهداءُ الكرام الذين سقطوا على أرضها ورمالُ الصحراء الواسعة.

وهناك فقرات أبدع فيها الشاب حلمى القاعود فى روايته، ألا وهى الفقرات التى وصف فيها وقع موت حامد على أبيه وأمه: لقد أصاب أمَّه ما يشبه اللُّوثة، فصارت تجوب شوارع القرية تهذى بوفاة ابنها، ونساء الكَفْر يحاولن تصبيرها دون جدوى، ثم إذا حل المساء أوصلوها إلى بيتها مهدودة الحيل، فتنام وهى لا تكاد تدرى من أمر نفسها شيئا بسبب المحنة التى حلت بها حتى إنى رغم مرور يوم على قراءتى لهذا الوصف ما زلت أتألم منه أشد الألم وتجيش عيناى وتوشكان أن تغلبانى على نفسى. إنها فقرات متوهجة بالأسى، وتذكرنى على نحو من الأنحاء ولو من بعيد بما أصاب عائشة من اضطراب عقلى يفطر القلب فى "ثلاثية" نجيب محفوظ جراء موت أبنائها. ويكفى القاعود الشاب فخرا ألا يَرِد على ذهنى شىء أشبِّه به وصفه هذا سوى إبداع عبقرى الرواية العربية والعالمية نجيب محفوظ، مع الفارق وحفظ المقامات طبعا.

كذلك أبدع القاعود الشاب فى تصوير تصرفات الأب ومشاعره لذات السبب وشروده الذهنى والنفسى وانفصامه التام عما يجرى حوله وعن الناس الذين يحيطون به أو يكلمونه أو يحاولون مواساته والتخفيف مما يؤوده من أحزان.

لقد كنت أقرأ تصوير المؤلف لشرود الأب وعجز من حوله عن إخراجه مما هو فيه متصورا أنه جالس قبالتى مع شعورى مثلهم بالعجز عن صنع أى شىء له والاكتفاء بالحزن الممض الصامت، وأكاد أهم بالحديث معه لكنى أتراجع فى اللحظة الأخيرة خوفا أن أنكأ جراحه بدلا من اندمالها.

وهذه هى الصفحات البديعة التى وصف فيها عمُّنا القاعود الأبوين المسكينين فى مأساتهما الناتجة عن موت ابنهما فى عز شبابه حين كانا يعلقان عليه الآمال الكبار وينتظران انتهاء تجنيده حتى يزوجاه ويفرحا به: "استولى على الناس فى كفر المحاريم جو من اليأس والكآبة. لم تعد الضحكات من القلب، ولم يعد هناك أحد يقول نكتة. فقد شبعوا تنكيتًا، ولم يجدوا لها أثرًا إلا جروحًا فى القلب غائرة. وكان موت حامد الشيمى وجنازته المهيبة الحدث الكبير الذى ظل مسيطرًا على أفئدتهم فى كل ما يفعلون ويقولون. لقد شعر الناس أن الهزيمة أضحت رهيبة وعاتية ومعربدة. وكانت تعليقاتهم لا تخرج عن الأسى والتحسر:

– لم يكن حامد إنسانًا عاديًّا.

– مات من التفكير.

– زينب هى السبب!

– والد زينب هو السبب بالمعنى الأدق. حسن الأزرق هو السبب بشهادة التاريخ.

– إنه رجل أحمق، ولا يعرف عن زينب شيئًا، ولا يعلم من هو حامد الشيمى.

– رحمه الله! حامد كان طيبًا ووديعًا.

– كان يحلم باليوم الذى يحج فيه مع أمه.

– كان يحبها. ويحب زينب.

– أمه انكسرت. انهد حيلها!

– الكَفْر كله انكسر.

– زينب توشك أن تموت هى الأخرى.

يوم مات حامد لبست زينب السواد، ولم تخلعه حتى الآن. وجهها المورَّد أصبح ذابلًا ضامرًا جلدًا على عظم. ضاع تفاحُه، انطفأ بريقُه، غاض نهرُه، جف واديه، تساقطت أهدابه، شُقَّتْ فيه الأخاديد قبل الأوان. أم زينب ذبلت هى الأخرى لذبول ابنتها، راحت تَنْعَى بختَها الأسود، وحظها النكد، ومصيبتها فى زوجها، الذى لا يعرف بيته ولا زرعه ولا بهائمه.

أم حامد لم تكف عن الكلام، كانت تقوم بجولات مستمرة حول الكفر، تتحدث عن حامد، الذى لم يمت، والذى وعدها بالحج وزوجة مثل البدر اسمها زينب، وأطفال صغار تناغيهم وتطعمهم المَنَّ والسَّلْوَى، وألوف من القبل يوم يعود من الجهادية فتيًّا وعفيًّا ورضيًّا. كانت نسوة الكفر يتحلقن حولها عند عتبة من العتبات ويواسينها، ويزرعن فى قلبها العشم بالصبر والسلوان، والبركة فى البقية من الإخوة والأخوات.

– إنه شهيد يا أم حامد.

– حامد أمارة.

– حامد حى عند الله.

– لا تبكى عليه. زغردى من أجله، فقد ذهب رجلًا.

– سيد الرجال حامد.

– خذى بالك من منصور.

– بارك الله فى منصور. شقيق حامد الأمارة.

– يا أم حامد، لا حزن على شهيد.

– حامد فى الجنة.

تسمع الأم هذى الكلمات. تصغى إليها مرهفة، تذوب فى حروفها، ولكنها تبكى الولد الأمارة، الذى تأخر عليها قبل أن يموت، ولم يعد إلا ساكتًا، فلم يناغ أمه، ولم يضحك مع إخوته، ولم يأت بصديقه أشرف، ولم يوصل السلام إلى خالته حياة، ولم يقرإ الفاتحة عند آل البيت فى السيدة زينب والحسين. وكانت تهتف من حشاشة القلب بعد أن تثوب إلى الوعى، والناس من حولها:

– آه يا ولدى!

وتظل تردد: "آه يا ولدى!" حتى تغيب ثانية، فيأخذها إلى دار الشيمى متهالكة ذائبة، مهدودة الحيل، وتخلد إلى النوم والصمت العميق والسكون العظيم.

حاول الناس أن يخرجوا عم رضوان عن سكوته، فما قدروا. أرادوا أن يعيدوه معهم إلى المصطبة متكلمًا ومتحدثًا وراويًا لما سمع فى الإذاعة وما قرئ عليه من الصحف، ولكنهم ما أفلحوا. صحيح أنه كان يجلس بينهم على المصطبة، ولكن دون أن ينبس. يتطوع أحدهم، فيقدم له سيجارة من علبته، فيرفض بإصبعه. وكان بعضهم يعرف طبعه، فيأتى بالدخان المفروط، ويلف له سيجارة ويشعلها، فيتقبلها الرجل صامتًا دون حديث. ويظل يسمع ما يقولون دون أن يعلق. كان حديثهم فى معظمه يدور حول حامد الشيمى، ويعرّجِ على محمود ابن عم رضوان. كان البريق الخاطف يشع من عينيه حين يسمعهم يتكلمون عن محمود، ولكن نار الشوق فى داخله كانت تشتعل مضطرمة ومتأججة: هل يُقَدَّر له أن يعود إلى أبيه؟ ذلك الولد الذى فقد حامد الشيمى أو افتقده حامد الشيمى، أو فقد كل منهما الآخر، أو فقدتهما كفر المحاريم؟ هل يقدر له أن يعود إلى الناس وأبيه وأمه وأم حامد وأبنائها، فيرون فيه رائحة الذى غاب ولم يعد؟

كانوا ينظرون إلى الرجل، وداخلُهم يرثى له. محنته مزدوجة، ما أصابه لم يصب أحدًا من قبل، يعرفون مدى حبه لحامد. إنه لا يقل بحال عن حبه لمحمود. كان يعتبرهما توأمًا وُلِدَ له فى سنة واحدة. لذا فإن فراقهما له، وافتراقهما عن بعضهما فى المحنة، جعل الرجل يكتم كل آلامه وأحزانه، ولا يُبِين. فقط يجلس ويسمع ويصغى، وينظر فى فضاءٍ كالتِّيه. يقولون له وعنه دون أن يستجيب للحوار:

– رضوان معذور. كان الله فى عونه.

– فَقَد الولدين وأم محمود فى عام.

– موت زوجته هدّ حيله.

– لكنه زود الأمور حبتين.

– إنه مقهور.

– يجب أن يثق فى الله وفى المستقبل.

– قد يعود ابنه محمود ويعوضه عن موت حامد، خاصة وأن محمود فلذة كبده وأول فرحته.

– إنه يركب رأسه، ويعتر من البوح بأسراره.

– يتكبر علينا. يا عينى!

– ينبغى أن تعذروه.

تغص المصطبة، وينفض سامرها، ويبقى الرجل رضوان أو ينصرف، ويأوى إلى فراشه أو يصحو منه دون كلمة. هل أصابه خرس؟ لا. ولكنه يصر على الصمت مضربا عن الكلام. شبهه بعضهم بسيدنا زكريا حين صام ثلاثة أيام، ثم خرج على قومه ليسبحوا بكرة وعشيًّا. ولكن العم رضوان صام طويلًا، ولم يفطر بعد.

حين عاد أشرف الصعيدى فى إجازة ليُعَرِّج على دار الشيمى وفاءً لصديقه الراحل، وزيارةً لأهل أمه، الذين تعلقوا به وأحبوه وأحبهم، مر على عم رضوان. حياه وسلم عليه، ولم يجد الرجل بُدًّا من الرد عليه والتحدث معه لأن أشرف ضيف، والتكشير فى وجه الضيف عمل غير كريم وغير لائق.

– أهلا يا عم رضوان.

– أهلا وسهلا يا ولدى.

– كيف الحال؟

– الحمد لله على أى حال.

– ما زلت حزينًا؟

– إنا لله وإنا إليه راجعون!

– ولكن إلى متى ستظل حزينا؟

– الأمر لله يا ولدى.

– كلامك يدل على فهمك لما حدث وكان. ولهذا فإنى أستغرب أن تظل هكذا يا عم رضوان. سوف يعود إليك ولدك.

سخر عم رضوان من جملته الأخيرة، واهتز جسمه كله:

– متى؟ متى؟

ثم أردف، وعيناه تتقدان:

– لقد ذهبوا جميعًا يا ولدى ولم يعودوا. حامد ذهب. أم محمود ذهبت. ومن قبلهما ذهب ولدى. محمود ذهب يا أشرف. يقولون إنه ذهب أسيرًا، وأنا أقول إنهم يضحكون على. كان حامد يقول لى: لقد أخذوه، وسوف أعيده. كان يحلم، يا عينى، بأن يعيده بنفسه، ولكنه ذهب. من يستطيع أن يقول لى إن اليهود لم يقتلوه؟ صحيح أنه أرسل لنا رسالة منذ زمان بعيد تحمل ختمًا دوليًّا، ولكن هل

ظل حيًّا؟ دعنى أتحدث عن حزنى يا ولدى. إن أحدًا لم يحدث له ما حدث لى. لقد متُّ. تمنيت أن يكون يومى قبل يومهم. ولكن ما العمل؟ أين المفر؟".

أما حب أشرف الصعيدى لهدى الفتاة الشيوعية فقد فوجئنا به أمامنا فى الرواية ناجزا تاما، فلم نعرف كيف تعارف العاشقان ولا كيف نشأ الحب بينهما، ذلك الحب الذى يقول صاحبه عنه إنه تم مصادفة، وإن لم يبين لنا مع هذا نوع تلك المصادفة ولا الظروف التى تم فيها ولا كيف تطورت العلاقة العاطفية بينهما ولا كيف كانت الفتاة تعامله أو كيف كان يعاملها ولا النقاشات التى كانت تدور بينهما فيما يتعلق بالإسلام والماركسية، اللهم سوى إشارات شحيحة وعارضة لا تشفى غليلا، ولا ماذا كانت تريد منه ولا ماذا كان يريد منها. لقد كانت أمه تخاف عليه من هذه العلاقة، لكن دون أن تفصل لنا الرواية طبيعة هذا الخوف. لقد كنا ننتظر من حلمى القاعود، رغم معرفتنا أنه كتب الرواية وهو شاب، معالجة أكبر وأعمق وأطول أبعادا لهذه العلاقة، وبخاصة فى ظل تحكم السوفييت فى كثير من مقاديرنا العسكرية أوانذاك، وبروز مكانة اليساريين فى البلاد بالتالى وتحكمهم فى مفاصل الأنشطة والمؤسسات الثقافية، وهو ما واجهه أنور السادات بقوة فى منحنًى من منحنيات فترة رئاسته، بغض النظر عن نيته من وراء تلك المواجهة. ذلك أن القاعود يعرف جيدا هذه المنطقة فى ميدان الثقافة أو هكذا أتصور أو هكذا أزعم.

وبالمناسبة لم يكن موفقا حين أنهى أمر أشرف الصعيدى بأن خطبت أمه له زينب حبيبة صديقه وقريبه المتوفَّى حامد الشيمى، الذى كان ينوى الاقتران بها. ذلك أن زينب قد لبست السواد وأنحلها الضنى حزنا على حامد مما يدل على أن وقع الأمر عليها كان مزلزلا، وإن لم يكن واضحا فى الرواية ماذا كانت علاقتها بحامد. لقد كنت أتصور أنه يحبها وأنها تحبه وحسب. لكن حديث الرواية عن أثر

موت حامد عليها وعلى أمها يوحى أنهما كانا مخطوبين أو شيئا من هذا القبيل رغم أن الرواية لم تقل ذلك صراحة ولا ألمحت إليه، وهو ما يربك القارئ. فهذا الحزن الشديد مضافا إليه قرابة الخالة حياة لأسرة حامد وعلاقتها الحميمة بأمه والاختلال النفسى الذى سببته وفاة حامد لوالديه، ثم كون الخالة حياة كاتبة إسلامية مشهورة بما يعنيه ذلك من أن المنتظر منها أن تكون فى تصرفاتها أكثر مراعاة من غيرها لما يليق وما لا يليق، كل ذلك جعلنى أفغر فمى دهشة واستغرابا واستنكارا من إقدامها على خِطْبة زينب لابنها، وبخاصة أن أشرف لم يكن له أية علاقة عاطفية أو غير عاطفية بالفتاة. وأعجب من ذلك أن أم حامد قابلت الأمر برضا، بل زغردت وهنأت العروسين، مما لا يتسق مع الطبيعة البشرية، وبالذات مع شخصية أم حامد، التى رأيناها لا تطيق أن يتخلف أحد من أهل القرية عن الترحيب بابنها حين يأتى فى إجازة من الجيش بل تعاديه عداء مريرا مستحكما. فليس من السهل على أم مثلها أن يكون موقفها من هذه الخِطْبة بهذا الهدوء بل بهذا الترحيب، وأحسب أن رغبة الكاتب فى ألا يترك شيئا فى نهاية الرواية بدون حل، وحل سعيد، هو المسؤول عن هذا، اللهم إلا إذا قلنا إنها لم تفعل ذلك عن وعى، ولم تكن تدرك أبعاد الموقف جراء ما اعترى عقلها من اختلال، فعندئذ يمكن فهم هذا التصرف من جانبها. ومثله انتهاء الرواية بحبس محمود المندلاوى عضو الجمعية التعاونية بالقرية، ذلك الذئب الثعلب الذى لم يستطع أحد الوقوف فى طريقه ولا إفشال خططه الجهنمية أبدا ولا كشف فساده الرهيب. فما الذى يا ترى غير المعادلة وأدى إلى حبسه هذه المرة؟ للأسف لم يحاول المؤلف توضيح ذلك. وفى ختام الرواية يقول المؤلف: "وقال أشرف لنفسه: لقد بدأت الحياة تخضرّ، وعلينا أن نواصل رعايتها بالإيمان والجهاد حتى تظل خضراء إلى ما شاء

الله". فإلى أى مدى يا ترى تحققت آمال أشرف؟ لقد ذهب السوفييت، وجاء الأمريكان، فهل صارت الحياة أفضل؟

محضر غش

بعث د. حلمى القاعود لى قبل يومين مع أصغر أبنائه محمود روايتيه الأخيرتين اللتين ظهرتا منذ أسابيع قليلة عن دار "مبدعون" للنشر، وهما بترتيب قراءتى لهما فى هذين اليومين "محضر غش" و"شغفها حبا". وتدور الرواية الأولى، وهى التى نحن بصددها الآن، حول فتاة جامعية متفوقة تدرس فى قسم اللغة الفرنسية بإحدى كليات الآداب بمصر، وتعيش فى منطقة عشوائية حيث يشتغل أبوها تاجر علافة وخضراوات. وهو بارع فى كسب القرش ولا يهتم فى الدنيا إلا به وبإحرازه، ولا يعبأ بشىء آخر بما فى ذلك واجبات البنوة نحو أبيه وأمه حتى إنه لا يفكر أبدا فى زيارتهما، فضلا عن أن يبرهما بشىء من المال مهما كانت الظروف. بل كان لا يخرج حق الله والفقراء والمساكين فى ماله ولا يصلى. ولكنه كان فخورا بابنته ويعلق عليها هو وزوجته الآمال الكبار، وينتظران اليوم الذى تتخرج فيه وتصير معيدة وتصبح فى نهاية المطاف أستاذة جامعية تتمتع بالمرتب الجيد والمكانة الاجتماعية العالية التى تعوضه عما يشعر به من ضآلة لأنه لم يحصل إلا على دبلوم مدرسة الصنايع.

فهذا جانبٌ من جَانِبَىِ الرواية التى أطلق المؤلف على بطلتها اسم "شهيرة"، وإن لم يكن هذا اسمها الحقيقى، إلا أنه قريب منه جدا من الناحية النغمية. ذلك أن الرواية فى أصلها حقيقية، وكنت أنا وهو وشاب قريب له شهودا عليها. أما الجانب الثانى فجانب الخِطَب الثلاث التى خُطِبَتْها شهيرة ولم تنته الأُولَيَان بالزواج المنشود، بينما انتهت به الثالثة، وإن كان زواجا قلقا غير مستقر ولا قائم على أساس يبعث على الاطمئنان، وانتهى سريعا إلى الطلاق، لكن عادت المياه إلى مجاريها بعد ذلك عند وضع الطفل الذى كانت شهيرة حاملة به عند الطلاق:

وكان الخطيب الأول معيدا بقسم الإعلام بنفس الكلية التى كانت شهيرة تدرس فيها بقسم اللغة الفرنسية، وتعرَّف إليها فى المكتبة حيث كانت تذهب إلى هناك تقرأ وتبحث. بَيْدَ أن الخِطْبة فشلت بعدما تبرع لوالده بفَصٍّ من كبده لإنقاذ حياته، فأصابه جَرَّاءَ ذلك ذبولٌ مخيفٌ ظن أبوها أنه سيموت بسببه أو سيظل مريضا يعانى الذبول والآلام بقية حياته، فكان أَنْ أمرها بفسخ الخطبة ورد الشبكة له. بل لقد كان يرى أنه ما كان ينبغى أصلا أن يُقْدِم الشاب على هذا التبرع، وليترك والده لمصيره، فهو سائر عاجلا أو آجلا نحو الموت. والشباب أولى من الشيخوخة. ومن ثم اقترح على ابنته فسخ الخطبة وإعادة الذهب إلى خطيبها كما قلنا.

وقد نفذت البنت أمر أبيها، وأولت خطيبها ظهرها دون أن تأسى على أى شىء كان يربطها به ودون أن تراعى مشاعره فى مرضه والمحنة التى كان يمر بها هو وأبوه، وإن كانت قد ندمت حين رأته يستعيد عافيته ونضارته ويحصل على بعثة إلى فرنسا، تلك البعثة التى كانت تتطلع إلى أن يحصلا عليها سويا كُلٌّ فى تخصصه بعد أن يتزوجا، وبخاصة بعدما فشلت خطبتها الثانية لمخلوف، الذى لم يرض أن ينطوى تحت إبط أبيها ويترك قريته وبيت أسرته هناك وشقته الواسعة الجميلة فيه ليأتى ويسكن فى تلك المنطقة العشوائية التى تسكنها أسرة خطيبته حيث يبحث له أبوها عن شقة قريبة يمكنه أن يقرضه ثمنها أو جزءا كبيرا منه إن كان بحاجة إلى قرض مقابل إيصالات أمانة يسددها على أقساط. ولما فشل كل من الطرفين فى اجتذاب الآخر نحو ما يريد تحطمت الخطبة، وانصرف كل من الطرفين لحال سبيله رغم أن الفتاة كانت أقرب إلى الرضا بأن تنتقل إلى بيت مخلوف فى قريتهم تاركة للزمن تليين مخه. لكنها فى نهاية المطاف لم تستطع إلا النزول على رأى والدها

المتصلب رغم حبه الشديد لها، إذ كان هذا الحب هو دافعه إلى الإصرار على أن تكون قريبة منه ومن أمها.

وهذا نص من الرواية يتناول هذا الموضوع: موضوع رد شهيرة الشبكة وفسخ الخطبة مع محمود معيد قسم الإعلام، وانتقالها باهتمامها إلى شاب آخر عقيب ذلك دون أدنى تلجلج فى ضميرها أو مشاعرها أو عقلها، وكأنها لم تطعن لتوها قلب إنسان بخنجر مسموم لا لشىء إلا لأنه كان يمر ببعض المتاعب الصحية جراء بره بوالده، وكان الأحرى بها أن تشجعه على ذلك وتزداد إقبالا عليه وتعلقا به وحبا له. تقول شهيرة: "فى يومٍ شتائى خالٍ من الأمطار، ولكن الغيوم تظلله وتحجب أشعة الشمس، تبادلتُ الحديث مع محمود عن الأحوال فى الجامعة والبيت. اطمأن على أسرتى، وسألته عن أسرته، فقال بصوت فيه رنة قلق:

– الحمد لله. نحن جميعا بخير.

– تبدو مشغولا بشىء.

– كلا. بعض الشواغل البسيطة.

– هل لى أن أعرفها؟

– بالطبع. لا شىء يخفى عليك.

– أرجو ألا يكون هناك ما يزعج.

– والدى يعانى بعض المتاعب الصحية.

– هل فحصه الطبيب؟

– أجل.

– وماذا قال؟

– متاعب معتادة تتعلق بالكبد.

سألت باهتمام واضح:

– العلاج متاح؟

– كتب أدوية، وطلب تحليلات وأشعّة.

– لعل النتيجة تبشر بخير.

قال باستسلام:

– ربنا كريم.

أحسستُ أن الأمر يتجاوز المتاعب العادية، وأن هناك ما ينبئ عن شيء مزعج فعلا. تدل على ذلك ملامحه وقسمات وجهه. ما عرفته بهذه الصورة فى الفترة الماضية، ولم أره مهموما كما أراه الآن. حاولت أن أخرجه من همومه، ولكنه كان يشرد بعيدا عنى، ثم يعود معتذرا، ويسعى إلى تجاوز الحديث فى موضوع أبيه. إنه يحاول أن يهب لى الاطمئنان بكلامه الذى لا تدل عليه ملامحه. عرفت بعد فترة أن والده قد نُقِل إلى المستشفى، وأن بعض أفراد الأسرة يرافقه، وأن الوضع جد خطير. زرته مع محمود أكثر من مرة. كان الرجل يبدى استسلاما واضحا لقدر الله. يقول:

– الأعمار بيد الله. لن يستطيع الطب أن يطيل فى عمرى أو يقصر من أجلى.

– شفاك الله، وبارك فى عمرك.

قلت بإخلاص وأمل كبير فى شفائه العاجل.

فى إحدى الزيارات فوجئت بمجموعة من هيئة التدريس والمعيدين بينهم الدكتور عمارة يدخلون الغرفة لزيارة المريض مجاملة لابنه وقد حملوا بعض الهدايا، ويلتفون حول سريره، ويحاولون رفع روحه المعنوية. أخذ الدكتور عمارة يمازح الرجل، ويقول له:

– إنك أفضل من شباب اليوم. استمتعتَ بالسمن البلدى أيام زمان لا السمن النباتى الذى تربينا عليه.

علق أحد الزائرين، وهو يبتسم:

– أكل من الحقل غير الملوث بالمبيدات والكيماويات. وأدرك الزراعة الحلوة بمياه الفيضان.

قال الدكتور عمارة:

– النيل الآن صار مصدرا لكل النوائب. جعلوه مجرى للصرف الصحى ومخلفات المصانع المسمّمة. نسأل الله السلامة.

نظر فى ساعة يده، وقال:

– أوشك وقت العصر أن ينتهى. اسمحوا لى أن أصلى وأدعو للوالد الطيب (وأشار بيده إلى والد محمود). ومن شاء أن ينضم إلىّ فليسرع.

بعد انتهاء الصلاة رفع الدكتور يديه إلى السماء وراح يدعو إلى الله ويبتهل من أجل شفاء المريض. ووجه كلامه إلى الزائرين الملتفين حول السرير:

– أمرنا الإسلام أن نأخذ بالأسباب، وهى هنا العرض على الأطباء وتناول العلاج، ثم الدعاء إلى صاحب الحول والطول والقدرة والرحمة. إن رحمته واسعة تشمل من فى السموات والأرض، وهو الذى يهب الشفاء ويمنح الحياة.

ثم تلا الآية الكريمة: "مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا، وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ. وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ". صدق الله العظيم.

ساد الغرفة جوّ من الإحساس بالراحة، ولمعت عينا المريض بالأمل، وكان مفعما بالحيوية مع ضعفه البادى للعيان. وقد نادى على الدكتور عمارة، وطلب منه فى إشارة بيده أن يسرّ إليه بشيء، وفوجئ به يقبّله على خده، ويدعو له ويسأل الله أن يوفقه فى حياته. عرفتُ بعد هذه الزيارة بأسابيع قليلة أن الرجل

يحتاج إلى فص كبد لينجو من عذاب المرض الذى ينذر بالهلاك. سأل محمود عن طريقة الحصول على المطلوب، فقيل له: "يفترض أن يكون متوافقا مع حالة المريض، وأن تتوفر فيه خصائص بيولوجية معينة يعرفها الأطباء".

راح محمود يبحث عن المطلوب لأبيه، ولكنه فوجئ أن المسألة لها محاذير كثيرة ومساومات صعبة، وأن القائمين على بيع المطلوب يشبهون العصابات التى تستغل احتياج بعض الناس وتمارس استغلالها على نحو شيطانى يؤدى إلى مصاعب عديدة تقود أحيانا إلى مخالفة القانون والوقوع تحت طائلته. لا أعرف تفاصيل هذه المصاعب، ولكنى فوجئت بمحمود يقدم نفسه للأطباء بوصفه ابن المريض الذى سيتبرع له بالمطلوب. وقد وجد الأطباء الصفات المطابقة فى الابن المتبرع لوالده. أذهلنى الأمر! كيف يضحى شاب فى مقتبل الحياة من أجل عجوز يودّع الدنيا؟ العملية غير مضمونة، ومخاطرها كثيرة. سيتوقف على نجاحها أو فشلها مستقبلى مع محمود. قلت لأبى:

– ماذا أفعل، ومحمود مصمم على المخاطرة من أجل والده؟

قال دون تردد:

– لا نتعلق فى الحبال الذائبة!

– تقصد...؟

– إذا أصرّ فهو وشأنه.

– ألا ينبغى أن نصبر حتى تنجلى المسألة؟

– كلا! حاولى إقناعه بالتخلى عن إصراره.

– إنه لا يريد أن يدخل فى متاهة المتبرّعين ومخالفة القانون.

– فليترك لى هذه المهمة إذا كان يمكنه دفع المبلغ للمتبرع.

– يبدو أنه لا يملك المبلغ كله، وهو كبير كما تعلم.

– على استعداد أن أقرضه ما يتبقى بإيصال أمانة!

– وإذا لم يقبل؟

– عليه أن يتحمل المسئولية!

التقيت بمحمود مرات عديدة، ورجوته أن يتخلى عن إصراره على التبرع بنفسه، وأن العقل يقول ذلك. لم يرد. فوجئت به بعد أيام قليلة يرقد بجوار أبيه عقب إجراء العملية لكليهما. قال الأطباء إن العملية نجحت، والشفاء يستغرق وقتا. وجدت منظرهما لا يشى بأى دليل على الشفاء، فكل منهما يبدو واهنا مصفر الملامح، محطم البنيان. منظرهما يدل على النهاية، وإن تأخرت بعض الوقت. نقلت لأبى ما رأيته، فأكد موقفه السابق، وزاد عليه:

– لا تذهبى لزيارته بعد الآن!

– ولكن الواجب يفرض أن أكون بجواره.

– الأمر غير مستحب بالنسبة لك.

– لنفترض أن النهاية مؤكدة، ماذا يقول الناس؟ "تخلت عن خطيبها فى محنته"، وتسوء سمعتى فى آذانهم؟

– لا تهتمى.

– ألا أذهب على فترات طويلة؟

– كلا!

أذعنتُ لإرادته، قطعتُ خطوط التواصل. بعد شهر جاءتنى منه رسالة مع أحد زملائه الذين يزورونه: "عزيزتى شهيرة، تحياتى وأشواقى. أُمْلِى هذه الرسالة على زميلى الذى يحملها إليك لأنى لا أستطيع الإمساك بالقلم. ما زلت فى مرحلة صعبة. طمأننى الأطباء أن الشفاء قادم بإذن الله، ولكنه يحتاج إلى وقت. افتقدتك فى الفترة الماضية. أنتظرك يوميا، ولكنك لا تأتين. آمل أن تكونى وأسرتك بخير".

مسكين خطيبي. لديه أمل أن يعود كما كان، ولكن هيهات! أخبرت أبي بالرسالة، ومضمونها. حاولت أن أقنعه بالتريث فى اتخاذ موقف حاسم يقطع ما بيني وبينه. ذكَّرته أنه ما زال يحمل المودة لنا. بل إنه تصور أن انقطاعى عنه بسبب مكروه جرى عندنا. مشاعره طيبة تجاهنا ويفكر فينا وهو فى غمرات المرض. إنى أُقَدِّر هذه المشاعر، وإن كنت أشاطر أبى موقفه، فقد سألت نفسى: "ماذا سيبقى من محمود، والهزال يحكم وجوده، ويصنع مستقبله إذا ظل حيا، ولم تأت النهاية قريبا؟". يبدو أن حظى سيئ وغير طيب، ولكن الانفصال قبل الاقتران أفضل من الترمل مبكرا. وهل هناك فرصة للاقتران أصلا؟ فلأبحث عن نصيبي مع شخص آخر. تذكرت الآية الكريمة التى تلاها الدكتور عمارة قبل إجراء العملية: "ما يفتحِ الله للناس من رحمة فلا ممسكَ لها". ولكن هل يؤمن أبى بهذه الآية؟ إنه لا يؤمن إلا بما هو محسوس وممسوك فى يده. وإنى أستغفر الله من أفكار أبى حول هذه الآية وعقائد الدين. إنه لم يوافق على الانتظار لبعض الوقت، ويريد أن تتم القطيعة فى الحال! ما أغربك يا أبى؟ محمود شاب طيب ومهذب ومجتهد ومؤدب، أهله ناس طيبون. هل سأجد مثيلا له؟ لا أدرى!

* * *

عزمت فيما بينى وبين نفسى أن أزور المريضين. كانت المفاجأة أن العجوز بدأت تدب فيه الحياة، أما الشاب فبدا أقرب إلى الموت منه إلى الحياة! علت السعادة ملامح محمود الواهنة الباهتة حين رآنى، وحاول أن يرفع رأسه ونصفه الأعلى ليسلِّم على، ولكن الأمر استعصى عليه. تغيّر شكله كثيرا. صار الهزال الشديد علامة بارزة على هيكله العظمى. هل سيعود هذا الكائن إلى الحياة مرة أخرى؟ سمعت آية كريمة منذ سنوات تقول: "يُحْيِى العظامَ وهى رَمِيم"، وهى تتعلق ببعث البشر يوم القيامة. هل يمكن أن تنطبق هذه الآية على محمود؟ لا أعرف!

جاملته ببعض الكلمات الجوفاء. كان يتكلم بصعوبة، وتبدو فى كلماته حرارة يفتقدها جسده الواهن، ولكنى كنت أقابلها ببرود غريب، لا أدرى لاحظه أم لا؟ بعد وقت قصير استأذنته لأنطلق إلى البيت. كانت نظراته تحمل رجاء بالبقاء، ولكنى خذلته وحزمت أمرى على المغادرة، وهو ما جعل سحابة قاتمة تظلل وجهه الشاحب. لا أنكر أنه شاب مهذب ومحترم، ولا أظن أننى سأجد نظيرا له؟ ولكن هل أتزوج ميتا أو شبه ميت؟ لم أخبر أبى بهذه الزيارة. وقد وجدت فيها ما يعزّز قرارى بتأييد موقفه، الذى ربطته بالانتظار بعض الوقت: إذا جاءت النهاية القدرية يكون الحل الإلهى أفضل، وإذا لم تأت وخرج من المستشفى واهنا وضعيفا عندئذ يمكن إبلاغه بالقرار، ويفتح الله طريقا لكل منا، فالأمر فى النهاية قسمة ونصيب!

خرج بعد أسابيع، وأخذ يتردد على مكتبه، ولكنه تردُّد الضعيف العاجز. لم أذهب إليه فور عودته، ولكن انتظرت بعض الوقت. قاطعت المكتبة والأماكن التى يحتمل أن نتقابل فيها، حتى جمعت عزيمتى وحملت إليه شبكته وهداياه، وأعلنته بخبر الانفصال. انطلقت لا ألتفت ورائى. لا أعرف كيف كانت حاله وأنا أمضى خارجة من مكتبه. لا بد أنه كان فى أسوإ حال. لم تسعفه صحته أن يجرى ورائى ويحاول إثنائى عن قرارى أو قرار أبى. فى المدرّج عرَّفت زميلاتى ثم زملائى بخبر فسخ الخطبة. واسانى بعضهم، ولامنى بعضهم سرا على تسرّعى، ورأى أن المروءة كانت تقضى أن أقف إلى جانبه حتى النهاية إذا كنت أريده حقا، وتهكمت بعض الزميلات فيما بعد على قرارى، وقالت زميلة ماكرة فى خبث واضح:

– إنها تريده على الفرّازة، سليما معافى قويا يهدّ الجبال!

قالت أخرى بالأسلوب ذاته:

- شهيرة لها مزاج خاص!

كان ردّ الفعل العام لدى بنات القسم وصبيانه مغلّفا بالحزن والأسى. لا أعرف إن كانوا يأسفون من أجلى أو من أجله أو من أجلنا معا. كلهم كانوا آسفين، حتى لو فضّل بعضهم التعبير عن ذلك بالمزاح والعبارات الماكرة. أما أبى فقد كان مرتاحا لما فعلته وقال لى كأنه يتحدى ما جرى وكان سببا فيه:

– ستتزوجين من هو أفضل منه ويليق بك، ويكون أستاذا فى الجامعة أيضا!

– لنترك الأمر لله.

أبى لا يعترف إلا بالواقع الملموس. كان يتصور أن الخُطَّاب سيقفون على بابى إذا فُسِخَتْ خِطْبتى، فأنا جميلة لا شك فى ذلك، وأحصل على الامتياز سنويا باعتراف الكلية والأساتذة والطلاب جميعا. ولكن الشّبَكة لم تصد سمكا! يبدو أن فسخ الخطوبة يصنع سُمْعة غير جيدة تجعل من يقبل على طلب اليد حذرا ومتشكّكا، ويتساءل: لماذا فسخت الخطبة؟ ومن هو الطرف الذى أقدم عليها؟ وهل هناك أمور غير طيبة لدى هذا الطرف أو ذاك؟ وإلى أى حد كانت علاقة الخطيبين؟ أسئلة كثيرة تطرح عند التقدم لفتاة مخطوبة سابقا. كثير من الناس يفضل أن يغلق الباب ويبحث عن خطيبة لم تقم حفلا من قبل. وهكذا راحت الأيام تمضى، وأنا أحاول أن أركز على صناعة الامتياز لأكون معيدة مهما كلفنى الأمر. لا ألتفت الآن إلى خطيب جديد، وإن كان عدم وجوده يحزّ فى نفسى. فالفتاة مهما كانت تملك من جمال ومال ومستوى علمى عال لا يكتمل وجودها إلا بالزواج والأمومة التى يسمّونها: الجمال الحقيقى. وأنا أريد هذا الجمال بلا ريب ولو كان أبى يريد شيئا غيره.

فى السنة الرابعة تعرفت على أحد الطلاب فى محاضرة عامة فى المدرج الكبير بالكلية. يبدو فارق السنّ بيننا واسعا إلى حد ما. لعله خمس سنوات أو ست. إنه يدرس منتسبا للحصول على الليسانس فى تخصص آخر، يفيده فى

عمله إلى جانب البكالوريوس الذى حصل عليه من قبل. هو ذكى بلا شك، لكنه أقرب إلى الفوضوية، يهتم بالقراءة العامة والثقافة الشاملة، وينظر إلى بعض الأساتذة نظرة إدانة، ويرى أنهم لا يصلحون للتدريس، وقد كشف أمامى سرقات بعضهم:

– انظرى. هذا أستاذ يسرق كتابا من آخر، ولا يكلف نفسه عناء تعديل ما يسرقه.

قلت له:

– كيف؟

– ها هو يبدأ أول صفحات كتابه دون عنوان أو تمهيد بالعبارة التالية: "ويقول (فلان) إن الشعر الحديث مرّ بعدة مراحل أولها..."، ويستمر فى نقل صفحات وصفحات كما تَرَيْن، ثم ينتقل إلى كتاب آخر (انظرى) وينقل منه صفحات وصفحات، ويكرر النقل من كتب أخرى حتى نهاية صفحات كتابه، أو كتاب غيره بالأحرى، ثم يبيعه للطلاب بسعر عال، ومن لم يشتره يكون مصيره الرسوب. وفى محاضراته يشخط وينطر، ويسبّ ويلعن، ويجعل من نفسه نظير فرعون، الذى يخاطب الناس: أنا ربكم الأعلى!

قلت تلقائيا:

– أستغفر الله العظيم!

– لا يعنيهم إلا المال والاستعلاء.

عرفت أنه ريفى من إحدى قرى الشرقية، ووالده يعمل فى وظيفة مرموقة، وقلت فى سرى: "لعله يفكر فى طلب يدى"، فهو مناسب: لديه الوظيفة، والإمكانات المادية، والطموح، وإن كان غير منظم فى دراسته وحياته. يحيا بطريقة من يعيش للحظة الراهنة ولا يفكر فى الغد أو يعمل حسابا لما سيأتى، ولكنه

بالتدريب والمتابعة يمكن أن يستجيب للنظام وتتحسن نظرته للمستقبل. تكررت لقاءاتنا فى حدائق الجامعة، نثرثر ما شاءت لنا الثرثرة فى أمور هامشية أو تعليمية حتى يدعونا داعى الانصراف، وقد نستكمل ثرثرتنا عبر الهاتف فى المساء.

ألمحت إلى أمى راغبة أن تشاركنى ما أفكر فيه. أحسست أنها غير متحمسة لأى علاقة أو الكلام عن أى مشروع للزواج، فقد شكلتْ لها تجربتى مع محمود صدمة صامتة لم تعبر عنها، ولم تعلق عليها:

– يمكنك التحدث مع أبيك، فلا رأى لى!

– أنت الخير والبركة يا أمى.

– أبوك صاحب القرار.

– ورأيك مهم أيضا.

– الأمر يخصك بالدرجة الأولى. ولا كلام بعد كلام أبيك.

عجبت لنفسى: كيف أفكر فى أمر مخلوف، وهو لم يحدثنى فى أمر الزواج؟ ألا يمكن أن يكون متزوجا وأنا لا أعلم؟ وكيف أستبق الأحداث من جانبى؟ ألا يمكن أن يكون تفكيره بعيدا عن الأمر؟ صحيح أنه يناقش معى موضوعات بعيدة عن العواطف. لم أسمع منه كلمة غزل يهبها لى عبر الثرثرة كما يفعل بعض أقرانه. يبدو من الذين لا يتسلَّوْن بالبنات. لقد كان منبهرا بحصولى على الامتياز فى كل المواد، وكان يشيد بعبقريتى، وتنبأ لى بمستقبل عظيم، وفى الوقت نفسه يعترف لى أنه لا يهتم بالمواد التى يدرسها، وأنه ينظر فى الكتاب نظرات عابرة فى أيام الامتحان، فمرة ينجح فى المادة بمقبول، وأخرى بجيد، وثالثة بجيد جدا، ونادرا ما يحصل على امتياز. التقدير يتوقف على "الحالة التى أكون عليها أيام الامتحان": يقول مخلوف. إن كنت مشغولا فلا أمل بتقدير مرتفع. وإن كانت هناك فسحة من الوقت ارتفع التقدير. وأحيانا يكون التقدير ضعيفا.

ضحك وهو يقول لى: "أعطانى الأستاذ فى مادة من المواد صفرا. عندما طلبت مراجعة ورقة الإجابة سألنى الأستاذ: ماذا كتبت فى الإجابة؟ أخبرته بما كتبت كاملا. تساءل: هذه إجابة صحيحة. إذن كيف حصلت على صفر؟ كان هناك بعض الأساتذة الحاضرين. قاموا بقراءة إجابتى، فقالوا إنه يستحق "جيد جدا" على الأقل. كان الأمر مثيرا، ولكنى نجحت دون امتياز مثلك". واستغرقه الضحك للمفارقة الغريبة التى يبدو أنها حدثت عن خطأ غير مقصود من الأستاذ لأسباب خاصة به. لعل سن مخلوف كانت من وراء هدوئه الملحوظ واختلافه عن الطلاب الأصغر منه الذين يبدون أكثر ميلا إلى الحركة والنشاط. كانت عواصف الربيع الرملية تثبت وجودها مع اقتراب نهاية الفصل الثانى فى السنة الرابعة حيث أتأهب للحصول على الليسانس، وأشهد تحقيق الحلم الجامعى".

وقد ظلت شهيرة تحرز المرتبة الأولى بين طلاب فرقتها فى السنوات الثلاث الأولى والفصل الأول من آخر سنة، لكنها فى امتحان الفصل الثانى ضُبِطَتْ وهو تغش من أوراق كانت تضعها فى كراستها، فحُوِّلَتْ للتحقيق حيث تأكد المحققون من أن الأوراق أوراقها، وإن لم يثبت عليها أنها استفادت منها رغم هذا، وهو ما جعل عقوبتها أخف وطأة، لينتهى أمرها إلى الحرمان من التعيين معيدة رغم أنها أحرزت المرتبة الأولى فى هذا الامتحان الأخير أيضا.

أما الخطيب الثالث فشاب من نفس الحى الذى تسكنه مستريح ماديا بعض الشيء بالنسبة لما حوله من شبان، وحاصل على دبلوم معهد متوسط بعد سنتين من نجاحه فى الثانوية. وقد تم الزواج وحملت منه، إلا أنه اشتبك مع والدها فى خلاف لكراهيته استبداده، وتلاسَنا تلاسُنًا فاحشًا، فحلف أبوها بالطلاق أن ابنته لن تعيش معه، وهو ما رد عليه الشاب بتطليقها. ثم زاد الطين بلة بفقدان أبيها كل ما يملك فى شركة وهمية نصب عليه النصابون وأوهموه أنه سوف يحصل منها

على مكاسب هائلة مضمونة، ثم اختفَوْا وكأنهم فص ملح وذاب، فلم يعثر لهم على أثر. ومع هذا فقد عاد الزوج حين علم أنها دخلت المستشفى لتضع ابنهما، ورجعت المياه إلى مجاريها بعدما انهد أبوها ولم يعد ذلك الأب المتسلط المتصلب الدماغ عن غباء وضيق أفق وعناد سخيف سفيه. وانتهى بها الحال فى نهاية المطاف إلى الرضا بنصيبها وقدرها فى الحياة، واستيقظ حِسُّها الدينىُّ، فصارت تصلى وتقرأ القرآن وتقبلت الحياة كما تجىء بعد أن لم تكن تصلى قط ولا تعرف شيئا عن كتاب الله، ولا تعرف فى الحياة إلا الانكباب على المقررات كى تكون الأولى وتعيَّن معيدة وتصير دكتورة جامعية، وإلا العمل فى دكان أبيها تبيع للزبائن حين تقتضى الظروف ذلك.

وقد قرأتُ الرواية واستمتعت بها، فهى رواية جيدة نجح فيها الزميل المؤلف فى التصرف بالمادة الحقيقية التى فى يديه وافتكَّ نفسه من كبولها رغم أنه لم يبتعد كثيرا عن الحقائق التى كان هو نفسه أحد أشخاصها كما ألمحت قبلا، بل وصور نفسه فى الرواية تصويرا دقيقا وموفقا غاية التوفيق. وبالمثل نجح فى وصف كل شخوصها، الذين يعرفهم كلهم تقريبا نجاحا كبيرا، ومنهم بطلة الرواية وأبوها، وإن كان قد حور فى تصوير شخصية الفتاة فجعلها أذكى مما هى فى الواقع وأفضل نفسا وأزكى أخلاقا رغم ارتكابها جريمة الغش فى الفصل الثانى من سنتها الأخيرة، ورغم أنه كان قمينا أن ينهال عليها بضربات قلمه و"يشلفط" صورتها وأخلاقها لأنها تستحق ذلك أولا، ولأن هناك فى الواقع ما كان ينبغى أن يدفعه إلى هذا التشويه لما ناله من إزعاج شديد بسببها هى وأبيها ثانيا. لكنى فوجئتُ بل بُوغِتُّ بأنه استطاع أن يعلو على مشاعره الشخصية ويرسم لنا صورة الفتاة رسما أفضل كثيرا جدا مما هو الواقع. ومعروف، أو هكذا أتصور، أن القصاص إذا كان يكتب شيئا وقع له أو لمن حوله لم تكن مساحة الحركة الحرة كبيرة لأن ضغط الوقائع

يؤوده ويقيد حركته فيحس أنه لا يسير، فضلا عن أن يجرى، بل يرسف فى الأغلال.

وقد أجرى الصديق تحويرات أخرى فى روايته: فقد نقل اسم هذا إلى ذاك، وسمى هذا اسما غير اسمه لكن على نفس الوزن والقافية، كما غير عمل والد العروس فجعله تاجرا يبيع الأعلاف بعدما حصل على شهادة متوسطة، وإن كان فى الواقع قد حصل على ليسانس إحدى الكليات بالحنجل والمنجل. أما البذاءة التى كان معروفا بها فقد أبقاها فيه، لكنه لم يتحفنا منها بشىء مكتفيا بالإشارة البعيدة. ومع هذا فقد استبقى فيه صفة العقوق لوالده وعدم السؤال عنه. أما زوجته فقد جعلها ستا طيبة مسالمة للآخرين، كريمة مع خُطَّاب ابنتها، وتحب الخير لابنتها فلذة كبدها، وتكره المشاكل. وأظن أنها فى الواقع كذلك.

ونأتى إلى الخُطَّاب: ولا أعرف شيئا عن الخطيب الأول، بل لا أدرى أهو خطيب حقيقى أم إنه من بُنَيَّات المؤلف. ذلك أنى كنت على صلة بأبطال الرواية فى تلك المدينة البعيدة عن العاصمة، وفى ذلك التاريخ النائى عن الحاضر، ولا أذكر أنى سمعت شيئا عن خِطْبَةٍ سابقة على خطبة مخلوف لتلك الفتاة، لكنى سمعت أنها تزوجت بعدما باءت خطبة مخلوف لها بالفشل حين أصر والدها إصرارا لا مثنوية فيه على أن ينتقل مخلوف من قريته إلى جواره بالمنطقة العشوائية التى يسكنها هو وأسرته تاركا الشقة الواسعة الجميلة التى خصصها له أبوه فى بيتهم الريفى فى شمال الدلتا والتى تشغل طابقا كاملا كسائر الشقق التى تخص كلٌّ منها أخا من إخوته. أما الخطيب الثانى مخلوف فأعرفه من خلال ما كنت أسمعه عنه وأشهده منه فى ذلك الوقت البعيد نسبيا. وقد ضحكت حين وجدت مؤلفنا يسميه: "مخلوف". ذلك أنه فعلا "مخلوف"، فقد خُلِق على "خلاف" أمثاله، إذ له عقليته الخاصة، وفهمه الخاص، وذوقه الخاص حتى إنه ليملِّح أى طعام من

الأطعمة التى تؤكل مالحةً بجردل من الملح، ويحلِّى أى شىء من المشاريب أو الأكلات الحلوة ببرميل من السكر لو استطاع. والغريب العجيب أنه لم يكن يحب الشيكولاتة ولا الجاتوه ولا التورتة ولا الكيك ولا البونبونى ولا الطوفى ولا يضع شيئا منها فى فمه.

كما كان له ذكاؤه الخاص، وحبه الخاص للقراءة، وعجزه الخاص عن التفوق رغم امتلاكه لأسبابه، إذ هو لا يستطيع صبرا على الاستذكار والعكوف عليه، وإلا لقد كان قمينا أن يكون الأول على زملائه ويعيَّن معيدا فى الكلية التى سمعتُ أنه انتسب إليها بعد حصوله بعدة سنوات على مؤهل عال. لقد كان طموحه مجرد تطلع فى الضمير لا يجد للأسف تنفيذا موازيا له. وقد صوره الدكتور القاعود صورة قريبة من هذه، وإن لم يدخل فى التفاصيل واكتفى ببعض اللمسات السريعة التى تعطينا مع هذا فكرة عن شخصيته ساعدتنا على فهم دوافعه وتصرفاته. وقد وقفت عند مخلوف بالذات لأنه هو الخاطب الوحيد من بين الثلاثة الذى أعرفه، إذ سمعت عنه مرارا ورأيته فى بعض المواقف.

أما شهيرة، ولعل المؤلف سماها كذلك لأنها كانت مشهورة بين زملائها وزميلاتها وأساتذتها بسبب تفوقها وتسنُّمها قائمة الناجحين حتى آخر فصل دراسى لها فى الكلية، فقد أفلح الكاتب فى وصف شخصيتها نجاحا غير صغير، وأبرزها لنا إنسانة من لحم ودم وأعصاب وعقل وتصرفات، تسير وراء أبيها وتنفذ ما يريد، وتستذكر دروسها كى تحصل على الأولية فى قسم اللغة الفرنسية الذى تنتمى إليه، وتحب أحد المعيدين بقسم الإعلام من ذات الكلية، وتحلم بأن تعين معيدة وترسلها الجامعة مع خطيبها فى بعثة إلى فرنسا.

لكن هناك بعض الأشياء فى تصوير الكاتب لها وددت لو أنه استبدل بها غيرها: فمثلا يفهم من كلامه عنها أن الفرنسية كانت لغتها الأجنبية الثانية فى

المرحلة الثانوية. وواضح أن الفتاة ليست من خريجات المدارس الأجنبية بل خريجة مدرسة حكومية فى حيها العشوائى. وبناء على هذا وذاك وذلك فكيف يا ترى تغامر بدخول قسم اللغة الفرنسية، ومعرفتها بتلك اللغة متدنية إلى هذا الحد؟ بل كيف يقبلها قسم اللغة الفرنسية أصلا، والفرنسية لغة ثانية لها لا يمكنها أن تسعفها أبدا، حتى لو كانت عبقرية العبقريين والعبقريات، فى متابعة المحاضرات أو قراءة الكتب؟ ورغم أنها كانت تتردد على مكتبة الكلية فلم نلمس فى كلامها ولا فى تصرفاتها ومواقفها ما يشير إلى أن عقلها مختلف عن عقول طلاب وطالبات جيلها ممن يحفظون المواد دون فهم فى الغالب ثم يدخلون الامتحان فيتقيأون، أيضا دون فهمٍ، ما حفظوه دون فهم. ليس هذا فقط، بل جعلتها الرواية تحتل المرتبة الأولى دائما فى نتائج الامتحانات. لقد كان من الأفضل لو أن المؤلف وضعها فى قسم آخر غير قسم اللغة الفرنسية، وليكن فى قسم التاريخ أو الجغرافيا أو حتى قسمه هو: قسم اللغة العربية وآدابها حتى لو لم تكن من خريجيه وخريجاته. ومع هذا كله فقد يقال إن المؤلف قد اختار لها قسم اللغة الفرنسية حتى تكون أمامه فرصة مناقشة الموقف العلمانى عندنا من الحملة الفرنسية بما فى ذلك معاداة أصحاب هذا الموقف المخزى لماضى الأمة وتاريخها ودينها وقوميتها.

ثم هناك ارتكابها جريمة الغش. لقد بوغتنا بأنها تغش، ولم تقل لنا الرواية قط إنها كانت تغش قبل ذلك. فما الذى يا ترى أَطَرَها على الغش أَطْرًا فى نهاية الطريق حين لم يعد بينها وبين خط النهاية التى كانت قد سبقت الجميع متجهة إليه إلا بضعة أمتار، وهى الطالبة المتفوقة؟ هل طالبة مثلها يمكن أن تقرر فجأة، ودون سابق إنذار، الاعتماد فى نجاحها على الغش فى تلك المادة التى غشت فيها؟ فما هى يا ترى مبررات ذلك الانحراف حتى يقتنع القارئ ويتقبل ذلك الأمر فلا يقف فى حلقه كشوكة السمكة؟ صحيح أن الكاتب قد غمغم مرة أو مرتين بإيماءة

شديدة الخفاء إلى أنها، حين كان أحد الأساتذة يتحدث بمحضر منها عن ظاهرة الغش بين طلاب الأجيال الأخيرة، كانت تشعر بشيء من القلق. لكن تلك الإيماءة لا يدركها القراء بسهولة. لقد التقطت أنا تلك الإيماءة على خفائها الشديد لأنى، لظروف خاصة بى، كنت أعلم بأمر حادثة الغش قبل تأليف الرواية بزمن طويل، فكنت منذ أول سطر فى الرواية أنتظر حديث المؤلف عن تلك الواقعة. بل لقد كنت أعرف أنه إنما كتب روايته بباعث من تلك الواقعة ذاتها. ويكفى أن ننظر فى العنوان لنتيقن من هذا.

وبالمناسبة فعنوان الرواية، كما نرى، يتعلق بآخر الوقائع المهمة فى الرواية حدوثا. وقد يبدو الأمر غريبا لبعض القراء، إذ كيف يعنون المؤلف روايته بآخر شيء فى وقائعها. بيد أن السر فى ذلك سرعان ما يبرز للعين الفاحصة، إذ إن محضر الغش هو الذى قلب حياة البطلة رأسا على عقب وأفسد طموحها وتخطيطها وجعل أمورها بعد هذا عادية تماما بل أقل من العادية. فبعدما كانت تتطلع إلى أن تكون أستاذة فى الجامعة وأن يكون زوجها أستاذا جامعيا مثلها وتسكن معه حيا من أحياء القاهرة الراقية فى شقة واسعة تليق بوضعهما الجديد صار كل همها أن تنشئ مركزا صغيرا على قد الحال تعطى فيه الدروس الخصوصية للتلميذات الفقيرات من أبناء حيها العشوائى. ولولا أن إحدى الجارات اللاتى يدسسن أنوفهن فى أمور من حولهن وجدت لها خطيبا على قد الحال، على الأقل: من الناحية التعليمية والشهادة التى حصل عليها، فلربما لم تتزوج حتى الآن.

شيء آخر، وهو أن الرواية قد جعلت الفتاة تتدين فجأة وتشرع فى حفظ القرآن وترضى بنصيبها من الحياة عقب عودة زوجها إليها عند ولادتها ابنه منه. وكنت أحب أن يسوق الكاتب من حياتها السابقة ما يدل على أنه كانت فى أعماقها بذور هذا التغيير. لكن حياتها قبل ذلك تخلو تمام الخلو من مثل تلك

البذور. لقد كان أبوها لا يصلى ولا يزكى، ولا يعرف له معبودا غير المال. كما لم نرها هى نفسها تصلى أو تقرأ القرآن أو حتى تسمعه مجرد سماع أو تهتم بالدين أصلا أو فصلا. بل إنها لتعترف بذلك اعترافا. وكان كل همها منذ بداية الرواية أن تحتل المرتبة الأولى لدى تخرجها كى تكون معيدة فدكتورة بالجامعة. وهذا كل ما هنالك. أما شخصيتها فقد بدت لنا شخصية خالية من الرقة والرحمة ولا تفكر فى الآخرين ولا تتعاطف مع أحد ولا يختلج ضميرها إشفاقا على أى إنسان. إنها أشبه بآلة تمت برمجتها على الاستذكار، وكفى. ومثل تلك الشخصية يصعب أن تتبدل كل ذلك التبدل الجوهرى، وبتلك البساطة، وإن كانت هزيمتها وإخلادها للرضا بأقدار الله وفيئها إلى ربها حتى لو يكن الرضا والفىء مقنعا قد استثارت تعاطفنا إلى حد ما، وبخاصة أنها عضدت ذلك ببعض الآيات الكريمة وأحد أدعية الرسول العظيم مما حفظته بأخرة كما تقول الرواية، وهو ما لطَّف نهاية الأحداث وجعل الأمر، رغم ما فيه من بعض الثغرات الفنية، ينزل بردا وسلاما على قلوبنا.

ومع ذلك يحسب للكاتب أنه قد حَيَّد عواطفه تجاه شهيرة فلم يصورها كما هى فى الواقع، وهى فى الواقع ليست بذلك الذكاء ولا بهذا الحب للعلم، فضلا عن أن تصلح لتكون طالبة بقسم اللغة الفرنسية. كما أنها لم تفكر فى فتح مركز للدروس الخصوصية لأنها تريد أن تكسب قرشا حلالا حسبما جاء فى الرواية بل كان ذلك امتدادا لتطلعها الشره للمال وقدرتها على مجاراة الذين يلعبون بالبيضة والحجر فى مجتمعاتنا، وما أكثرهم، وبإيعاز من أبيها البارع فى التعاملات المالية والفاشل تمام الفشل فى الإنسانيات سواء على مستوى الكلام أو مستوى السلوك والتصرفات. لقد كنت أسمع عنها كل ذلك، وهو ما دفعنى إلى الثناء على المؤلف من الناحية الإنسانية لا من الناحية الفنية، إذ استطاع أن يعلو كثيرا على مشاعره تجاه الفتاة. ولو ترك لقلمه العِنَان وصورها أبشع تصوير ممكن ما لامه أحد ممن

يعرفون القصة الحقيقية، وبخاصة أن صورتها فى هذه الحالة ستكون هى صورتها الحقيقية المقنعة.

وبمناسبة تصوير الشخصيات فالملاحظ أن الكاتب بارع فى التعامل مع كل ألوان الشخصيات فى روايته، سواء فى ذلك الأساتذة الجامعيون بكل ألوان الطيف، أو تاجر علافة وخضراوات كوالد شهيرة، أو نصابة كالمرأة التى ضحكت على أبى شهيرة وأخذت منه "بصنعة لطافة" كل ما كان معه من أموال على أمل إعطائه فائدةً عشرين فى المائة من ماله تُقَسَّط له أقساطا شهرية تأتيه وهو جالس فى بيته واضعا ساقا على ساق فى غاية الراحة والاطمئنان، ثم بعد أن أعطته فائدة الشهر الأول إذا بها فص ملح وذاب، ولم يستطع أن يعرف لها أى أثر، أو ربة بيت كأمها وكالست الجارة التى عرضت عليها الزواج فى نهاية الرواية ونجحت فى تزويجها من الشاب الحاصل على دبلوم أحد المعاهد المتوسطة.

وفى النقد الروائى يسمَّى هذا بـ"مدى خبرة المؤلف"، أى النطاق الذى يستطيع أن يتحرك الروائى خلاله وينجح فى وصفه وتصوير شخصياته وسرد ما يقع فيه من حوادث. وهذا المدى متوقف على درجة اتساع تجارب الكاتب وتنوعها، ومقدار معرفته بشوارع الحياة وحواريها ودهاليزها، وكَمّ قراءاته وكَيْفها، وقبل ذلك كله على موهبته الربانية. وواضح أن كاتبنا واسع المدى وبارع فى التحليل والسرد وإجراء الحوار على ألسنة شخصياته المختلفة، وبارع كذلك فى الوصف: وصف الأشخاص ووصف الأماكن ووصف الطبيعة والمناغمة بينها وبين الوقائع على السواء، وملم إلماما أكثر من جيد بالبيئات المختلفة على تنوع مستوياتها الثقافية وتباين عاداتها وتقاليدها وأخلاقها.

وعودة إلى موضوع تسمية المؤلف لشخصيات روايته هناك تسمية الدكتور المتدين بقسم اللغة الفرنسية بـ"الدكتور عمارة". وقد يكون المؤلف اختار له هذا

الاسم بوحى من اسم د. مُحَّد عمارة المفكر المعروف. فهو متدين، ويكتب منافحا عن الإسلام، ويقف ضد نزعة التغريب التى تشيع بين بعض مفكرينا وكتابنا، ويدين فيما يدين الحملة الفرنسية ويراها عملا استعماريا إجراميا لا وشيجة بينه وبين التحضير والتنوير كما يزعم بعض من ينتمون إلى العروبة والإسلام للأسف. ولدينا د. مختار، وقد يمكن أن نقول إنه اسم على مسمى، فهو لموالاته الغرب فى فكره ومواقفه قد "اختير" لشغل منصب ثقافى كبير فى البلاد. و"مختار" اسم مفعول من "اختار يختار". وأما "محمود" خطيب شهيرة الأول فهو "محمود" السيرة والأخلاق، إذ هو متفوق ويراعى ربه فيما يفعل وفيما يدع، وهو بار بأبيه حتى لقد تبرع له بفص من كبده رغم ما فى الأمر من مخاطر لم يقم لها وزنا فى حساباته، ورغم ما وجده من عدم ترحيب من قِبَل حميه وخطيبته بهذا التبرع. أقول هذا فى تفسير أسماء أبطال الرواية، وفى ذهنى ما يقوله السيميائيون حول هذه النقطة، وإن كنت لا أعطى الأمر حجما أكثر من حقيقته، لكنها حاجة فى نفسى قضيتها.

ومن الممكن جدا ألا يكون الصديق المؤلف قد قصد شيئا من هذا الذى أقول. وهأنذا أسارع من تلقاء نفسى فأعترف بأن ما صنعته هنا إنما هو مجرد اجتهاد منى، بل أعترف قبل ذلك أننى قد أقبلت على الأمر وفى نيتى أن أجد لأسماء أبطال الرواية مغزى رغم أنى من المؤمنين بأن القاعدة العامة فى تسمية شخصيات القصص هى المصادفة، فالقصاص فى الغالب يعطى كل شخص اسمه دون أن يفكر فى أبعاد تلك التسمية. وبالمناسبة فقد كنت، قبل شهور، أشرف على باحث مصرى مغرم ككثير من الشبان باستخدام المناهج الجديدة لا لشىء إلا ليقال إنه يعرف شيئا لا يعرفه سوى القليلين. وكانت رسالته فى سيمياء أسماء الأشخاص القصصيين. وكان يرتكب فى سبيل تفسير تلك الأسماء كثيرا من التعسف، ونادرا ما كان يستجيب لى حين أفهمه أن العشوائية هى سيدة الموقف

فى هذا المجال. وأذكر أيضا أنى، فى فصل "الرمز" من الباب الثالث من كتابى: "نقد القصة فى مصر: ١٨٨٨- ١٩٨٠م"، قد رددت على أنور المعداوى، الذى كان قد كتب عن رواية "اللص والكلاب" عرضا نقديا فى عدد أغسطس ١٩٦٢م بمجلة "المجلة"، فتوقف أمام المومس الطيبة الصافية القلب التى أحبت سعيد مهران بطل الرواية وأرادت أن يترك خطة الانتقام ممن أفسدوا عليه حياته وصيروها جحيما لا يطاق، ويستقر معها ويعيشا على الحلوة والمرة فى سلام وأمان وإخلاص بعيدا عن المشاكل، وكانت على استعداد أن تهب له عينيها أنفسهما. وكان اسمها "نور"، فتساءل: هل يمكن أن يرمز هذا الاسم إلى الشىء الجميل الوحيد فى حياة مهران؟ لكنه نفى أن يهتم القصاص بجعل اسم بطل واحد من أبطاله رمزيا ثم لا يبالى ذلك فى أسماء الأشخاص الآخرين.

وهذا، بطبيعة الحال، غير ما اتبعه محفوظ نفسه فى "أولاد حارتنا"، فمن البين الساطع أنه اختار أسماء شخصيات روايته عن قصد وعن بينة ليكون كل اسم رمزا على الشخص الذى كان فى ذهنه عندما صور معادله فيها: فـ"الجبلاوى" مثلا من "جَبَل الله الإنسان من الطين"، و"إدريس" قريب جدا من "إبليس" وزنا ونغما، وهو نفس ما يقال عن "آدم" و"أدهم". وأما "جبل" فهو موسى، الذى صعد للقاء ربه فوق الجبل، وأما "رفاعة" فعيسى، الذى "رفعه الله إليه"... وهكذا.

ولغة كاتبنا لغة بسيطة ومباشرة وقادرة على اقتناص كل ما يحتاج الروائى إلى اقتناصه كى تنجح رواياته من وصف وتحليل للشخصيات وتوضيح لدوافعها. وليس فيها لا فتور ولا وخم تعبيرى من ناحية ولا حذلقة ولا خطابية من الناحية الأخرى. ولا تحس أن الكاتب يتدخل تدخلا مباشرا يقسر الأحداث على السير فى اتجاه معين لا يقبله منطقها أو يضع كلاما فى أفواه المتحاورين لا يناسب

طبقتهم ولا بيئتهم ولا مستواهم الثقافى أو الاجتماعى إلا فى القليل. وليس فى هذا كله أدنى غرابة، فهو أستاذ جامعى قدير، وهو يكتب ويؤلف ويبدع منذ عشرات السنين، ومؤلفاته تعد بالعشرات ما بين النقد الأدبى والتحليل السياسى وتاريخ الأدب والرحلة والرواية. كما لاحظت أنه بارع فى تحويل كل ما يريد قوله فى روايته إلى مشاهد وحوارات بحيث يفهم القراء فى كثير من الأحيان ما يريد أن يوصله إليهم من خلال مشاهدتهم واستماعهم لما يجرى أو يقال أمامهم لا من خلال السرد والتعليق على الأحداث. وقد أجرى سرد وقائع روايته على لسان شهيرة بطلة الرواية، فجاء السرد دافئا حميميا ومقنعا فى غالب الأحيان، إذ عبر عن شخصيتها وتطلعاتها وارتباك حياتها فى بعض الأحوال جراء تدخل والدها فى حياتها وإملائه إرادته عليها، كل ذلك دون افتعال أو مبالغة.

كذلك استطاع المؤلف تضمين روايته عددا من القضايا الهامة بسلاسة ونعومة ودون أى تصنع بحيث جاءت كل قضية فى موضعها ووقتها دون تقديم أو تأخير، وكانت ملتحمة بسياقها كأحسن ما يكون الالتحام. ومن هذه القضايا قضية التشيع العلمانى للحملة الفرنسية والنظر إليها بوصفها السبب فى النهضة العربية والمصرية الحديثة رغم أنها كانت تهدف إلى احتلال مصر، واتبع قائدها بونابرت الكذب والتدليس أسلوبا فى التعامل مع المصريين باعتبارهم أغبياء لا يفهمون ولا يعقلون، إذ ادعى هذا المنافق الأفاق أنه قد أسلم وأتى إلى مصر ليخلصها من المماليك أعداء الإسلام، وأباد هو ومن خلَفه فى المحروسة عشرات الآلاف من المصريين وهدم بيوتهم واعتدى على أعراض نسائهم ودخلوا الأزهر بأحذيتهم وخيولهم وربطوها فى محرابه وعاثوا فى أرجاء البلاد فسادا، ليأتى فَسْلٌ من فسول العلمانيين يشتغل أستاذا فى الجامعة، فيتجاهل هذا كله ويريدنا أن نعمى تماما عنه، وكأن الفرنسيين قد جاؤونا بحملتهم الإجرامية ليأخذوا بأيدينا إلى

التقدم والتحضر لا ليستعمروا بلادنا وبلاد المنطقة ويحكموا قبضتهم على أعناقنا ويعصروها عصرا ويضعوا أيديهم على ثرواتنا، وقد خططوا للبقاء جاثمين على صدورنا أبد الدهر.

يقول المؤلف على لسان شهيرة مقارنة بين أستاذين من أساتذتها: أحدهما متغرب الفكر والفهم والذوق والقلب والضمير، والآخر مخلص لوطنه وقومه وشعبه ودينه: "كان الشتاء قد أقبل بأمطاره وعواصفه. أشجار الكلية بدت فى أكثرها جرداء من الأوراق والظلال. أشجار أخرى انطفأ لون أوراقها وصار كابيا. الشمس تسطع وتختفى سريعا بين غيوم كثيفة متفاوتة الألوان من الأبيض إلى الرمادى إلى الأسود. ولكن البرد جعل الناس ينفخون فى أياديهم مع أنهم يرتدون ملابسهم الثقيلة، بعضهم يرتدى معاطف طويلة وأغطية رأس سابغة إلى ما تحت الأذنين، وهناك من يحمل مظلات فى يده اتقاء لمطر مفاجئ. وكنت فى هذا الجو الملبد أفكر فى محمود وفى الذهاب إليه فى مكتبه، وأتمنى أن يوفر علىَّ اللقاء فى مكتبه فأجده فى مكتبة الكلية. المكان هناك واسع، وهناك طلاب وطالبات وأساتذة وموظفون. اللقاء فى المكتبة ضمن هذا الجمع لا يثير انتباه أحد، ويتيح فرصة للكلام.

قلت: أسمع أولا محاضرة الدراما ثم أفكر فى أمر محمود. الدكتور مختار أستاذ الدراما مشهور. له علاقات قوية بحزب الحكومة، وتستضيفه الإذاعات والشاشات، وله وجود رسمى فى الهيئات الثقافية، وله آراء تدعو إلى الحداثة والتنوير والاقتداء بفرنسا والغرب، وقد دعا من قبل إلى الاحتفال بالغزو الفرنسى لمصر بقيادة نابليون. وفى هذه المحاضرة قال لنا:

– إن الفرنسيين متحضرون، وهم أساس حضارتنا الحديثة!

سأله طالب:

– كيف يؤسّسون حضارتنا، وقد ذبح نابليون المصريين؟

– مُحَمَّد على أرسل المبعوثين إلى فرنسا، فعادوا يحملون لنا الحضارة.

قال له طالب آخر:

– سمعنا أن نابليون قتل سُبْع الشعب المصرى فى حملته على مصر والشام.

– لقد عَرَّفَنا بالمطبعة أساس التعليم.

جاء صوت طالبة من آخر المدرّج:

– يا دكتور، لقد أخذ المطبعة معه. لقد كانت مطبوعاتها بالفرنسية من أجل جيش الغزو والذبح!

– دعونا من هذا الكلام، واستعدوا فى الأسبوع القادم لزيارة السفير الفرنسى وطاقم السفارة إلى القسم. سيمنحون المتميزين رحلة إلى باريس والمدن الفرنسية الكبرى لقضاء الإجازة الصيفية هناك. أما الأقل تميزا فيمكنهم المشاركة فى معسكرات شاطئية ستقيمها السفارة فى الساحل الشمالى بين الإسكندرية ومطروح، وستكون فرصة لتقوية اللغة بالإضافة إلى النشاط الترويحى، وتوفير الإقامة والتغذية مجانا.

هلّل الطلاب لهذا الخبر، ونَسُوا مذابح نابليون والاحتفال بحملته التى سماها الدكتور مختار ورفاقه بـ"العلاقات الثقافية بين مصر وفرنسا". خرج من المدرّج وهو يشعل غليونه، ومن حوله بعض الطلاب يتحدثون إليه ويتحدث إليهم. يا إلهى! الرجل بلغ أرذل العمر واشتعل رأسه شيبا، ولكنه يصبغه ليبدو أكثر شبابا، ولكن هيهات! يحب الحديث إلى الطالبات والنساء عموما، ويصغى إليهن باهتمام، ومكتبه يظل مفتوحا إلى المساء، ويحظى بزيارة طالبات وهيئة تدريس من النساء. كلامه ناعم ولطيف. وحين يستمعن إليه فكأنهن يستمعن إلى عزف الموسيقى. لا

أحب الذهاب إليه، فقد حاول ذات مرة أن يتحرش بى فى مكتبه، ولما أبديت فزعى قال لى:

– يبدو أنك فلاحة.

سكتُّ ولم أجب. فقال:

– الحياة جميلة. عليك أن تستمعى بها.

تجرأت وقلت:

– فى الحلال يا دكتور!

بنبرة ساخرة:

– ما زال عندنا من يتكلم عن الحلال والحرام!

وواصل:

– الحلال والحرام موضة قديمة.

قلت له:

– أترضى أن تعيش ابنتك خارج الحلال والحرام؟

– يبدو أنك صعبة يا شهيرة، وساذجة أيضا!

اندهشت لأنه يحفظ اسمى بين الحشود التى يلتقى بها فى المحاضرات وخارجها. استأذنته، وانطلقت لا ألوى على شىء. عرفت عنه أشياء كثيرة يتهامس بها الطلاب والطالبات، ولكن كان هناك من يشغلنى، ومن يشجعنى على الارتباط بمحمود. كان أبى ينظر إلى مركزه الاجتماعى ويأمل أن يتحقق حلمه من خلالى: ابنته دكتورة، وزوجها دكتور! وسيختار لهما سكنا واسعا بالقرب منه. سيساعده فى أول الأمر وينتظر منه بعد أن يكبر فى الوظيفة أن يرد الجميل. منهج "خذ وهات" هو الدستور الذى لا يجوز تغييره فى عرف أبى. لقد فكر فى أن خطيبى، أو زوجى باعتبار ما سيكون، يمكن أن يسافر فى بعثة إلى فرنسا، ويقضى

هناك سنوات يعود بعدها بسيارة وآلاف الفرنكات وشهادة الدكتوراه ومشتريات لامثيل لها فى بلادنا. سأكون برفقته بالتأكيد، وأحصل على الدكتوراه أيضا، وبعدئذ ننتقل إلى الأحياء الجديدة الفاخرة فى مدينة نصر التى لا يعيش أهلها فى العشوائيات، وليسوا زبائن الأعلاف والبقوليات. سيتعلم أولادى فى مدارس خاصة، ويكون الهمس هو أسلوب الحياة فى عالم الكبراء والأغنياء. يا له من حلم: "إنى رأيت أحد عشر كوكبا، والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين!". ما أجمل أحلام اليقظة! هنيئا لك يا أبى بأحلامك، التى ما خطرت ببالى.

شجعتنى أحلامه على الذهاب إلى المكتبة. فى أعماقى كنت ذاهبة لرؤية الهدف، وإن لم أجده سأذهب إليه فى مكتبه تحت أية ذريعة. المهم أن نلتقى. كأنه كان ينتظرنى من وقت طويل، ويجلس على أحر من الجمر. يكشف عن ذلك شدة لهفته على لقائى. كان ينتظر، ولعل انتظاره من قبل محاضرة الدكتور مختار العاصفة. تهلل وجهه حين رآنى، وهب واقفا، وأشار إلى كرسى خال فى مواجهته، وقال:

– تفضلي

شكرته على حسن استقباله. سألنى:

– ماذا تريدين من كتب؟

قلت له فى تمنع:

– لا عليك. إنى أعرف مكان ما أريد.

– سأحضرها بنفسى. قولى أولا: ماذا تشربين؟

– أشكرك. لقد شربت فى البيت قبل أن أحضر إلى الكلية.

– الجو بارد. والتدفئة مطلوبة.

ضحكت، وأبديت الممانعة مرة أخرى، وقلت بمزاح:

– لى عندك مشروب ساخن!

سميته: حديث الاستحواذ الذى يصنعه التمنّع والحياء والأسئلة غير المباشرة، والأحلام المجنحة التى لا تكشف عن نفسها. تحدثنا عن المحاضرات والامتحانات وأيام الصيف، ودلف بنا الحديث إلى باريس والرحلة المتوقعة التى سيعلن عنها السفير الفرنسى فى القاهرة حين يزور الكلية فى إطار اهتمام الفرنسيّين بلغتهم وثقافتهم ونشرها بين شعوب العالم الثالث. تمنى أن يزور باريس. قلت له:

– تزورها مبعوثا للدكتوراه.

– لعل الله يستجيب لدعائك.

– آمين!

استدرك:

– ستكون بعثة رائعة حين تُبْعَثين أنت أيضا؟

سرّتنى ملاحظته، وقلت فى تصنّع:

– ما زال الوقت مبكرا!

– عندما تتخرجين وتصبحين معيدة ستكون البعثة أقرب من حبل الوريد.

كلها فركة كعب.

شعرت أنه فى طريقه لإعلان مشاعره. وعند ذلك نهضت لألحق بالمحاضرة التالية. سألنى:

– متى أراك؟

لم أجد إجابة. لزمت الصمت.

– هل ستأتين غدا؟

– إن شاء الله.

– سأنتظرك هنا، وأجهز لك الكتب والشاى الساخن.

ابتسمتُ وانصرفت، وفى البيت حكيت لأمى، فابتهجتْ ورفعتْ يديها بالدعاء ليكون من قسمتى ونصيبى. وانعكست فرحة أمى على ملامح أبى حين نزلتُ إلى المحل لأساعده. كانت أمى قد نقلت إليه ما قلته لها، وبدا أنه ينتظر الضوء الأخضر ليتقدم محمود إليه ويطلب يدى. قال لى أبى وهو يفتعل القلق من أجلى:

– تأخرت اليوم يا دكتورة؟

دهشت لسؤاله. لم يتعود أن يسألنى عن التأخير. نادرا ما يهتم بحركتى وشؤونى. ترك الأمر لأمى التى تقوم بمتابعتى، وترتيب احتياجاتى ومصروفى وثمن الكتب ومستلزماتى الأخرى. أجبته:

– لم أتأخر. جئت بعد المحاضرة مباشرة.

تشاغل عنّى بزبون قادم يحتاج بعض الخضراوات والفاكهة. وجاءه بعض التجار الذين يعرفهم، فأخرج لهم دكة من داخل المحل ليجلسوا عليها، وسحب كرسيا وجلس أمامهم، وراحوا يتناقشون فى أمور شتى، فانسحبت إلى الداخل، وأخذت فى استرجاع ما حدث طول اليوم داخل الكلية، ورحت أحلم!

* * *

هو الصورة المعاكسة تماما للدكتور مختار. إنه الدكتور عمارة. رجل مختلف، متمكن فى مادته وثقافته، عاش فى فرنسا وإنجلترا أربع سنوات جاء بعدها بالدكتوراه. وهو مشهور بالثقافة الموسوعية، ويحب القراءة والاطلاع، ويناقش طلابه فى هدوء ومودة، ويقبل أن يختلف معه الطلاب فكريا، ويصبر فى إقناعهم بالدليل والبرهان. وهو فخور أنه يجمع بين الثقافة العربية الإسلامية والثقافة الفرنسية الغربية، ومؤلفاته فى الثقافتين كثيرة، ويقول دائما: "يجب أن تفهم نفسك

أولا قبل أن تفهم الآخرين". ويفسر ذلك: "حين تتلقى ثقافة أجنبية دون أن تعرف ثقافتك وما فيها فإنك ستقبل كل ما تعطيه لك الثقافة الأجنبية، ولو كان ضد مصلحتك ومستقبلك، وقد يكون لديك البديل الذى لا تراه. وهذه مشكلة كثير من النخب العربية والإسلامية".

لحسن الحظ كانت المحاضرة الأولى هذا الصباح المشمس الدافئ للدكتور عمارة. إنه يدرس لنا مادة الشعر الفرنسى، ونحن نتذوقه، ونجد فى شرحه مَعِينًا لا ينضب من الوعى بكبار الشعراء الفرنسيين، ونتعرف على صورهم وأخيلتهم وبناء قصائدهم، ونتنافس فى ترجمتها، وكثيرا ما منح بعضنا جوائز عينية يخصصها من ماله لأفضل ترجمة يقوم بها الطلاب.

سأله أحدنا اليوم عن الاحتفال بالحملة الفرنسية أو "العلاقات الثقافية بين فرنسا ومصر" كما سماها الدكتور مختار. ابتسم فى هدوء، وقال مازحا:

– تريدون أن تفتنوا بينى وبين الدكتور مختار؟

قال طالب بحمية الشباب:

– نريد أن نعلم الحقيقة!

رد بسماحة أبوية:

– وأنا معكم من أجل معرفة الحقيقة.

وأضاف:

– علينا أولا أن نتناول موضوع المحاضرة، وبعدها أتحدث معكم عن الاحتفال بالحملة الفرنسية.

أسلوبه بسيط وسهل. يوضح الفكرة بسلاسة، ويسأل إن كان هناك استفسار أو سؤال حول ما يقول، ويظل يتابع عرضه مستعينا بالكتابة والتخطيط على السبورة، ويطلب من الطلاب مشاركته فى القراءة، وترجمة بعض الجمل

والمصطلحات والتراكيب، حتى تنتهى المحاضرة ونكون قد استوعبناها جيدا. "بقيت دقائق على انتهاء المحاضرة. سأجيبكم على سؤالكم عن الاحتفال بالحملة الفرنسية". قال ذلك ثم التفت إلى الطلاب الذين رفعوا أيديهم طلبا للكلام، وأشار إليهم:

– انتظروا قليلا. والمكتب مفتوح إن لم تسعفنا المحاضرة.

وراح يجيب عن السؤال الذى طرحه الطلاب بصورة مبسطة معتمدا على التسلسل التاريخى:

– جاء نابليون ليحتل مصر ويتحكم فى مفرق الطرق الذى يوصل بريطانيا إلى الهند.

قاطعته طالبة فى المقاعد الأمامية:

– لم يكن يقصد احتلال مصر.

– لقد جاء ليقيم بمصر. حاول خداع المصريين حيث زعم أنه مسلم مثلهم، وجاء ليقضى على المماليك، الذين يظلمون المصريين.

– "هل صدّقه المصريون؟". هتفت طالبة أخرى.

– لم ينخدع المصريون، وراحوا يقاومونه، فقاتلهم بوحشية غير مسبوقة. وكان يملك اختراعا جديدا هو البارود، فراح يطلقه عبر المدافع. كان المماليك والعثمانيون وأولاد البلد لا يملكون غير الأسلحة التقليدية: السيوف والرماح والسهام والعصى. ولكن اختراع نابليون حسم المسالة. وبعد مقاومة عنيفة فى الإسكندرية ورشيد ودمنهور وبولاق وإمبابة والريدانية (العباسية) والأزبكية انهارت المقاومة، وكان الحصاد داميا أسفر عن ثلاثمائة ألف قتيل من المصريين.

التقط أنفاسه، وبدا حزينا وهو يسرد تفاصيل الجريمة الفرنسية التى اقترفها السفاح نابليون وجنوده:

– كان سكان مصر يومئذ مليونين ومائة ألف. نقص عددهم مقدار السبع، وهم من أبادهم الغازى المحتل. قام الجنود بنهب القصور والبيوت والمتاجر، وأخذوا الحيوانات والحبوب والطيور، واغتصبوا النساء، واستولَوْا على حُلِيّهن. والأدهى من ذلك: دخلوا الأزهر، وربطوا خيولهم فيه، وحولوا محرابه إلى مكان لقضاء الحاجة!

وتوجه بسؤاله إلى الطلاب:

– ما رأيكم فى نابليون وفرنسا؟

صمت الطلاب وكأن على رءوسهم الطير. قال أحدهم وهو يشعر بدهشة مما يسمع:

– علمونا فى التاريخ أن الحملة الفرنسية سبب نهضتنا الحديثة. ما تقوله الآن يقدم لنا شيئا آخر!

قال طالب آخر بانفعال غاضب:

– هذا الكلام يؤكد أن الفرنسيين قتلة، ودخولهم الأزهر بخيولهم وقضاء حاجتهم فى محرابه يثبت أنهم همجيون!

هتفت طالبة من آخر المدرج فى غضب واضح:

– الفرنسيون استعماريون، ولو كانوا يملكون أحدث الأسلحة وأعظم أدوات الحضارة! وقد قتلوا مئات الألوف من شعب الجزائر الشقيق، ومَحَوْا لغته العربية، وحاربوا إسلامه وثقافته!

قال الدكتور عمارة، وهو يحاول أن يهدئ من انفعالات الطلاب التى عبر عنها من علقوا على كلامه:

– يا أبنائى، يجب علينا الآن وفى كل وقت أن نلوم قصورنا قبل أن نلوم أفعال المعتدى. العالم لا يعترف بالضعفاء والمتخاذلين. عليك أن تأخذ بالأسباب،

وأن تملك كل عناصر القوة التى فى حوزتك وتنميها بالعلم والبحث والمعرفة، وقبل ذلك بالشورى والحوار. وقد كنا زمنَ الحملة فى حضيض الضعف والانهيار. أجل، كانت هناك بوادر لبناء القوة فى مجال العلم والمعرفة فى الأزهر الشريف قادها أعلام الثقافة الإسلامية يومئذ، مثل الزبيدى والبغدادى والجبرتى الكبير، ولكن الحملة العسكرية لنابليون أجهضتها.

سأله طالب:

– كيف؟

– قام بعض العلماء الأزهريين بثورة ضد المماليك، وأوقفوهم عن الظلم والجور والنهب، وراحوا يبشرون بنهضة علمية وحضارية، ولكن حملة نابليون الدموية أجهضتها، ونكلت ببعض هؤلاء العلماء، وحولت وجهة بعضهم الآخر قهرا من خلال ما سماه نابليون بـ"الديوان".

قال آخر:

– لكن مُحَّد على أسس لنهضة قوية.

– وجد الفرنسيون فى مُحَّد على، ذلك الجندى الألبانى المستبد الجاهل كما وصفه الإمام مُحَّد عبده، بضاعة جيدة ومناسبة بعد أن اختاره العلماء لحكم مصر، فحركوه ليحقق أغراضهم الاستعمارية، وهيأوا له أن يبعث الأزهريين إلى باريس من أجل العلم، فعاد كثير منهم ابنا مخلصا للثقافة الفرنسية المعادية للإسلام وثقافته. وصار لدينا تعليمان: الأزهر المحاصر، والمدنى الذى لا علاقة له بالإسلام!

كان الدكتور عمارة قد تجاوز وقت المحاضرة، وجاء المحاضر الذى يليه، فوعد الطلابَ باستكمال الموضوع فى المحاضرة القادمة، وسمح لمن يريد منهم أن يأتى إلى مكتبه لاستكمال الحوار. تمنيت أن أكون مثل الدكتور عمارة فى ثقافته وتأثيره على الطلاب واعتزازه بنفسه. دخلت مكتبه ذات يوم، وكان هناك بعض

الطلاب، فرأيته يصلى على سجادة افترشها فى أحد الأركان، وبعد أن انتهى من الصلاة سمعته يردد بتنغيم وتجويد: "إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا". حين انتهى قلت له:

– تقبل الله يا دكتور.

– منّا ومنكم.

– لم أتعود على الصلاة للأسف!

– لماذا، وأنت طالبة نابهة؟

– بصراحة: لم أجد أحدا فى بيتنا يصلى!

– الصلاة عماد الدين: من أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين. هكذا يعلمنا الرسول ﷺ.

ردد الطلاب ورددت معهم:

– صلى الله عليه سلم.

كثير من زميلاتى بنات الطبقة الغنية لا يعرفن شيئا عن الدين. كتاب "التربية الدينية" فى الإعدادى والثانوى لم يكن أبدا له حضور فى دراستنا أو اهتمامنا. نتذكره ليلة الامتحان. ننظر فيه نظرة عابرة، ثم ننجح جميعا فى المادة. المعلمون الذين يدرّسون لنا فى الإعدادى والثانوى ينتظرون حصة الدين لتدريس موادَّ أخرى يستدركون ما فاتهم. مادة "التربية الدينية" لا تضاف إلى المجموع، وهى المادة الوحيدة التى لا يذهب فيها الطلاب إلى الدروس الخصوصية! المدارس الجديدة ليس فيها مساجد. معظم الطلاب لا يعرفون شيئا عن الدين، أما الذى

يعرف فالفضل يرجع لوالديه أو أسرته. وهناك معلومات خاطئة يفهمها بعضهم نقلا عن بعض أشباه المتدينين. سمعت من يفسر زيادة الحوادث البشعة فى البلاد بين الأقارب والجيران وأهالى المنطقة الواحدة من قتل وخيانة زوجية وسرقات ونصب واحتيال ورشوة واختلاسات وغيرها بعدم وجود الدين فى قلوب الناس وسلوكهم، وسيطرة التدين الشكلى.

كل هذا لا يعنينى أنا شهيرة التى تريد أن تحقق الأولوية فى الليسانس، وتصل إلى وظيفة معيدة بالقسم وتتأهل لتكون دكتورة، ولكنى مكسوفة من الدكتور عمارة. حاولت أن أدافع عن نفسى وعدم صلاتى دفاعا قويا. لم أستطع أن أقول كل ما أعرفه عن عدم تعليم الدين فى مدارسنا، وانهيار المجتمع، وقسوة معظم الناس. اندمجت مع زملائى فى أسئلتهم حول مادة الشعر، التى راح الدكتور عمارة يجيب عليها بصبر وأبوة".

فانظر فى أول هذا النص إلى وصف الطبيعة داخل حرم الجامعة، وكيف يتناغم وسياق الأحداث ومشاعر النفوس، وكذلك كيف يمضى الأسلوب ناعما سلسا حيا موحيا. وانظر كذلك إلى الحوار بين الطلاب وأساتذتهم على اختلاف توجهات الأساتذة وكيف يعرض المؤلف أفكار كل أستاذ وطريقته فى الإجابة على أسئلة الطلاب بيض القلوب أو تهربه منها والتوائه بالكلام والفكر حينئذ على نحو معيب وقمىء لا يليق باحترام الذات والوطن والأمة والدين. والحوار فوق ذلك مملوء حيوية ورشاقة فلا يطول كلام أحد المتحاورين عن شركاء الحوار أو لا يطول كثيرا بحيث يصير الحوار آسنا مملا. ويجد القارئ فى الفصل الخامس من كتابى: "فصول من النقد القصصى" انتقادا لتوفيق الحكيم فى رواية "عصفور من الشرق" حين نَسِىَ نفسَه فترك إيفانوفيتش العامل الروسى المهاجر إلى فرنسا ينخرط فى حوار مع محسن يظل يتكلم فيه صفحات دون أن يفكر محسن فى مقاطعته أو

التعليق على شيء مما قاله أو حتى فى التنحنح كما نفعل جميعا ونحن نستمع إلى غيرنا حين يتحدثون، وكأنه لم يكن يحاور محسنا بل كان يحاضره أو يخطب فيه.

وبمناسبة الحوار وانصراف الطلاب عن الموضوع الذى كانوا يناقشونه مع أستاذهم وانشغالهم بدلا منه بما تعرض السلطات الفرنسية عمله مع المتفوقين منهم من تسفير بعضهم إلى باريس وإرسال الباقين للاستمتاع بالتصييف فى الساحل الشمالى على حسابها، بمناسبة هذا الأمر أذكر ما سمعته عن رواد جامع الشيخ كشك فى سبعينات القرن الماضى حين تجمعوا أمام المسجد بعد إحدى خطب الجمعة القوية بغية التظاهر ضد الحكومة بناء على ما سمعوه فى الخطبة يومذاك، ففوجئوا بعربة نصف نقل مملوءة بأطباق بيض ينادى العتّال عليها بسعر جد رخيص، فما كان من الجمهور المتحمس المشحون إلا أن ترك ما كان ينويه من التظاهر والهتاف وأقبل على شراء البيض وحمل ما اشتراه منصرفا إلى بيته فرحا بالصفقة الجميلة. وبهذا نجحت الخطة التى وضعتها إحدى الجهات الرسمية فى الدولة لصرف المصلين عن التظاهر بصنعة لطافة.

وانظر كذلك إلى عرض القضايا الخطيرة بكل هدوء وتلقائية ودون أى افتعال، وإيراد وجهات النظر المختلفة فى سلاسة ودون زعيق أو تشنج من المتحاورين، أو إدانة أو انحياز من المؤلف إلى أى طرف من الأطراف. وانظر إلى تدسس الرواية إلى أعماق شخصية شهيرة وإبراز أفكارها وآرائها ومواقفها فى انسيابية وطبيعية. وانظر، وانظر، وانظر... وإن كنت آخذ على الرواية هنا أن المؤلف ينطق فى بعض الأحيان بلسان شهيرة. فشهيرة مثلا لم تكن آنذاك تهتم بالدين وكأنها لا يربطها بالإسلام رابط، ومع هذا نسمعها تأسى على إهمال المدارس لحصة الدين وكتابه المقرر ولامبالاة الطلاب بوجه عام به وعدم اهتمام الأهل بتعليم أولادهم أموره. وهو ما يعد اضطرابا فى رسم هذا الجانب من

شخصيتها. ومع هذا يستطيع من يحب الجدل أن يقول إنها فى ذلك لا تختلف عن كثير من المسلمين فى غرامهم بالشقشقة إظهارا لاهتمامهم بالدين، فى حين أنهم فى الواقع لا يهتمون بالعمل تبعا لمبادئه العظيمة إلا فى أضيق نطاق. لكن من السهل الرد على ذلك بأن الرواية لم تضع هذه النقطة نصب عينيها حتى نقول إن الكاتب قد أراد أن يصمها بهذا العيب، ومن ثم لا معنى لهذا الجدل.

ومن القضايا التى عالجتها الرواية أيضا قضية شركات توظيف الأموال التى كانت تضحك على المصريين وتستولى على فلوسهم من خلال إطماعهم فى المكاسب الهائلة السريعة، ثم تعطيهم أرباحا لمدة شهرين أو عدة أشهر، ليختفى المسؤولون عنها أو يهربوا بما جمعوه من ثروات حرام إلى الخارج تاركين المواطنين المخدوعين فريسة للسكر والضغط والذبحة الصدرية فى غير قليل من الأحيان. ثم تأتى الدولة بعد خراب بصرة، مع أنها كانت ترى وتسمع كل شىء منذ البداية لكنها تعمل أذنا من طين وأذنا من عجين، فتستولى على الشركة من هؤلاء وتعطى أصحاب الأموال المخدوعين بعضا ضئيلا من أموالهم، وبطريقة تكمل الإجهاز عليهم.

ولنقرأ ما تقوله الرواية فى هذا الصدد. والكلام على لسان شهيرة، والحديث عن أبيها وطمعه الذى غشى على بصره. وفى الأمثال الشعبية: "غلطة الشاطر بعشرة". أما فى الأمثال الأوربية فيقولون عن نقطة الضعف الخطيرة عند الشخص: "عَقِب أَخِيل" (Talon d'Achille Achilles' heel,)، والمقصود بذلك نقطة ضعف فى جسد الشخص قاتلة إن أصيب فيها انتهى أمره إلى البوار رغم كل ما يتمتع به من قوة خارقة. وهذا المثل يشير إلى أخيل بطل "إلياذة" هوميروس، وكان محاربا شجاعا لا يهزم، بيد أنه كان فى عقبه نقطة ضعف إن أصيب فيها سقط وكانت هزيمته مدوية، وهو ما حدث له فى حرب طروادة، إذ ركز أعداؤه على

تلك النقطة وصوبوا سهما إليها، فكانت النهاية. ونقطة الضعف هذه هى الموضع الذى أمسكت به أمه وهى تغطِّسه فى ماء يحمى من يُغْمَر فيه من الأذى، فصار جسده كله قادرا على الصمود فى وجه الأخطار ما عدا ذلك الموضع الصغير من عقبه لأن الماء لم يصل إليه. وهل هناك نقطة ضعف عند والد شهيرة أشنع من شراهته للمال، وبخاصة حين تغريه بذلك امرأة جميلة شهية بيضاء شبه عارية وتلوح له بالإيصالات التى تدل على ما كسبه الآخرون من المشروع الذى تعرضه عليه وتغريه بالمشاركة بأمواله فيه؟ لقد وقع "كالجردل" كما يقولون.

تقول شهيرة واصفة كيف بدأت الحكاية بوعود معسولة وأساليب دلال أنثوى تُسِيل لعاب أشبع شبعان، وكيف انتهت إلى كارثة هدَّت حَيْل أبيها هَدًّا وجعلته شبه حطام: "مَنْ هذه السيدة الجميلة التى ترتدى ملابس فاخرة، وتزهو بنفسها وشعرها الأشقر الطويل ونظارتها السوداء التى تغطى عينيها، وتحجب جزءا من وجهها الأبيض الناصع؟ ترتدى فستانا قصيرا فوقه سترة صوفية شبكية، وتطلق ذراعيها العاريين فى الهواء الطلق لتبرز نصاعة بشرتها، ولدانة جسمها، وإيحاءه المثير! أقبلت السيدة على المحل الذى يقف فيه أبى، وألقت عليه السلام، وقدمت له نفسها بوصفها قريبة أحد التجار فى منطقة بولاق. كان أبى يعرف عددا من التجار هناك، وعقد مع بعضهم صفقات صغيرة نوعا ما كبرت بعد ذلك وحققت أرباحا لا بأس بها شجعته على تكرارها، ووفرت له عائدا ومدخرات جعلته فى مصاف كبار الأغنياء فى الحارة. قالت المرأة الجميلة لأبى:

– لدينا مشروع مربح.

– كيف؟

– نتاجر فى المسامير، وتعتمد علينا محلات الجمهورية فى الوجهين: القبلى والبحرى.

– هل لديكم مصنع؟

– نشترى من المصانع الكبيرة والصغيرة التى تنتج المسامير، ونوزع على تجار المحافظات بتسهيلات مغرية.

– اسمحى لى أن أسأل سؤالا ضروريا.

قالت بدلال وابتسامة ذات مغزى:

– تفضل.

– هل أستطيع أن أعرف من أنتم؟

قالت فى جدية مصطنعة:

– بالطبع. نحن مجموعة من الشركاء، وشركتنا مسجلة فى الشهر العقارى.

– وأين مقركم؟

راحت تصف له المكان فى بولاق من خلال الشوارع التى يعرفها أبى منذ كان مع جدى فى المنطقة، ويرافقه إلى التجار فى عقد صفقاته المتنوعة. وأضافت:

– هذه هى علامتنا التجارية على مكاتباتنا.

وأخرجت بعض الدفاتر المطبوع على أعلاها وفى الزاوية اليمنى منها اسم شركة "مكة المكرمة لتجارة الحدائد والمسامير"، وتحت الاسم عنوان الشركة، وأرقام الهواتف الأرضية والمحمولة. سأل أبى سؤالا آخر:

– وكيف يتم التعامل مع الشركة؟

– نحن ندفع أرباحا بنسبة مئوية من مبلغ المشاركة.

– كم تبلغ النسبة؟

– عشرون فى المائة.

أبدى تعجبه ودهشته:

– إنها نسبة كبيرة.

فعلقت على ذلك قائلة بما يثير المزيد من التعجب والدهشة:

– وندفعها مقدما.

كأنه لا يصدق ما تقول فاستوضحها:

– حقا ما تقولين؟

أخرجت من حقيبتها إيصالات تسديد الأرباح، وعرضتها عليه:

– اقرأ: هذه إيصالات التسديد موقعة من أصحابها.

سال لعابه، وحسب الربح الذى سيدخل إليه دون أن يبذل جهدا إلا تسليمها رأس المال، فوجده كبيرا، ويتجاوز أضعاف ما يجنيه من المحلين: الأعلاف والخضراوات. ويبدو أن المرأة الجميلة قد استطاعت إقناعه، فشرب كأس السحر، وقرر المشاركة بمعظم ما يدخره فى البنك، وحدد لها موعدا ليسحب المدخرات ويسلمها لها. كان المبلغ كبيرا، وعائده كما أقنعته الجميلة كبير أيضا. فى أول الشهر التالى جاءت الجميلة ومعها الأرباح التى أسعدت أبى، وجعلته يحلم بثروة كبيرة ستتحقق فى وقت قصير، وراح ينتظر الشهر التالى.

...

سألت أبى عن حالة القلق التى يبدو عليها فى الفترة الأخيرة، وهل حدث بينه وبين زوجى ما يزيد من حنقه وغضبه؟ قال باستسلام يائس:

– ليت الأمر كذلك.

– إذن ماذا هناك؟

– تحويشة العمر ضاعت!

– ماذا؟ ماذا تقول؟

قلتها وأنا فى جزع قاتل.

– المرأة...

– أية امرأة؟

– المرأة التى جاءت قبل شهور، وأخذت المال.

– تقصد السيدة التى كانت تحدثك عن المشاركة بربح كبير؟

– نعم!

– ولكنها جاءت بالأرباح أول شهر؟

– انقطعت بعد ذلك.

– ألم تبحث عنها؟

– بلى. حَفِيَتْ قدماى. ذهبت وبحثت فى بولاق كلها عند من أعرف ومن لا أعرف، وشاركنى جدك فى البحث، ولكن دون جدوى.

- عنوانها كان معروفا لديك؟

– كان مثبتا على أوراق الشركة التى زعمت أنها قائمة فى العنوان المذكور.

وأردف:

– عندما ذهبنا إلى هذا العنوان وجدناه بيتا يسكنه عدد من الأسر البسيطة. سألناهم عن الشركة والسيدة المذكورة، فعلمنا منهم أن عددا من التجار والموظفين جاءوا ليسألوهم السؤال نفسه، وكل منهم له مبالغ كبيرة.

– وماذا ستفعل الآن؟

– لا أدرى. فقد قدم عدد من الضحايا بلاغات إلى الجهات المعنية، ولكنهم لم يصلوا إلى شيء.

- يجب أن تنهض وتقدم بلاغا. وعندما يقبضون عليها يكون لك الحق فى استرداد أموالك.

أشاح بيده، وقال:

– لا أظن أن هناك أملا فى استعادة شيء!

– لا تيأس من رحمة الله.

– المصائب لا تأتى فرادى.

– فلتحمد الله على صحتك، وكل شيءيمكن تعويضه.

لأول مرة تبدو الهزيمة قاهرة وسافرة على جبينه. لم أره من قبل فى مثل هذا الوضع المأساوى الحزين. كان دائما أقوى من المشكلات، يتحداها ويتجاوزها وهو شامخ راسخ مهما كان على خطإ. إنه الآن يعيش انكسارا غير مسبوق، فقد غامر بدفع كل رصيده إلى هذه المرأة المحتالة. لم يتروَّ، ولم يسأل أحدا من معارفه فى بولاق عنها، ولم يكلف نفسه عناء الذهاب إلى مكان الشركة المزعومة ليتحقق من وجودها أو عدمه. اندفع من أجل الربح الكبير الذى كان طُعْمًا مغريًا له، وظن أن الإيصالات وتوقيعات الآخرين تكشف سلامة ما تقوله المرأة المحتالة التى أطلقوا على أمثالها تسمية ساخرة: "مستريحة" مقابل ما يطلقونه على أمثالها من الرجال "مستريح". إنها سخرية الشعب المقهور وهو يعالج تقصيره وسذاجته التى تسمى أحيانا بـ"الطيبة وحسن النية".

قلت فى نفسى: أما كان الأجدر بأبى أن ينشئ بمدَّخَراته شركة حقيقية مع والده وإخوته تنتج بضاعة مفيدة تنفع المجتمع أو يمكن تصديرها، ويفيد منها عمال وموظفون وغيرهم، ثم يربحون منها الرزق المقسوم؟ لماذا أودع رصيده فى البنك دون عائد ذى قيمة، ولم يفكر فى مشروع ذى عائد يفيد منه أكبر مجموعة ممكنة من الناس؟ إن تحريك الأموال أمر مهم لخدمة المجتمع، وكنزها لا يفيد أحدا حتى أصحابها. وأَنَّى لأبى أن يفهم ذلك؟ بل أنّى لكثير من الناس أن يدركوا وظيفة المال فى خدمة المجتمع كله؟

سمعت بعض المحاضرين فى الندوات الثقافية بالكلية يقول إن الأوصياء على أموال اليتامى يجب أن يقوموا بتشغيلها لئلا تأكلها الزكاة. أى إن بقاءها مالا

مكنوزا يجعل الزكاة تقللها وتستنزفها، وهو ما يوجب تشغيلها لتربح وتكسب ثم تخرج منها الزكاة التى تطهر المال وتزكيه وتنميه.

أبى لم يخرج زكاة أبدا مع أنها حق معلوم للسائل والمحروم، ولم يقدم صدقة لفقير أو محتاج مخافة أن ينقص ماله، والحديث الشريف يعلنها صريحة: "ما نقص مال من صدقة" إذا كان المال يمضى فى طريقه المعهود بتشغيله وإفادة الناس منه فى التجارة والصناعة والزراعة وغيرها. كنت أريد أن أقول له: ادفع حق الله وستجد الرزق المقسوم: "وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ"، وأقرأ له قوله تعالى: "أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ". ولكن أبى، ومثله كثيرون، يعتقدون أن كنز المال وعدم الاقتراب منه سيضمن لهم الأمان والطمأنينة. وها هى الست المستريحة تنسف كل شيء، وتَذْرُوه فى عالم المجهول، ولم تبق إلا الحسرة والأسى والقهر الذى لا يبرح النفس والصدر. صدق الله إذ يقول: "إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ * وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ". تشغيل المال يفيد صاحبه، ويفيد المجتمع، ويوفر فرص عمل للشباب. والزكاة تطهر المال وتزكيه وتنميه، وتنشر الخير فى كل مكان.

بيد أنى لا أستطيع أن أحدثه عن شيء من هذا، فهو يحب المال حبا جما، ويعتد برأيه فلا يستشير أحدا ولا يسأله النصيحة. حتى فى علاقاته الاجتماعية يبدو حادا وانفعاليا ومتسرعا فى قراراته، وهو ما حدث مع محمود ومخلوف، ومع زوجى أيضا حيث يحاول أن يتعامل معه بمنطق السيد الآمر الذى ينبغى أن يطيعه العبد المأمور، وينفذ كلامه بلا ترد، وهو ما وضعنى فى مأزق صعب لا أعرف كيف أخرج منه أو أتفادى مضاعفاته".

وثم قضية مهمة أخرى تعرضت لها الرواية قرب نهايتها حين تخرجت شهيرة ولم تستطع أن تجد مكانا لها فى أية مدرسة، وتطورت الأمور إلى تفكيرها فى إنشاء مركز للدروس الخصوصية. تقول بطلة الرواية: "حفيت قدماى من اللف على المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية. لم أجد من يعطف علىَّ أو يقول لى: لدينا وظيفة. كلهم يقولون: عودى إلينا فى أول الإجازة الصيفية، والمرتب حسب الاختبار والخبرة. علىَّ أن أنتظر نحو عام كامل حتى أجرب حظى مع هذه المدارس التى تسعى إلى امتصاص دماء التلاميذ والمدرسين جميعا. عصر الأخذ دون العطاء، واستغلال الحاجة إلى العمل أو المال لفرض الاستسلام وإملاء الشروط. قال لى أبى:

– المحل يحتاجك، فلا تشغلى نفسك بالوظيفة.

قلت له بعزة نفس:

– إن معى شهادة، ويجب أن أعتمد على نفسى.

– وهل العمل فى المحل يعيب؟

– كلا. ولكننى أريد أن أشعر باستقلال ذاتى، ويكون لدىَّ دخل خاص.

– على كل حال لك ما تشائين، والمحل موجود فى كل وقت.

فى المحل التقطت فكرة، وأخذت أرددها فى داخلى. جاءت إحدى السيدات لتشترى شيئا، وطلبت منى أن أساعد ابنتها فى الشهادة الإعدادية بشرح دروس الإنجليزى لوجه الله، فهى فقيرة، والدروس استنزفت ما معها من نقود. وَعَدْتُ أن أساعدها بعد فترة أرتب فيها أمورى على أمل أن أجد وظيفة ما. ولكن الفكرة بدأت تأخذ مسارا آخر. ماذا لو أنشأت مركزا للدروس الخصوصية (يسمونه: "سنتر")، وأجعل المقابل المادى معقولا وأقل من المراكز الشهيرة التى يتزاحم عليها الطلاب؟ يمكن أن أستعين ببعض زميلاتى لندرّس

الإنجليزية والفرنسية للبنات فقط. وقد يتم التوسع فى المركز فيما بعد والاستعانة بزميلات فى تخصصات أخرى، ونقرر تخفيضا أو إعفاء خاصا للفقراء والمحتاجين.

الدروس الخصوصية وباء يضرب أعماق البلاد. المدارس خالية من الطلاب، والمدرسون الرسميون مشغولون بالدروس الخصوصية فى البيوت أو السناتر، ووصلت المغالاة فيها إلى حد كبير. والوزارة المسؤولة تتحدث كثيرا عن تطوير التعليم، وكل فترة يقررون أمرا، ثم يغيرونه. تتغير الكتب والمناهج والامتحانات، ويكثرون من الكلام عن الحفظ والتلقين والفهم والاستيعاب، والنتائج فى كل الأحوال صفرية. الطالب الذى لا يحضر فى المدرسة لا يمارس النشاط الاجتماعى ولا الثقافى ولا الفنى، فضلا عن النشاط الرياضى. كيف يكون إنسانا سويا؟

فى ندوة عقدتها الكلية قبل عامين حول تطوير التعليم الأساسى سألت أحد المحاضرين:

- كيف يكون الطالب إنسانا سويا، وهو لا يلتقى بزملائه فى الملعب ولا يجتمع بهم فى نشاطات ثقافية أو فنية أو اجتماعية أو رحلات أو مسابقات؟

أعجب المحاضر بالسؤال، ولكنه لم يجب الإجابة الحقيقية. ظل يلف ويدور حتى قال زميل لى للمتكلم على المنصة:

– يا دكتور، اسمح لى. فى الثانوى لا نكاد نعرف بعضنا. أعنى طلاب الفرقة أو الفصل. حتى طلبة السنتر لا يعرفون بعضهم بالاسم، وإن كانوا يعرفون الوجوه والملامح.

رد أحد المحاضرين فى شبه اعتراف خجول:

– لاريب أن الخلل فادح، وأن التجارب المتوالية القائمة على تقليد الآخرين دون مراعاة الواقع وتفضيل أولويات أخرى على التعليم جعل التعليم الموازى، الذى هو الدروس الخصوصية، حقيقة واقعة.

هكذا انتهى المحاضر فى كلامه، وإن كان زميل له فوق المنصة يسعى أن يرضى السلطة المسؤولة عن التعليم كى لا يؤاخذه أحد. قال زميل آخر من زملائى معقبا:

– هناك حل سهل: أن نعود إلى نظام التعليم فى العهد الملكى، ونضيف إلى الكتب ما استجد من نظريات وأفكار طوال العقود الماضية، ونحسن استخدام ميزانية التعليم، ونشجع التعليم الأهلى الذى لا يبغى الربح وتقوم به الجمعيات الخيرية أو الأهلية. ثم نرفع مرتبات المعلمين الممتازين، ونعزل الضعفاء ومن يعملون بالدروس الخصوصية.

ضحك المحاضرون، وقال أحدهم للزميل:

– هذه ثورة تقلب البلد رأسا على عقب!

بالطبع لم يحدث أى تغيير بعد هذه الندوة، ولا بعد أى مؤتمر حول تطوير التعليم. المسألة كلها كلام فى كلام، وكل مسؤول يأتى ينفذ نظاما أو يحدث تغييرا له مضاعفاته ومتاعبه دون أن يستشير أو يتحاور مع المتخصصين".

ومما تتميز به هذه الرواية بين روايات هذه الأيام بالذات خلوها من البذاءات، ومناظر القبح والنتانة، ومشاهد الجنس، بله الإغراق فى تفاصيله بحجة أن العمل القصصى يقتضى ذلك، وكأن الرواية لا تكون رواية إلا إذا اقتحمت غرف النوم وأمسكت بمصورة وهات يا تصوير للعملية الشهوانية تصويرا حيا مرشوشا عليه الفلفل والبهارات والشطة السودانى، وكأن المشرحة ناقصة جثثا. لقد كان بإمكان المؤلف أن يتحفنا بشىء من وابل السباب المنحط الذى تبادله

أبو الفتاة مع زوجها وأدى إلى الطلاق، لكنه استعفَّ عن هذا واكتفى بالإشارة إلى أنهما قد تبادلا السباب المقذع، تاركا القارئ يتخيل هذا السباب وذلك الإقذاع. ولكى يدرك القارئ الكريم أبعاد ما أقول أذكر له أن من بين الروايات التى قرأتها فى السنين الأخيرة رواية تصف بالتفصيل ما صنعته إحدى شخصياتها النسائية فى الغرفة التى تسكنها فى إحدى الوكالات من إثارة شهوة قرد تسرح به فى الأسواق حتى إذا أوصلته إلى الذروة أخذته فى أحضانها ومارست معه الجنس. وثم رواية أخرى لم تصبر مؤلفتها كثيرا فانخرطت فى الصفحات الأولى منها مباشرة فى تصوير عملية جنسية بين امرأة وحمار أدى بها إلى الموت جراء عدم التلاؤم بين عضوى طرفى العملية. وثالثة لا يكاد القارئ يفرغ من صفحاتها الافتتاحية التى تعلن فيها الفتاة خريجة الجامعة لشاب اضطرت إلى المبيت معه أنها حريصة على عفتها وتريد أن تنام فى غرفة وحدها، وهو ما نزل عليه مضيفها، حتى سمع بعد قليل نداء من الحجرة التى تنام فيها أنها خائفة وتريد أن يكون معها أحد، ثم سرعان ما نراها وقد وهبت نفسها للولد الذى لا يقل عنها إجراما وصياعة يصنع بها ما يشاء ويتضح له ولنا أنها "بنت لَذِينَه" من الطراز الفاحش.

كذلك يلفت النظر فى الرواية أن المؤلف قد أنهاها نهاية حسنة، فتزوجت شهيرة فى نهاية الأمر على كل حال، ورحبت بالعودة إلى زوجها، الذى كان قد طلقها ضِيقًا بتصرفات أبيها وبذاءاته وتسلطه السخيف وتدخله فى أموره هو وزوجته، ورجعت معه إلى بيته ومعها ابنهما، الذى كانت قد ولدته لتوها. وكانت قد غيرت قبلا أسلوب حياتها وتدينت وعرفت ربها وأخذت تصلى ورضيت بنصيبها من الحياة وسعت إلى كسب رزقها عن طريق مركز تقوية للتلاميذ الصغار متقبلةً الفشل الذى مُنِيَتْ به وحَرَمَها التعيين فى الجامعة، ومتعايشةً معه فى سكينة وسلام. ولولا أن المؤلف لم يَسُق الأسباب الكافية لهذا التحول فى شخصيتها لقد

كانت نهاية الرواية على هذا النحو قمينة أن تكون إضافة قَيِّمة ومرحَّبا بها غاية الترحيب.

ومع هذا فقد يكون من رأى بعض النقاد أن فيما حدث لشهيرة من إخفاقات وخيبات تفسيرا كافيا لتدينها. فمن الناس من لا يعرف ربه إلا عند الشدائد. وشهيرة قد فشلت فى الحصول على وظيفة معيدة كما كانت تطمح وتأمل ويتطلع أبواها، وتخلت عن المعيد محمود، الذى صار بعد ذلك دكتورا جامعيا، فندمتْ ندامةَ الكُسَعِىّ، ثم خسر أبوها أمواله فى شركة وهمية لتثمير الأموال على يد امرأة لعوب أغرته بالمساهمة فى رأس مال تلك الشركة التى لا وجود لها مطمعة إياه فى أنه سوف يكسب كل شهر من الفلوس ما يجعل حياته منغنغة. وكان مخلوف، وأبوه أستاذ جامعى معروف وكاتب كبير، قد تركها نفورا من أبيها وتدخلاته وبذاءاته ونشوفة مخه وعناده دون وجه حق. ولم تفز من الحياة بعد ذلك كله إلا بشاب أقل منها تعليما وشهادة جامعية، وبخلع الضرس لأنه لم يتح لها من الشبان إلا هو. ويقال فى الحِكَم: "اليأس إحدى الراحتين". وأتصور لو أن أمورها تغيرت ورأت خطيبا آخر أفضل حالا لتركت زوجها أبا بنتها واقترنت بذلك الخطيب الجديد. وقد صورت الآيتان ٢٢– ٢٣ من سورة "يونس" هذا الطراز من البشر، فقال سبحانه: "هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ". لكن من الواضح أن المؤلف لم يشأ أن يجعل كل شىء فى الرواية قاتما، فهو فيما يبدو من أنصار القول بأن الحياة فيها جوانب طيبة كثيرة،

ولم يرد أن يسوِّد كل شيء، فأنهى روايته عند تحول شهيرة إلى الدين تستمد منه الراحة والرضا والطمأنينة.

وحتى لا يقول قائل إن هذا الذى أعلن سرورى به قد يكون أدخل فى باب الوعظ منه فى باب الفن الروائى أؤكد أن كثيرا من المنحرفين بل ومن عتاة المجرمين كثيرا ما يتوبون ويستقيمون ويفيئون إلى ربهم وينزلون على حكمه تعالى فى رضا واطمئنان. كل ما هنالك أننا كنا نريد من الرواية أن تجعل تديُّن شهيرة فى نهايتها أكثر إقناعا. وأذكر فى هذا السياق ما كان يدعو إليه اليساريون منذ عقود، أيام كان للاشتراكية فى العالم وفى بلادنا شنة ورنة، من وضع نهاية متفائلة للأعمال التى يؤلفونها حضا لفئات الشعب العامل، كما كانوا يسمون العمال والفلاحين والموظفين الصغار وأشباههم، على بذل الجهد تطلعا لتغيير حياتهم وظروف معيشتهم إلى الأحسن، ويسمون هذا بـ"الواقعية الاشتراكية" أو "الواقعية المتفائلة"، وهى الواقعية التى يليق فى نظرهم بالكتاب الاشتراكيين أن ينتهجوها بدلا من الواقعية الأخرى التى ينحو نحوها روائيو الدول الرأسمالية، وهى "الواقعية النقدية" أو "الواقعية المتشائمة". ومن هنا رأينا بعض النقاد الساخرين يسمون هذا "الأدب الهادف" (باصطلاح اليساريين) بـ"الأدب الهاتف"، أى الأدب الذى يعتمد على الصراخ والزعيق والتشنج بينما الأمر كله فى الواقع خواء من الداخل، فهو صراخ وزعيق وتشنج كاذب.

وبمناسبة ما نحن فيه الآن أذكر تمجيد بعض الكتاب اليساريين الشديد لـ"أيام" طه حسين جراء ختامها المتفائل، إذ انتهت بنجاح طه حسين فى تخطى عقبات حياته من عمى وفقر وغربة ودراسة فى جامعة أجنبية بلغة جديدة عليه وتتويج كل ذلك بالزواج من امرأة فرنسية، وبلوغه مكانة عالية فى الأدب وفى المناصب التى تولاها فى الجامعة وفى خارج الجامعة. وانطلق مديح هذا البعض

للكِتَاب من أنه عمل روائى مع أنه ليس رواية على الإطلاق بل ترجمة ذاتية، وهو ما يدل على أن بعض النقاد يقولون أى كلام والسلام، فضلا عن أن د. طه لم يضع فى ذهنه قط أن يجعل نهاية كتابه جميلة لأنه لم يكتب رواية يستطيع أن يتحكم فى أحداثها وشخصياتها حسبما يشاء بل سجل سيرته الذاتية كما وقعت ولا يتخيل شيئا من عنده. وفوق ذلك ثَمَّ كتّابٌ ومفكرون وأدباءُ لا يوافقون على كل ما أتاه طه حسين فى حياته بل يعترضون على أشياء كثيرة فيها. وهذا أمر معروف.

ومع هذا فنحن لا ننادى بتبييض صفحات الحياة كذبا وتدليسا كما كان يفعل الروائيون الاشتراكيون فى الاتحاد السوفييتى والدول التى كانت تدور فى فلكه، بل نريد تصويرا صادقا مع عدم الانسياق خلف النزعة العدمية التدميرية. ذلك أن الحياة، حتى فى أحلك لياليها وأشدها سوادا، لا تخلو أبدا من الجوانب المضيئة بل البراقة. وإذا كان الاشتراكى يدَّعى التفاؤل انخداعا بما كانوا يهرفون به من حتمية التاريخ، التى تقضى على سبيل اليقين الكامل بانتصار الاشتراكية فالشيوعية على أعدائها فى زعمهم، فكانت النتيجة أن زالت الاشتراكية والشيوعية وانهار الاتحاد السوفييتى وانهار معه العالم الاشتراكى كله على بَكْرَة أبيه وأمه والذين وضعوا بذرته، إذا كان الاشتراكى يَدَّعِى التفاؤل، وهو تفاؤل ليس له أساس، إذ كان العمال والفلاحون فى الدول الاشتراكية يُسْحَقون سحقا تحت أحذية رجال الحكم ومن يلوذ بهم ويشد من أزرهم فى ظلمهم ويلوّنه تلوينا زاهيا زائفا خادعا، فإن المسلم أحرى أن يكون أكثر تفاؤلا وأشد أملا، إذ هو يستند فى هذا التفاؤل وذلك الأمل إلى رحمة ربه وعقيدته فى تلك الرحمة، ويرن فى أذنه وعقله وقلبه وضميره قول إبراهيم عليه السلام: "ومَنْ يقنطُ من رحمة ربه إلا الضَّالُّون؟" وقول حفيده يعقوب ﷺ: "ولا تيأسوا من رَوْح الله. إنه لا ييأس من

رَوْح الله إلا القومُ الكافرون"، وقول مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام بناء على أمر الله له: "لا تقنطوا من رحمة الله"، وقول رب العزة لنبيه عليه صلاته وتسليمه: "فإنّ مع العُسْر يُسْرًا * إنّ مع العُسْر يُسْرًا".

وبعد فهذه رواية "محضر غش" بما فيها من حسنات ومآخذ. لكنها، مع ما أُخِذ عليها من ملاحظات، رواية قوية وجيدة رغم بساطة تركيبها، إذ تتكون من ضفيرة أو حكاية واحدة هى حكاية شهيرة وخُطَّابها الثلاثة، كما أنها تبدأ من أقصى نقطة فى الماضى وتظل تتقدم إلى الأمام لا تتعرج ولا تتراجع إلى الخلف ولا تقفز إلى الأمام فوق بعض الوقائع ثم تعود كرة أخرى إليها... وهى أفضل كثيرا جدا من كثير من الروايات التى وضعها روائيون مشاهير كجمال الغيطانى ويوسف القعيد وبهاء طاهر ويوسف زيدان وسلوى بكر ورضوى عاشور وإبراهيم الكونى والطاهر وطار وعبد الرحمن المنيف وعبده خال وعلاء الأسوانى ممن تنشط آلاتنا الإعلامية فى تلميعهم وتصويرهم على أنهم مبدعون عباقرة مع أن مواهب كثير منهم متوسطة، بل إن مواهب بعضهم بكل يقين محدودة وضئيلة. ولكنْ هكذا تجرى الأمور فى بلاد العرب الآن لشديد الأسف. وأخيرا يا ليت أحد المشتغلين بصناعة السينما يتنبه لتلك الرواية ويحولها إلى فلم سينمائى، وأنا حقيق أن ينجح هذا الفلم أيما نجاح.

اللحية التايوانى

لا أستطيع أن أتذكر أنى كنت يوما من الذين ينظرون إلى اللحية على أنها جزء من الدين: فرضا أو سنة، ولا أستطيع الآن أن أحدد السبب الذى كان يقف فى البداية وراء فهمى أو موقفى هذا. ولعل أول احتكاك لى بهذا الموضوع كان فى صباى، وذلك أن أخا أحد لِدَاتِى بالقرية كان له مطعم شعبى على قد الحال فى حى شبرا بالقاهرة، وكان يطلق لحيته، ويأتى إلى القرية فى المناسبات فأسمع الناس يصفونه بأنه "سُنِّىّ"، وإن كنت سمعت أيضا أنه يتعاطى الأفيون. وكان هادئا يميل إلى الصمت والسكون، وإذا تكلم فكلامه قليل وبصوت خفيض.

كذلك كان هناك تاجر عجوز صاحب دكانة صغيرة فى الحى الذى نقطنه فى القرية، وكل شىء فى شخصيته شكلا ومضمونا مُعَرْقَب، وكان يربى لحيته ويغشى المسجد عند كل صلاة، وقد يبقى بعد الصلاة فى المسجد ساعة القيلولة حيث يكون الجو أطرى منه بالخارج وفى البيوت. وكان متجهم الوجه عادة، ولا يطيق أن يرى الصغار فى المسجد ولا يتفهم أنهم لا يمكنهم الالتزام بما ينبغى أن يلتزم به الكبار، فهم أطفال ويحبون العفرتة، فكان يبكتهم ويعنفهم ويطردهم من المسجد لأنهم لا يوقرون بيت الله. وكان الأولاد يردون عليه التحية بأحسن منها فيقولون له: "يا ابو دقن خشب مليانة مسامير!" ثم يَعْدُون هاربين. ولا أدرى من أين أَتَوْا بهذه الصورة العجيبة. منهم لله!

وبالمناسبة فحين عدت أواخر عام ١٩٨٢م من بريطانيا بعد حصولى على الدكتورية ونزلت القرية لأرى أهلى قال لى كل من قابلته أول وصولى إن فلانا الطالب بالتعليم الفنى، الذى كانت تربطنى به صلة قريبة قد صار سنيا وأطلق لحيته، لأفاجأ بأن ذلك السنى لا يصلى أصلا، وكان يدخن رغم صغر سنه، ولا

أظنه كان يرى فى إطلاق اللحية شيئا دينيا. بل إنى أنا نفسى وأنا فى أكسفورد لدن وصولى إليها، وكانت زوجتى لا تزال فى القاهرة، قد تركتُ لحيتى من باب الملل والكسل تطول وتطول حتى صارت كثة وجعلت تأكلنى، فأهرشها كثيرا، وبخاصة لدى إخلادى للنوم ووضع خدى على الوساد. وكانت لحيتى أطول وأفظع من لحية كارل ماركس ذاته. تصور يا مؤمن! وقد قصَّرها لى بالمقص مشكورا قبيل وصول زوجتى أحد زملائى هناك ثم حلقتُها أنا بالمُوسَى بعد ذلك، فوجدت تحتها دمامل ناشفة عرفت أنها هى السبب فى رغبتى الشديدة فى هرشها قبل التخلص منها. وما زالت لدىَّ صورة لنفسى وأنا بتلك اللحية، وكلما نظرت إليها أَنْكَرْتُنِى إنكارا شديدا.

ولما كنت معارا لجامعة أم القرى (فرع الطائف) فى تسعينات القرن الماضى كنت بين الحين والحين أترك لحيتى لمدة يومٍ أو يومين دون حلاقة، فيهنئنى بعض الزملاء على إطلاقها، وكان ردى بأنى فعلت ذلك كسلا لا أكثر، ثم آتيهم فى اليوم التالى وقد حلقتها مستغربا هذه التهنئة على مجرد إهمالى حلاقة ذقنى يوما، وكأنى فتحت العالم وأعدت إلى المسلمين حقوقهم وعزتهم وكرامتهم واستعدت فلسطين عربية إسلامية وحصلنا على كأس العالم فى كرة القدم وأصبحنا أشهر وأغنى من مو صلاح. وكان من زملائنا من يخفف لحيته تماما عند نزوله إلى مصر فى إجازة الصيف، ثم حين يعود إلى السعودية يتركها تنمو حتى تعود مرة أخرى لحية معجبة مهيبة تملأ العين وتشع صلاحا وتقوى، باسم الله! ما شاء الله! فهم يؤمنون بما يقوله البلاغيون: "لكل مقام مقال"، ومن ثم "لكل بلد لحية"!

وبمناسبة ما نحن فيه أيضا من حديث عن اللحية وحكم إطلاقها أسوق الحكايتين التاليتين: فقد فوجئت، وأنا فى الإسكندرية منذ عدة عقود عند بعض معارفنا، بهم يتحدثون فى ضيق عن مطاردة أحد الضباط كل ليلة لابن من أبنائهم

مما دفع الولد إلى الهرب عند أخته المتزوجة فى حى آخر قريب. وبالسؤال عن سبب المطاردة قيل لى إنه قد أطلق لحيته، وهو ما لا يعجب الشرطة، فتطارده هو وأمثاله وتضيِّق عليهم وتُعْنِت حياتهم. وكان تعليقى أنه إذا كانت الشرطة تشبه الثور الغبى فى هيجانه ضد المنديل الأحمر الذى نمسك به فيهاجمنا وينطحنا ويؤذينا، فما أحرانا أن نكون نحن عقلاء وننحى المنديل بعيدا بحيث لا تقع عليه عيون الثور الأحمق الغبى، وبذلك نسلم من الأذى وتعب البال، رغم تسليمى بأحقية أى إنسان فى تربية لحيته. ثم أضفت أن إطلاق اللحية ليس بالركن الركين فى الإسلام، بل هو سنة، وسنة اجتماعية ليس إلا. وليس من الحصافة فى شىء أن أعرّض حياتى وحياة أهلى لكل هذا العنت والضرر فى سبيل أمر كأمر اللحية ليس له كل تلك الأهمية التى يظنها كثير من الملتحين. إلا أن الشاب المذكور رفض هذا الاقتراح قائلا فى نبرة حاسمة وعالية: "إن التشبه بالرجال فلاحٌ". يقصد طبعا أن الملتحين هم وحدهم الرجال، وأنه يريد أن يكون رجلا مثلهم. وفات هذا الأحمق أنه بهذه الطريقة يأخذنى فى الرجلين بوصفى غير ملتح، ومن ثم لا يصح أن أُعَدّ فى الرجال. بارك الله فى الحماقة والحمقى! أين أنت يا ابن الجوزى؟ فسكتُّ حين لم أجد لكلامى صدى فى نفسه. ثم عرفت أن ذلك الشاب، وهو حاصل على الإعدادية ويشتغل نجارا، لا يكمل أبدا عملا بدأه، وأن مواعيده كلها فاشوش، وأنه يعتمد بشكل كبير على معونة أمه، وأنه فوق ذلك يدخن، وأنه لم يبدأ عملا عند أحد الزبائن إلا وانتهى الأمر بخلاف مع العميل وترك بقية حقه لأنه لم يكمل العمل. وقد ضقت بهذا كله ضيقا شديدا لأننى أحب له ولأهله الخير والفلاح، وشعرت جَرَّاءَ ما عرفته من حقيقته المناقضة لمظهره ومقالته الفشنك المشهورة عن الرجال والتشبه بهم رغبة فى الفلاح بالاستغراب الشديد

والحاجة إلى القهقهة، فقهقهت، وأرجو أن تسامحونى على أنى قهقهت دون أن أستأذنكم، وهذا ليس من حسن الأدب.

أما الحكاية الأخرى فتتعلق بشاب طبيب أزهرى ملتح حديث عهد بالتخرج كنت أراه فى تلك الفترة كثيرا فى إحدى القرى التى كان لى اتصال بها، ونتحدث فى أمور الدين، فلاحظت منه اهتماما باللحية غير عادى باعتبارها أساسا من أسس الإسلام لا يمكن أن يكون هناك إسلام ولا إيمان بدونها. وكان رأيى ولا يزال أن إطلاق اللحية مسألة شخصية واجتماعية وأنها لا تمثل من الدين الحقيقى قليلا أو كثيرا، مع عدم إنكارى من الناحية المبدئية على من يرى خلاف ذلك، إذ هناك من يرى وجوبها أو على تقدير: سُنِّيَّتها. والشاهد فى هذا الكلام هو انبراؤه للتو واللحظة معلنا أن هناك سبعة عشر حديثا توصى باللحية، فرد أحد زملائه ممن كانوا حاضرين ذلك النقاش مصححا أن الأحاديث التى تحض على هذا أربعة وعشرون لا سبعة عشر. وهنا ضحكت قائلا: أَوَعَدَدْتُم أحاديث اللحية أيضا؟ بارك الله فيكم. ثم قلت للطبيب: أراك تقتنى كتب الصحاح وكتب الفقه كاملة وما أشبه، فى الوقت الذى لا أرى فى مكتبتك أى كتاب فى تخصصك. فهل هذا يصح؟ إن الله سائلك يوم القيامة عن عدم إتقانك لعملك وإهمالك التبحر فى تخصصك، ولن يحاسبك على أنك لم تكن فقيها ولا محدِّثا لأن هذا خارج تخصصك، بالإضافة إلى أن الفقهاء فى بلاد المسلمين أكثر من الهم على القلب.

ومن الطريف أننى ذات مرة كنت أحدثه عن وجوب زواجه بعدما تخرج ووجد وظيفة يعيش منها ويستطيع من ثم أن يفتح بيتا، فقال عند الكلام عن الشروط التى يتطلبها فى العروس إنه يريد فتاة أمية لا تستطيع القراءة ولا الكتابة. لماذا يا مولانا؟ لكيلا تكتب رسائل غرامية لأحد. فقلت له: وهل تظن أن الفتاة

الأمية لا تشعر بعاطفة ولا شهوة أو أنها تتحدث مع أمها الأمية مثلها طول النهار فى العقيدة والدين والأخلاق الفاضلة، ولا تعرف المراسيل الغرامية؟ إن البنت المتعلمة، على الأقل، قد حفظت بعض الآيات والأحاديث، ودخل دماغَها بعضُ المعلومات التاريخية والسياسية والجغرافية والرياضية والطبيعية والدينية مما يمكن أن تستعين به فى كلامها مع الآخرين بدلا من أن يكون كل حديثها عن العجين والخبيز والطبخ والزريبة والبهائم والجلَّة مما لا تحسن سواه الفتاة الأمية. ثم أردفت مداعبا: إن أمامك على الناحية الأخرى من الطريق بيتا يضم، فيما أسمع، خمس فتيات جميلات ومتعلمات أو يتعلمن، ومنهن خريجات جامعيات. فكيف لا تفكر فى خِطْبَة واحدة ممن تخرج منهن بدلا من الاقتران ببنت لا تقرأ ولا تكتب ولا تعرف الألف من كوز الذرة؟ ويبدو أن كلامى قد أثر وأثمر فى عقله، إذ سمعت بعد شهور أنه خطب واحدة من الفتيات الخمس الجميلات، ثم خطب أخوان له أختين من أخواتها. إلى هنا، والأمر عال العال. لكن الذى ليس بعال، فضلا عن أن يكون عال العال، أبدا أنه قد دعا لحفل الخطبة وحفل القران كل أمة لا إله إلا الله إلا العبد لله. ما رأيك أيها القارئ العزيز فى هذه الحدوتة؟ بالزيت أم ملتوتة؟

وبالمناسبة كنت أعرف بعض الصحفيين الذين يعملون فى جريدة تابعة لأحد الأحزاب المتشددة التى ترى فى اللحية والنقاب ركنين عظيمين من أركان الدين، ودائما ما يشكون أن إدارة الجريدة المتشددة يؤخرون رواتبهم بالأشهر، فضلا عن أنهم لا يسلمونها لهم كاملة بل بالحتة، بل قد يأكلون منها جزءا غير قليل، إلى جانب أنهم حتى ذلك الحين لم يعملوا على إلحاقهم بنقابة الصحفيين رغم عملهم عندهم لمدة عامين. بل إن الإدارة قد خفضت مرتباتهم إلى النصف دون أن تعلمهم بذلك مسبقا، وهو ما تكرر بعدها بشهور، إذ نزلت المرتبات إلى الربع. وليأكل الصحفيون الغلابى من تحت أرجلهم كما يحبون. وما المشكلة؟ ألا يكفيهم

أنهم يعملون خدما وعبيدا لدى جماعة الملتحين؟ وسع الطريق أنت وهو، فقد قامت الحرب الحاسمة على إسرائيل، ويا ويلها وسواد ليلها من اللحى وأصحابها!

وأخبرنى صحفى شاب يعمل معهم أنه كان يغطى مؤتمرا ما، فقابل هناك واحدا من مسؤولى الحزب الذى يصدر تلك الجريدة، فقرَّعه هو وزملاءه على أنهم لا ينشرون له صورا جميلة فخمة كالتى ينشرونها لفلان دائما. ثم جلس المسؤول على مكتب من المكاتب هناك وأمر صحفينا الشاب هو وزملاءه بالتقاط صور جميلة له تنشر مع أحاديثه وأخباره كفلان. ثم زاد فطلب من الصحفى المسكين أن يحمل حقيبته عنه ويتبعه. وقد ظن الشاب فى البداية أنه نوع من العشم الذى يتعشمه الأب فى أولاده، إلا أن المسألة طالت وباخت، والمسؤول الملتحى يتحرك هنا وهناك، والشابُّ حاملُ الشنطة يتحرك وراءه دون أن يكلف الرجلُ باله النظر خلفه إلى حامل شنطته أو توجيه كلمة له يطيب بها خاطره أو الاعتذار بأى عذر كاذب عما يجشمه إياه من إرهاق. وهنا غُلِب حمار الصحفى الشاب وبلغ به الاشمئزاز مداه، فطلب من الرجل الثقيل الظل أن يسترد شنطته. ولما جاءنى وروى لى الواقعة قلت له: إن هذا البغل يظن أنك، ما دمت تشتغل فى جريدة الحزب، فأنت عبد عندهم، وظيفتك حمل حقائبهم دون تذمر. ولأنه واحد من رجال الحزب وجب عليك فى نظر ذلك الأعمى البصيرة أن تشتغل خادما له دون أن تفتح فمك بنأمة اعتراض. ثم كيف نسيت يا أخى أنه ملتح، وأنت لا؟

وكنا ونحن بالجامعة نتناقش حول اللحية أحيانا، وكان رأينا أن الشيوعيين وزعيمهم كارل ماركس يربونها، وكذلك القساوسة والرهبان، كما كان كفار العرب يطلقونها. وعلى هذا لا يمكن أن تكون اللحية مظهرا دينيا، فضلا عن أن تكون فرضا لا بد من أدائه. ومن الواضح من هذا ومن الأحاديث التى تناولت هذا الموضوع أن الإسلام لم ينشئ إطلاق اللحية، بل وجدها فأدخل عليها بعض

الأشياء التى تفرق بين المسلمين والكفار من جهة، وتجعل منظرها فى وجه المسلم منظرا حسنا من جهة.

وكنا نحب أن نقرأ من علماء الدين الشيخ محمود شلتوت، فقد كانت آراؤه تريحنا وتوافق عقولنا ونرى أنها تضرب فى عمق الدين دون الاهتمام بالسفاسف وتصبيرها أساسيات وجواهر على حساب الأساسيات والجواهر الحقيقية. ومن بين ما قرأنا له كلامُه فى اللحية. وهذا نصه، وهو موجود فى كتابه: "الفتاوى"، وهو كتاب عظيم ككل كتب العالِم الكبير: "تكلم الفقهاء على حلْق اللحى، فرأى بعضهم أنه مُحرَّم، ورأى آخرون أنه مكروه، ومنهم من شدَّد فوصفه بأنه من "المنكرات" وبأنه "سَفَهٌ وضلالة أو فِسْقٌ وجهالة". ونحن لا نشكُّ فى أن إبقاءها وعدم حلْقها كان شأن النبى ﷺ وأنه كان يأخذ من أطرافها وأعلاها بما يحسِّنها ويجعلها متناسبة مع تقاسيم وجهه الشريف، وأنه كان يُعْنَىَ بتنظيفها وتخليلها بالماء، عملا على كمال النظافة. وكان الأصحاب رضوان الله عليهم يتابعونه فى كل ما يختاره ويسير عليه فى مظهره وهيئته حتى مِشْيته.

وقد وردت عنه ﷺ أحاديثُ تُرغِّب فى توفيرها ضمن أمور تتصل كلها بالنظافة وتحسين الهيئة وإظهار الوَقار، وعُرِفَتْ تلك الأحاديث عند العلماء بأحاديث "خِصال الفِطْرة أو سُنَنها". والكلمة تعنى الآن الأشياء التى تتفق وخَلْقُ الإنسان فى أحسن ما شاء الله من الصور، وكان فى هذه الخصال الواردة مع إعفاء اللحية فى تلك الأحاديث "السواك، وقصّ الشارب والأظافر، وغسل البراجم، وهى عُقَد الأصابع ومعاطفها، واستنشاق الماء، وإزالة شعر الإِبِط والعانة والختان". وقد أخذت هذه الخصال عند كثير من الفقهاء الباحثين عن أحكام الشريعة حكم السُّنِّيَّة أو الاستحباب. وإعفاء اللحية واحدة من هذا الخصال لا يعدو حُكْمُه حُكْمَها، وهو السُّنِّيَّة والاستحباب. على أن كلمة "سُنَّة" أخذت فى

دور الاجتهاد غير معناها فى زمن التشريع، فهى عندهم ما يُثَاب المرء على فعْله ولا يُعاقَب على تركه. وقد كان معناها الطريقة العملية التى يستحسنها الناس، ويرى فيها النبى ما يَرَوْن فيها، فيسير عليها ويُرغِّب أصحابَه فيها.

وقد أرشدنا التاريخ فى قديم العرب وغيرهم إلى أن إعفاء اللحْية كان عادة مُسْتَحْسَنَة، ولا يزال كذلك عند كثير من الأمم فى علمائها وفلاسفتها مع ما بينهم من اختلافٍ فى الدين والجنسية والإقليم، يَرَوْن فيها مظهرًا لجمال الهيئة وكمال الوقار والاحترام. والرسول عليه السلام مِنْ دأبه إرشاد أمته إلى ما يجعلهم فى مقدمة أرباب العادات المُسْتَحْسَنة التى تُوفِّر بحسب العُرْف مظاهرَ الوقار وجمال الهيئة. ومِن ذلك جاءت أحاديث الترغيب فى توفير اللحْية، كما جاءت أحاديث الترغيب فى السواك وتنظيف عُقَد الأصابع ومعاطفها. نعم جاء فى أحاديثَ خاصةٍ باللحية الأمرُ بالإعفاء والتوفير، وعَلَّلَتْ ذلك بمخالفة المجوس والمشركين، ومن هنا فقط أخذ بعض العلماء أن حلْق اللحْية حرام أو مُنْكَر.

والذى نعرفه فى كثير مما ورد عن الرسول فى مثل هذه الخصال أن الأمر كما يكون للوجوب يكون لمجرد الإرشاد إلى ما هو الأفضل، وأن مشابهة المخالفين فى الدين إنما تَحْرُم فيما يُقْصَد فيه التشبُّه من خصائصهم الدينية. أما مجرد المشابهة فيما تجرى به العادات والأعراف العامة فإنه لا بأس بها ولا كراهة فيها ولا حُرْمة. وقد قيل لأبى يوسف صاحب الإمام أبى حنيفة، وقد رُئِى لابسًا نعلينِ مخصوفين بمساميرَ، إن فلانًا وفلانا من العلماء كَرِها ذلك لأن فيه تشبُّهًا بالرهبان، فقال: كان رسول الله ﷺ يلبس النِّعَال التى لها شعر، وإنها من لباس الرهبان. ونحن لو تمشينا مع التحريم لمجرد المشابهة فى كل ما عُرِف عنهم من العادات والمظاهر الزمنية لوجب علينا الآن تحريم إعفاء اللحى لأنه شأن الرهبان فى سائر الأمم التى تُخالفنا فى الدين، ولَوَجَبَ الحكم بالحرمة على لُبْس القُبَّعَة، وبذلك تعود مسألتها

جَذَعَةً بعد أن طوى الزمن صفحتها، وأخذت عند الناس مسلك الأعراف العامة التى لا تتصل بتديُّن ولا فِسْقٍ ولا بإيمانٍ وكُفْرٍ. والحقُّ أن أمر اللباس والهيئات الشخصية، ومنها حلْق اللحية، من العادات التى ينبغى أن ينزل المرء فيها على استحسان البيئة: فمَن درجت بيئته على استحسان شىء منها كان عليه أن يُسَاير بيئته، وكان خُروجه عمَّا أَلِفَ الناسُ فيها شذوذًا عن البيئة. والله أعلم".

وكنا نرى بعض زملائنا فى المدينة الجامعية ملتحين، فلا ننشغل بذلك ولا نرى للأمر أية أهمية. وكان مثل هؤلاء الطلاب عادة ما يحبون أن يؤمونا فى الصلاة. ومنهم شاب فيه طول كان يدرس فى كلية الزراعة، وكان حريصا على أن يتقدمنا للإمامة رغم صوته الأخنّ وعدم مناسبة جرسه لِسِنّه. وكنا نشفق عليه ونتألم له، ونضيق فى ذات الوقت بحرصه رغم هاتين الملاحظتين على أن يتقدم ليؤمنا فى الصلوات الجهرية. ولم نكن نختلط كثيرا بهذه النوعية من الطلاب، وبخاصة أننا منفتحون على الثقافات المختلفة على قدر إمكاننا فى تلك السن الصغيرة، ونخالط الطلاب الآتين من الدول الأخرى سواء كانوا من اليابان أو الصين أو كوريا الشمالية الشيوعية أو الاتحاد السوفييتى، ونزورهم فى غرفهم وندخل معهم فى مناقشات سياسية وعقيدية. بل لقد شاركت، بناء على طلبه، طالبا كوريا شماليا، الإقامة بغرفة مزدوجة بالمدينة الجامعية فى حى بين السرايات. وكنا نتناقش فى الدين والشيوعية. وكان أحيانا ما يتركنى ليلا ويذهب لحضور حفل فى السفارة. وكان لطيف المعشر دمث الخلق مجاملا وأنيقا ويتصرف تصرفا راقيا حتى إننى قمت كالعادة ذات ليلة لأصلى الفجر فألفيته يقرأ رواية كورية وهو ممدد فى سريره، وقد أضاء مصباح الكومودينو الخاص به حتى لا يزعجنى النور لو أضاء مصباح السقف، وكنت سعيدا وأنا أفتح عينى على عينيه المسحوبتين اللتين تبدوان وكأنهما مشقوقتان بالمُوسَى. وسألته أكثر من مرة عن وظيفة والده فكان

يجيبنى بأنه عامل فى أحد المصانع. ولكنه، بعد تكرار السؤال من جانبى لأن مظهره لا يمكن أن يكون مظهر ابن عامل، صارحنى مشددا على أن يكون هذا سرا بيننا بأن أباه هو وزير العمل فى بلده. وقد كتمت السر فعلا طوال سنوات كثيرة حتى اطمأننت إلى أنه قد عاد منذ زمن طويل إلى بلاده. وهذه أول مرة أكتب عن هذا الموضوع. أقول هذا لأبين كيف أننى، بطبيعتى، كنت بعيدا عن الجماعات الدينية رغم تدينى وحبى لدينى وعملى على نصرته بالطريقة التى كنت أراها آنذاك. وكنا نمتاح فكرنا الدينى من كتب العقاد وشلتوت والغزالى وأمثالهم، ونُعْمِل عقولنا ولا نتعبد لأى أحد أو أى رأى سوى ما تقتنع به عقولنا وترتاح له قلوبنا. ومن ثم لم أكن أنا أو أى من أصدقائى، وكلهم كانوا من المتفوقين لأننا كنا من طلاب كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ملتحين، وإن كنت تركت تلك الكلية وحولت أوراقى إلى الآداب (قسم اللغة العربية وآدابها) بعد ثلاثة أيام كنت أوشك بعدها على الانفجار لأنى لم أجد نفسى فى مقررات كلية القمة كما كانوا يسمونها آنذاك وما زالوا.

وقد كنت لاحظت، وأنا أقرأ أشعار ابن الرومى بالجامعة وما بعدها، أن فى تلك الأشعار هجوما عنيفا متكررا على اللحى كقوله:

إذا عَرُضَتْ لحيةٌ للفتى وطالتْ وصارتْ إلى سُرَّتِهْ
فنُقْصانُ عقلِ الفتى عندنا بمقدار ما زاد فى لحيتِهْ

وقوله:

إن تَطُل لحيةٌ عليك وتَعْرُضْ فالمخالى معروفة للحميرِ
علَّق الله فى عِذارَيْك مِخْلا ةً، ولكنها بغير شعيرِ
لو غدا حكمها إلىَّ لطارت فى مهبّ الرياح كلَّ مَطيرِ

أَرْعِ فيهـا المُوسَـى، فإنـك منهـا   شَـهِد الله فى أَثَامٍ كبـيرِ

لحيـةٌ أُهمِلـتْ، فـسالتْ وفاضـتْ   فإليهـا تُـشِير كـفُّ المـشيرِ

لـو رأى مثلَهـا النـبى لأجـرى   فى لحـى النـاس سُـنَّة التقـصيرِ

وقوله:

إن أنـتَ صـادفت أخـا لحيـةٍ   قـد جَلَّلَـتْ مـن كِـبَرٍ صـدرَهْ

فـاقبض بيُـسراك علـى أصـلها   وضـع علـى حلقومـه الـشَّفْرَه

فـإن خَـشِيت الله فى قتلـه   وخفـتَ منـه سـطوةً مُـرَّه

فثِـبْ إلى عُثنونـه ناتفًـا   فـأْتِ عليـه شـعرةً شـعرَه

وقوله:

للهِ لحيـةُ حائـكٍ أبـصرتُها   مـا أبـصرتْ عينـاى فى مقـدارِها

إنى لأحـسبُ أنّ مـن أشـعارها   هـذا الأثاث معًـا ومـن أوبارهـا

وقوله:

قُـلْ للشـوابى إذا جِئْتَـهُ:   يا ثُكـلَ أسمـاعٍ وأبـصارِ!

إن تـستتر مـنى فقـد أكـبرتْ   نفـسُك مـنّى أهـلَ إكبـار

ومـا يـضيرُ العـينَ ألا تـرى   شـبيهَ بُهْلـولٍ وعمَّـارِ

يا مُلْقِـىَ الـرُّدْن علـى وجهـه   لقـد تَخَمَّـرْتَ علـى عـارِ

سـترتَ وجهًـا حـقَّ تـشويهُهُ   ألا يُـرَى عـادمَ أسـتار

نمَّـتْ، وقـد غطيتَـه، لحيـةٌ   كأنهـا رايـةُ بيطـار

حَـسِبتُها مـن خُبْـثِ أرواحِهـا   مخـضوبةً بالزفـت والقـارِ

يالـك مـن وجـهٍ ومـن لحيـةٍ   مـا أشـبهَ الجـارةَ بالجـارِ

وقوله:

يا شـــيخ، عَـــدِّ عـــن الجلـــوسْ أوجعـــــتَ ضـــــربًا بالقُلـــــوسْ
لـــــك لحيـــــةٌ مخـــــضوبةٌ بعـــــصير أظـــــلاف التيـــــوس

وقول الكوكبانى (ق١٠– ١١هـ):

لحيـــة كـــالخرج مـــن يحملهـــا فى الوجـــــــه يخـــــــرج
وجهـــــه يحمـــــل فى شـــــد قيـــه منهـــا نـــصفَ هـــودج
وإذا اللحيـــــــة طالـــــــت فـــاقض أن العقـــل كَوْسَـــج

وقال أحد الشعراء فى شخص كبير اللحية:

لحيـــــة حمـــــدون دثارٌ لـــــه تكنـــــه مـــــن شـــــدة الـــــبردِ
كأنهـــا إذ غـــاب فى وســـطها قطيفـــةٌ لُفَّـــتْ علـــى قـــردِ

وقول المفتى فتح الله اللبنانى (ت١٨٤٤م):

يا لِحيــة عَظُمَــت فى وَجــهِ صــاحِبها كَثيفــة خَبُثَــتْ شــنعاء قَــد قَبُحَــتْ
لــو النّجاســات كانَــت أَبُحُــرًا وُضِــعَت فى تِلكُمُ اللّحيـة الـشّنعاء مـا طفحـتْ

... وغير ذلك كثير.

حتى ابن الجوزى، وهو من هو فى العلم الشرعى والتحمس للدين، كثيرا ما يسخر من أصحاب اللحى وحماقاتهم فى كتابه عن "الحمقى والمغفلين": "قال الأحنف بن قيس: إذا رأيت الرجل عظيم الهامة طويل اللحية فاحكم عليه بالرقاعة ولو كان أمية بن عبد شمس. وقال معاوية لرجل عتب عليه: كفانا فى الشهادة عليك فى حماقتك وسخافة عقلك ما نراه من طول لحيتك. وقال عبد الملك بن مروان: من طالت لحيته فهو كوسجٌ فى عقله. وقال غيره: من قصرت قامته، وصغرت هامته، وطالت لحيته، فحقيق على المسلمين أن يُعَزّوه فى عقله.

وقال أصحاب الفراسة: إذا كان الرجل طويل القامة واللحية فاحكم عليه بالحمق، وإذا انضاف إلى ذلك أن يكون رأسه صغيرًا فلا تشكَّ فيه. وقال بعض الحكماء: موضع العقل الدماغ، وطريق الروح الأنف، وموضع الرعونة طول اللحية. وعن سعد بن منصور أنه قال: قلت لابن إدريس: أرأيت سلام بن أبى حفصة؟ قال: نعم، رأيته طويل اللحية، وكان أحمق... قال زياد ابن أبيه: ما زادت لحية رجل على قبضته إلا كان ما زاد فيها نقصًا من عقله...

قال أبو عثمان الجاحظ: كان فزارة صاحبَ مظالم البصرة، وكان أطول خلق الله لحية وأقلهم عقلًا. وهو الذى قال فيه الشاعر:

ومـــن المظـــالم أن تكـــو ن علـــى المظـــالم يا فـــزاره

... وسمع فزارة يومًا صياحًا فقال: ما هذا الصياح؟ فقالوا: قوم يتكلمون فى القرآن. فقال: اللهم أرحنا من القرآن. واجتاز به صاحب دُرَّاج، فقال: بكم تبيع هذا الدراج؟ فقال: واحد بدرهم. قال: لا. قال: كذا بعت. قال: نأخذ منك اثنين بثلاثة دراهم. قال: خذ. فقال: يا غلام، أعطه ثمن اثنين ثلاثة دراهم، فإنه أسهل للمبيع...

قال الجاحظ: أخبرنى أبو العنبس قال: كان رجلٌ طويلُ اللحية أحمقُ جارَنا، وكان أقام بمسجد المحلة يعمره ويؤذن فيه ويصلى، وكان يعتمد السور الطوال ويصلى بها، فصلى ليلة بهم العشاء فطوَّل، فضجوا منه، وقالوا: اعتزل مسجدنا حتى نقيم غيرك، فإنك تطوّل فى صلاتك، وخلفك الضعيف وذو الحاجة. فقال: لا أطوِّل بعد ذلك. فتركوه، فلما كان من الغد أقام وتقدم فكبر وقرأ "الحمد"، ثم فكر طويلًا وصاح فيهم: إيش تقولون فى "عَبَس"؟ فلم يكلمه أحد إلا شيخ أطول لحية منه وأقل عقلًا، فإنه قال: كَيِّسَة. مُرَّ فيها...

قال الجاحظ: دخلت واسط فبكرت يوم الجمعة إلى الجامع، فقعدت، فرأيت على رجل لحية لم أر أكبر منها، وإذا هو يقول لآخر: الزم السنة حتى تدخل الجنة. فقال له الآخر: وما السنة؟ قال: حب أبو بكر بن عفان، وعثمان الفاروق، وعُمَر الصِّدّيق، وعلى بن أبى سفيان، ومعاوية بن أبى شيبان. قال: ومن معاوية بن أبى شيبان؟ قال: رجل صالح من حملة العرش، وكاتب النبى صلى الله عليه وسلم، وختنه على ابنته عائشة...

وقال: أُخْبِرْتُ عن الأصمعى قال: عرض الرشيد خيل مصر، فما مر به فرس إلا وعليه سمة نتاج الفخر الجنيدى، فقال: ويلكم! من هذا الجنيدى الذى له كل هذا النتاج؟ وأمر بإشخاصه، فكتب إلى عامل مصر، فأشخصه. فلما دخل عليه نظر إليه من أول الدار، فإذا عليه لحية قد أخذت لسرته طولًا ولآباطه عرضًا، وإذا هو مستعجل فى مشيه ينظر إلى أعطافه، فلما رآه قال: أحمق ورب الكعبة. فلما دنا منه قال: يا جنيدى، من أين لك هذه الخيل؟ قال: من رزق الله وأفضاله. فلما رآه هالكًا قال: ما أحسن لحيتك يا جنيدى! قال: اقبلها يا أمير المؤمنين خلعةً لك، والخيل معك. فبِكَ فداهما الله، فإن قدرك عندى أعظم القدور، وكرامتك عندى عزيزة جدا. فصاح به: اغرب. عليك لعنة الله. ثم قال: أخرجوه، فقد أسمعنى كل مكروه. لعن الله هذا وخيله معه".

ومع هذا فإن كثيرا من المسلمين يأخذون اللحية مأخذا عظيما وكأنها من أساسيات الدين التى لو لم يطبقها المسلم لضاع الإسلام. وأراهم يباهون بها مباهاة شديدة. وكنت أستشهد دائما ردا على هذا الفهم بقول الرسول عليه الصلاة والسلام: "إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم" وقوله ﷺ وهو يشير إلى صدره: "التقوى ها هنا، التقوى ها هنا، التقوى ها هنا". وهو حديث درسناه ضمن مقرر "التربية الدينية" فى السنة الأولى

الثانوية غالبا فى العام الدراسى ٦٣– ١٩٦٤م، واستقر فى عقلى ووجدانى منذ ذلك الحين. وربما كان لقراءتى كتاب الشيخ شلتوت: "منهج القرآن فى بناء المجتمع" قبل ذلك بسنة تقريبا أثناء الإجازة الصيفية، وكنت استعرته من مكتبة الوحدة المجمعة بالقرية غالبا، أثر فى توجيهى نحو أغوار الدين لا سطحه، إذ لا يهتم فضيلة الشيخ فى ذلك الكتاب بالأشكال والسطوح بل بالمبادئ والقيم والسلوكيات التى من شأنها تقوية المجتمع المسلم. بل لعل كتابه هذا كان اللبنة الأولى فى بناء تصورى الحضارى للإسلام، وهو التصور الذى تجسد بعد ذلك بعقود فى كتابى عن "الحضارة الإسلامية" الصادر أواخر عام ٢٠١٠م، ودرسه معى طلاب الفرقة الثالثة بقسم اللغة العربية وآدابها بآداب عين شمس، التى أعمل بها منذ عينت فيها معيدا بدءا من عام ١٩٧٢م رغم أنى من خريجى آداب القاهرة.

وخلاصة موقفى أن اللحية عادة اجتماعية لا تقدم فى الدين ولا تؤخر، وليست لها قيمة إيمانية البتة. هذا رأيى، ومع هذا فإنى لا أصادر رأى أحد. فليؤمن كل إنسان ملتح بما يؤمن به فى هذا الموضوع، لكنه لا يغير من رأيى واقتناعى شيئا. وعلى هذا فالملتحون إما ناس يتصورون أن إطلاق اللحية سنة أو فرض أو عادة اجتماعية، وإما ثعالب منافقة تأكل الدنيا بالدين، واللحية بالنسبة لهم هى وسيلة من الوسائل التى تستغلها فى أكل الدنيا بل التهامها. وما أكثر الملتحين الذين لا يصلون، وما أكثر الملتحين الذين لا يتصدقون، ولأهون على الواحد منهم أن تقرض من جلده بل من لحمه بالمقراض ولا تأخذ منه مليما أحمر، وما أكثر الملتحين الذين يزنون، وما أكثر الملتحين الذين ينهبون أموال الضعفاء ويرتشون، وما أكثر الملتحين الذين ينافقون كل ذى سلطة حرصا على الدنيا

ومطامعها... ومن الملتحين أيضا من يعرف ربه ويخشاه ويجتهد فى أن يكون متدينا مستقيما على قدر طاقته فى الفهم والاستيعاب.

وقد صورت الرواية من ذلك الصنف الملتوى من الملتحين رؤساء بعض الجماعات الإسلامية وأتباعها. تقول الرواية عن خميس الطالب المتسلِّف الذى كان متفوقا بالجامعة قبل أن يختل توازنه النفسى والاجتماعى ويتأخر فى دراسته ثم يفشل فى الحصول على الشهادة الجامعية ويتورط فى أمور الشيطنة والأبلسة كرؤسائه الذين لا يصلح الشيطان نفسه أن يكون تلميذا لهم لأن مقرَّرهم فى الأبلسة أكبر من طاقته واحتماله وذكائه المحدود: "حقق خميس تفوقا ملحوظا فى الفرقتين الأولى والثانية. نجح بامتياز، وتنبأ له الأساتذة بمستقبل باهر لو نجح فى الفرقتين الثالثة والرابعة بامتياز أيضا. سيكون معيدا ومشروع باحث يحصل على الماجستير والدكتوراه. وبدا أنه سيحقق نبوءة أساتذته لولا أنه كان مشغولا بالسفر إلى الإسكندرية، ومقابلة قيادات جماعة السلف فى عزبة سميحة.

توثقت علاقته بالشيخ التلفزيونى، وكان يغدق عليه بعض النفحات المالية، ويطلب منه أحيانا أن يجمع له بعض النصوص من الكتب التراثية التى يحتاجها لدروسه، ثم فى الزيارات التالية يسأله إن كان يستطيع صياغتها فى صورة فصول لكتيبات يطبعها مساعدو الشيخ بعد أن يضعوا عليه اسمه، ويبيعونها إلى رواد مسجد "نور الإيمان" ورواد المساجد الأخرى فى المنطقة والمساجد التابعة لجماعة السلف.

أتقن خميس إعداد الكتيبات التى كانوا يسمونها: "كتبا"، وكان توزيعها كبيرا، ويدر ربحا عاليا، وصار يعمل وحده فى صناعة الكتيبات، التى يضع عليها اسم الشيخ، ويقوم بتحصيل العائد وتقديمه للشيخ الذى يمنحه بعضه، ما جعل أحواله تتحسن، ولم يعد بحاجة إلى أبيه. لقد جرت النقود فى يديه، وجعلته يشعر

أن المال شيء آخر يغير طعم الحياة، ويجعل لها مذاقا خاصا، فانصرف عن العبادة بصورة شبه تامة إلى درجة التفريط فى الفرائض الخمس. لم يكن يصلى إلا إذا كان فى حضرة شيوخ السلف أو بعض الأتباع. قال له زميله حسن يوسف، وهم فى مسجد الكلية:

– لم تعد تزور المسجد يا شيخ خميس!

نظر إليه نظرة ذات دلالة، وقال له:

– ألا تعلم أنى مشغول بأمور الجماعة وأصلى فى المكان الذى أعمل فيه؟

– وهل الانشغال بأمور الجماعة يمنعك من الصلاة فى المسجد؟

ثم أردف:

– إن الجماعة كلها موجودة فى المسجد.

رد عليه بغضب مكتوم:

– تعلم أننا لسنا وحدنا فى المسجد. ومن مصلحة الجماعة ألا نتكلم فى وجود آخرين.

قال حسن:

– نحن ليس لدينا أسرار. الإسلام واضح وضوح الشمس، والقرآن الكريم ليس فيه ألغاز أو أسرار قاصرة على بعض الناس! القرآن متاح لكل الناس. أليس كذلك يا شيخ خميس؟

– الأسرار من أجل الدعوة يا حسن!

– أى دعوة تلك التى لها أسرار تمنع الداعية من الصلاة مع الناس؟ أنسيت أن لك لحية؟

– اللحية سنة.

– نعم. لكن التيس له لحية، والأسد له لحية أيضاً!

وأمسك حسن بلحية خميس القصيرة، وقال له:

– يبدو أنها لحية تايوانى! ليست من أجل السنّة والعبادة. اذهب!

وتركه حسن مغاضبا، ونكّس خميس رأسه، وانصرف وزملاؤه ذاهلون!

لم تكن مشكلة ترك الفرائض نقطة الضعف الوحيدة لدى خميس. كانت هناك نقطة أخرى لا يستطيع الإفصاح عنها. بدت الدماء الحارة تتدفق بقوة فى عروق خميس، وازدادت سخونة وهو فى الفرقة الثانية، وخاصة حين يرى الطالبات من حوله فى المدرجات والطرقات، وأحس أنه بحاجة إلى امرأة! لم يُجْدِ غضّ البصر، أو بالأحرى لم يعد قادرا عليه. ركبه شيطان اسمه المرأة، وبدت هلاوس الجنس تسيطر عليه، ولم يعد قادرا على التحكم فى نفسه. ينام ويستيقظ على صورة المرأة فى السكن والكلية والمسجد والشارع والسوق. لم يفكر فى حلّ من الحلول التى تحدث عنها الشرع، مثل الصوم أو التفكير فى زواج بإمكانات بسيطة. دفعه العناء إلى الاعتراف لأحد قيادات جماعة السلف، وكان قريبا منه قربا شديدا، فاقترح عليه أن يتزوج مطلقة يعرفها تنتمى إلى الجماعة زواجا عرفيا ليحل مشكلته الخاصة، ويبقى الأمر سرا فلا يعلم أبوه أو أهله أو أحد بزواجه، ولا يسائله أحد عن الزواج أو الزوجة. وتم الأمر سريعا بمعرفة القيادى المقرّب!

لم يكن خميس محظوظا حين جلس فى محاضرة عامة بالكلية تحدث فيها مدير الأوقاف بالمحافظة، وهو شيخ وقور متزن، عن العلاقات الأسرية السليمة. فقد تلقى الشيخ سؤالا مكتوبا فى ورقة من إحدى الطالبات يقول:

– ما حكم الإسلام فى الزواج العرفى؟

شعر خميس بانقباض، وأحس كأن السؤال موجه لإحراجه بين زملائه، وكأنهم يعلمون ما اقترفه دون علم أهله والمجتمع. وكان قلقه، وهو ينتظر سماع الإجابة، يجعله لا يعرف كيف يجلس مطمئنا على الكرسى، فكان يقوم ويقعد،

ويلتفت يمينا وشمالا. مرّت عليه الدقائق بطيئة وثقيلة وصعبة حتى أخذ الشيخ يجيب على السؤال. قال الرجل:

– تعلمون يا أبنائى أن الزواج فى أصله الإشهار، أى الإعلام، أى معرفة الناس أو المجتمع الذى يعيش فيه الرجل والمرأة أن فلانا تزوج من فلانة، وأنهما صارا أسرة لها مواضعات الأُسَر فى المجتمع.

وواصل الشيخ:

– عندما تكاثر الناس واتسعت المجتمعات وتعقدت الحياة كان لا بد من تدخل الجهة المنظمة لأمور الناس، وهى الحكومة كما نسميها، بتقنين الأوضاع رسميا بتحديد سن الزواج للشباب وتسجيل الحالات الاجتماعية المختلفة من ميلاد ووفاة وزواج وطلاق وغير ذلك حفظا لحقوق الأفراد والمجتمع. والزواج يتم شرعيا ورسميا حين يقوم المأذون بعقد القِرَان أمام الناس، ويسعد أهل العروسين بالقران، ويتم الإعلان بالزغاريد أو دق الطبول، وتوزيع الشربات والحَلْوَيَات، والتعبير عن الفرح بصوره المألوفة. ويقوم المأذون الشرعى بتوثيق هذا الزواج فى دفتر رسمى تصادق عليه المحكمة فيما بعد. وفى هذا الدفتر بيانات الزوجين والشهود وقيمة الصداق: المقدم والمؤخر. ويُعْطِى كلا من الزوج والزوجة نسخة من وثيقة الزواج بعد اعتمادها رسميا.

وسكت الشيخ برهة، ثم واصل حديثه:

–هذا هو الزواج كما نعرفه يا أبنائى، واعتدنا عليه فى مجتمعنا الحضرى. الناس فى المجتمعات البدوية أو الصحراوية بحكم العادات والتقاليد يُضْطَرّون لتزويج أبنائهم قبل السن القانونية، فيقومون بعقد القران وفقا للشريعة وسط مظاهر الإشهار والإعلان والفرح، وعندما يبلغ العروسان السن القانونية فإن

أهلهما يوثقون الزواج رسميا. وهذا هو ما يسمى: "الزواج العرفى"، وهو جائز شرعا لأنه توفرت فيه شروط الزواج الصحيح!

سأل أحد الطلاب:

– ولكننا نسمع عن زواج عرفى يتم بكتابة ورقة يوقع عليها الطرفان؟

عند سماع السؤال اضطرب خميس فى مجلسه، وازداد وجيب قلبه. قال الشيخ:

–هذا يسمى: "الزواج السرى" لأن أحدا لا يعلم به، وهو زواج فاسد، وأقرب إلى الزنا. بل هو الزنا فى معظمه لأنه بدون شهود وبغير إشهار. وفيه تضيع حقوق المرأة، ويسبب مشكلات أكثر مما يحقق قيام أسرة طيبة. وأكثره إن لم يكن كله ينتهى نهاية مؤسفة ومشينة للطرفين. والله أعلم!

تسارع النبض فى صدر خميس، والشيخ يعلن أن الزواج العرفى زواج فاسد، وأنه أقرب إلى الزنا، بل هو زنا بالنسبة إلى خميس، فلم يشهد على زواجه السرى غير القيادة التى اقترحته حلا لمشكلته. انسحب من المحاضرة، ولم يستمع لبقية الأسئلة، ومضى إلى السكن يفكر فى زواجه السرى! هل وقع فى الإثم؟ لماذا لم يصبر حتى يتزوج مثل خلق الله؟ ماذا سيقول لمن يعدّها زوجته؟ إنه يذهب إليها فى بيتها كلما احتاج لقضاء حاجته، ولكنه يتسلل مثل اللص الذى يتخفى ليسرق البيوت والشقق، ويحرص ألاّ يراه أحد أو يشاهده الجيران.

كانت مطلقة وتحتاج إلى رجل. وجاءها الرجل الذى هو خميس، فلم تعد تحفل بحلال أو حرام لأن الشيخ أجاز لهما الزواج العرفى الذى لا يعلم به أحد سواه. والشيخ كلامه حجة ووثيقة لا يخالفها أحد. الأمر بالنسبة لها طبيعى لأنها لم تسمع ما قاله شيخ الأوقاف فى المحاضرة التى ألقاها فى الكلية! عندما سافر خميس

إلى قرية الصيادين لاحظت أمه أنه ليس ابنها الذى تعرفه. يبدو ساهما ذاهلا كأنه فقد شيئا لن يستعيده أبدا. قالت له أمه بلهفة:

– مالك يا بنى؟

– لا شىء يا أمى. أنا بخير.

– تبدو مشغولا.

– أنا بخير.

– هل حدث لك ما يزعجك؟

– أمى، أنا مشغول بالامتحان فقط.

– لم أعهدك مهتما بالامتحانات من قبل.

– دائما الامتحانات تسبب بعض القلق.

– الله معك يا بنى.

لم تقتنع الأم بما قاله ابنها. إنها تحمل رادارا يكشف لها الأعماق، وإن كانت لا تدرى طبيعتها أو كنهها. قلبها يشعر ويحس. لم تضغط عليه لتعرف، واكتفت بالدعاء له. وعندما سافر إلى المحافظة شيّعته أيضا بالدعاء، مع قلق لا يخفى! أما هو فقد كان فى دوامة لا يستطيع الخروج منها. والشيخ الذى زوّجه بيده الحل، ولكنه لا يستطيع أن يواجهه بما سمعه فى محاضرة شيخ الأوقاف الذى أفتى بأن الزواج العرفى أقرب إلى الزنا أو هو الزنا بعينه!

عاد إلى السكن فى المدينة الجامعية. لم يذهب إلى من تُعَدُّ زوجته. إنه يحاول أن يبحث عما يريح ضميره ويعيد إليه صفاءه. صحيح أن مسألة إعداد الكتب لشيخه التلفزيونى تمثل له قلقا من نوع آخر لأنه يكتب، واسم الشيخ هو الذى يظهر، ولكنها أخف من موضوع الزواج السرى أو العرفى كما يطلقون عليه، فأمره ليس قاصرا على الإثم، ولكنه يتعداه إلى الصدام مع الشيخ الذى زوّجه

بالمطلقة حين يخبره أن ما حدث لم يكن زواجا على سنة الله ورسوله. لم يستطع أن يُفضى بسره إلى زملائه فى الغرفة. لاحظوا أنه، على غير عادته، يبدو مهموما حزينا. حاول واحد منهم أن يستدرجه ليتحدث، ولكنه أخفق. لم يحاولوا الإلحاح عليه على أساس أنه قد يحكى لهم فى اليوم التالى. وصعد إلى سريره لينام، ولكن النوم لم يعرف إلى جفنيه طريقا.

* * *

فى الفجر صحا خميس من نومه. لم يتوضأ ولم يصلّ كما كان يفعل من قبل. غسل وجهه، ومشط شعره ولحيته التى أخذت تطول بصورة ملحوظة، وحمل حقيبة بها بعض كتيبات جديدة للشيخ، وانطلق فى طريقه إلى الإسكندرية. أمام الشيخ التلفزيونى انفجر الفتى يبوح بما فى صدره. حكى له القصة مذ كان يتوق إلى امرأة ويتعذب بين الدماء التى تتدفق فى عروقه حارة ساخنة وبين الواقع الذى لا يسعفه بإشباع رغبته حتى تم تزويجه سرا أو عرفيا، وهو ما حكم شيخ الأوقاف بفساده. مسح الشيخ الشهير على رأسه، وابتسم ابتسامته الباهتة، وقال له:

– هَوِّنْ عليك يا بنى. كل شىء إلى حل.

وطلب منه أن يمر عليه بعد صلاة العشاء. كان أتباع الشيخ العاملون فى خدمة إدارة الجماعة وغيرهم يقيمون فى غرفة ملحقة بالمسجد يأكلون ويشربون وينامون على موكيت فوق الأرض، وكل منهم يصنع لنفسه بطريقته الخاصة وسادة يضع عليها رأسه. وكان الأهالى الطيبون البسطاء، ومعظمهم جاء من الريف، يقدمون لهم بوصفهم من خدام الدعوة شيئا من الطعام والشراب يقتاتون عليه. وكان خميس المقرب من الشيخ التلفزيونى يعرف طريقه إلى هذه الغرفة ومشاركة من يقيمون فيها إقامة دائمة أو عابرة فى الطعام والشراب والنوم. لا يشعر بأعباء الإقامة فى فندق أو سكن آخر، فكل شىء ميسر كأنه فى بيته، لا فرق بين

الإسكندرية وقرية الصيادين، وهو ما يشجعه على السفر إلى الإسكندرية كلما أراد.

قضى الظهيرة حتى العشاء فى الغرفة. لا يخرج إلا لصلاة الجماعة كى يشاهده شيوخ السلف وقادهم. وبعد العشاء التقى بالشيخ التلفزيونى، الذى رحب به وأفسح له مكانا بجواره، وحين خلا مجلسه من المريدين قال لخميس:

– ماذا تريد الآن يا بنى؟

– أريد أن أريح ضميرى.

– إذن اترك هذه الزيجة ليستريح ضميرك.

فانحنى على يد الشيخ يقبلها داعيا له، والشيخ يبتسم ابتسامته الباهتة إياها.

جاء شيخ السلف الذى زوّجه عرفيا أو سرا، وفتح فمه عن أسنان مصفرة قوية كأنها تتهيأ لالتهام فريسة. حاول أن يضحك، فقاطعه الشيخ:

– أصلح خطأك. وخلّص ابننا من زيجته التى عقدها. وزَوِّجْه علنا بأخرى!

– وهل كانت هذه الزوجة غير طيبة؟

– لا تكثر من الكلام، ونفّذ ما أقول!

تراجع شيخ السلف، وتجمدت ملامحه، وارتخى جفناه، وقال فى استسلام:

– سمعا وطاعة يا مولانا.

وطلب من خميس أن يلحق به فى حجرة الإدارة".

وأنا لا أعرف شيئا عن خبايا وخفايا ما يسمى بـ"الجماعات الإسلامية" لأنى لم أنتم يوما إلى أى منها ولا إلى أية جماعة أخرى لا سياسية ولا أدبية ولا نقدية ولا ولا ولا. لكنى فى ذات الوقت أسمع وأقرأ عن هذه الجماعات وأنشطتها وما يكتبه زعماؤها أو يسجلونه فى أشرطة أو يقوله الآخرون عنهم كتابة أو كلاما، ولم أجد

فيما أعرفه عنهم ما يجعلنى أتخيل أنهم أفضل من غيرهم إن لم يكونوا أسوأ، وأسوأ كثيرا جدا، فالكثيرون منهم يكذبون ويلعبون بالبيضة والحجر ويَعِدونك بأشياء من تلقاء أنفسهم دون أن تطلبها منهم بل قد تعتذر عن استعدادك لقبولها، ثم لا وفاء بالوعد ولا يحزنون، وإذا قابلوك بعد ذلك، وكثيرا ما يفعلون، فإنهم لا يستحون ولا تتمعر وجوههم من الخجل ولا تَخِزُهم ضمائرهم أو تَقْلَق ولو بعض القلق العابر ولا يعتذرون بل لا يفتحون الموضوع بتاتا وكأنه ليس هناك موضوع، فقد استحالوا شياطين مردة، ولم يفكروا ولو مرة فى الخروج من السَّمْت الإسلامى وخلع ثياب التقوى المزيفة التى يرتدونها على الدوام، فضلا عن أننى، فيما أزعم، أعرف الطبيعة البشرية وأعرف عز المعرفة أن إطلاق اللحية لا يجعل من الشيطان ملاكا ولا من الفاسد المعطوب الملتوى إنسانا مستقيما كريما، وأن غرائز البشر وشهواتهم من العُتُوّ بحيث تقتضى الشخص جهادا مستديما لا يكل ولا يمل، وأن المستعدين لهذا الجهاد قليلون جد قليلين، وأن الاهتمام الزائد بالشكليات والمظاهر يكون عادة على حساب الاهتمام بالجوهر... وهكذا.

ومن هنا لا أرانى أستبعد ما تقوله رواية "اللحية التايوانى" عن خميس أحد أبطالها وعن رؤسائه فى الجماعة التى يعتزى إليها، فليس فى اللحية كلمة سر تحول صاحبها مباشرة إلى إنسان كريم يخشى الله ويرقبه فى كل ما يفعل، وإذا ضعف ووقع فى الغلط سارع إلى الاستغفار والعودة إلى الصراط القويم. وبالمناسبة فكلامى هنا عن كل الجماعات الإسلامية لا عن جماعة بعينها. فالمنتمون إلى أية جماعة فيهم وفيهم، وكثيرا ما يتصور أولئك المنتمون أنهم لمجرد هذا الانتماء قد صاروا ناسا فضلاء لا يقعون فى الخطإ بله فى المعصية بله فى النفاق الغليظ. ولا أستثنى أتباع الجماعة الأخرى التى تضعها الرواية بإزاء جماعة خميس، فما ينطبق على هذه ينطبق على تلك، وإن كان من الممكن أن يكون هناك اختلاف فى بعض

التفاصيل. صحيح أن كل جماعة تظن أنها أفضل من سواها وأنها هى صاحبة الحق والحقيقة، لكننا بحمد الله نحكّم دائما عقولنا ونستعين بخبراتنا فى الحياة ولا نقدس أحدا مهما يكن من شأنه. وكلنا فينا وفينا بما فينا العبد لله، فنحن فى نهاية المطاف بل منذ بداية المطاف بشر يصيبون ويغلطون، وقد يرتكسون فى المعصية صغيرة أو كبيرة، وليس ثم إنسان كامل أو مبرأ من العيوب. أما القول بأى شىء آخر فهو كلام فى المشمش لا غير ولا سوى!

ونرجع إلى خميس، وقد أتته فى الجامعة أيامَ الامتحانات زوجتُه العرفية (أو السرية)، التى هجرها دون إنذار أو توضيح، وترجته أن يعود إليها، وأفهمته أن له فى أحشائها طفلا، وهو ما أربك حساباته وشل تفكيره تماما، فلم يستطع أن يكتب شيئا فى كراسات الإجابة، وكانت الثمرة السقوط الذريع فى الامتحان. وقد بقى فى الإسكندرية مقر جماعته التى ينتمى إليها، ولم يفكر فى العودة إلى قريته وأسرته تجنبا للفضائح التى صارت تطارده: "قضى خميس الإجازة الصيفية فى الإسكندرية بالقرب من الشيخ التلفزيونى وشيوخ السلف. جوّ الصيف يغرى بالإسكندرية: البحر والشواطئ والناس والترام العتيق، الشوارع والمتاجر، حركة الحياة الموّارة، المقاهى والفنادق المطلة على البحر، السير على الكورنيش، مسجد القائد إبراهيم، ومسجد سيدى جابر، ومسجد أبى العباس المرسى، ثم مسجد البوصيرى (يسميه بعضهم: الأباصيرى)، ثم أضرحة الأولياء المنتشرين بالقرب من المسجدين. ولكن الشيخ التلفزيونى يُؤْثِر شَدَّ الرحال إلى العمرة، وما أكثر عمراته! أما شيوخ السلف فتوزعوا بين السفر مع الشيخ أو الذهاب إلى القاهرة أو مدنهم وقراهم، وبقى بعضهم ليدير الجماعة ويصرف شؤونها.

لم يستطع خميس أن يعود إلى قرية الصيادين. كان شبح المرأة التى تزوجها سرا أو عرفيا يطارده، وهى تقول له: "ماذا أفعل بمن يتحرك فى بطنى؟"، وبين

النتيجة التى ينتظرها وتجعله لأول مرة فى كشوف الامتحانات التى تحمل دوائر حمراء تبدّد حلمه بالعمل معيدا فى الكلية، وصار مجرد واحد من عشرات الطلاب الذين ينجحون بصعوبة أو يحملون مواد أو يعيدون السنة مرة أخرى. كيف يقابل أهله فى القرية، ويقول لأبيه: لقد خيبت أملك، وضيعت تعبك وشقاءك فى السنوات الماضية ورغبتك أن أكون إنسانا تفخر به؟ لا يستطيع أن ينظر فى وجه الشيخ إبراهيم الصابر على الحياة وصعابها، ولا يمكنه أن يبوح لأمه بما يعتمل فى صدره من آلام ومتاعب وحيرة وضياع. دفعته شهوته إلى مهالك لم تكن فى حسبانه ولا توقعاته. ولكن حدث ما حدث، ولا سبيل إلى تغييره.

الأفضل الآن أن يعيش فى هذه الغرفة التى تضم أخلاطا من أتباع الشيوخ، وينام على الموكيت، ويصنع لنفسه وسادة من حقيبته، ويأكل ويشرب مجانا، ويخط كتب الشيخ التلفزيونى. أما أمه، أما أبوه فسوف يجد السبب الذى يجعلهما يسامحانه، ويغفران له، وينسيان ابتعاده عنهما.

سوف يأتى شيخ السلف الذى زوَّجه سرا أو عرفيا لينقل إليه خبر الجنين الذى تحدثت عنه المرأة، ولعله يجد حلا بعد أن تعقدت الأمور. أما أمر الكلية، ونتيجتها معروفة مقدما، فلا يدرى كيف يواجه الشيوخ بأمرها. ترى هل يهمهم أمر نجاحه أو رسوبه؟ لا يظن. فهم لا يهمهم التعليم ولا المؤهل العالى، والشيخ التليفزيونى نفسه يحمل دبلوما متوسطا، وسمع من بعض مشايخ الخليج ما جعله يلقى دروسه فى المسجد وعلى الشاشة، بل إنهم يحرضون على عدم استكمال التعليم ليسيطروا على الشباب. المهم لديهم هو رواج كتب الشيخ وزيادة الأرباح من ورائها. وهو يتلقى الفتات على كل حال الذى يتيح له فرصة أن يستند إلى رصيد ينفعه فى الملمات، وقد تكوّن لديه أخيرا مبلغ كبير لا بأس به لا يملكه أبوه ولا واحد من أخويه فى الغربة، وهو ما يجعله قادرا على مواجهة متاعب الحياة

المحتملة. وقد عرف الطريق إلى البنك الذى يحرم الشيوخ التعامل معه ويكنزون مدخراتهم فيه ليضع أمواله فى حساب باسمه لا يعرفه غيره. وفى المستقبل سيزيد رصيده عند ما يقوم بوضع اسمه على بعض المؤلفات بجوار اسم الشيخ، ثم اسمه منفردا فيما بعد. المهم أن تتوفر له أولا الشهرة والذيوع بمشاركة الشيخ. هذا حلم سيتحقق، ويثبت أنه سيتحقق. ألا يستحق أن يحصل على كل الأرباح؟ فهو الذى يقرأ، وهو الذى يجمع المادة، وهو الذى يكتب، وهو الذى يتابع الطبع والتصحيح، ويكتب اسم الشيخ على الغلاف، بل هو الذى يكتب المقدمة باسمه، والشيوخ يتلقفون الكتب ويوجهون الإعجاب والإشادة إلى الشيخ وحده، ولا أحد يذكره إلا إذا تأخر ظهور الكتاب أو طالت مدة تأليفه أو بقائه فى المطبعة. من ذا الذى يهتم به إذا نجح أو رسب فى الكلية؟ الأب والأم وحدهما هما اللذان يعيشان ألم الابن وأمله، وهو لا يدرى!

لا يعلم كيف تكون الأحوال إذا رسب وأعلنت النتيجة رسميا. لن يقدر على إبلاغ والديه، ولن يستطيع النظر فى عينى أحدهما. بالطبع سيقوم الطلاب الذين يعرفونه فى العزبة والقرى المجاورة بتسريب خبر رسوبه ونشره على نطاق واسع فى المنطقة. الأرياف لا يخفى فيها شيء. كل الأخبار، بل كل الأسرار تذاع بطريقة هامسة أو علنية، والناس يعلمون كل شيء بطريقة وأخرى، وساعتها سيقع الخبر على قلب الأب والأم وقع الصاعقة. ماذا جنيت يا خميس؟ خَرْط القَتَاد، وبضعة مئات من الجنيهات فى البنك! استقبله شيخ السلف الذى زوّجه هاشًّا باشًّا، وقال له:

– ماذا فعل الله بك؟

– خيرا.

– لكنك تبدو على غير ما يرام؟

– لقد جاءت المرأة فى أثناء الامتحان وأخبرتنى أنها حامل!

– وماذا فعلتَ؟

– لم أستطع الإجابة فى المادة، بل لم أكتب كلمة واحدة فى الورقة. سلمتها بيضاء من غير سوء!

– لا تهتم!

ثم انتقل شيخ السلف ليسأله عن الامتحان:

– هل ظهرت النتيجة؟

– لا أعلم. لأنى جئت إلى هنا بعد الامتحان مباشرة، ومضت فترة طويلة، ولا بد أنها ظهرت.

ثم سكت هنيهة، وأردف:

– وهى معروفة على كل حال.

قال شيخ السلف مستفسرا:

– كيف؟

– لن أنجح!

– إنك تنجح دائما بامتياز!

– لقد شغلنى الزواج والانفصال.

– ماذا ترى الآن؟

– لا رأى لى. الرأى لكم، فقد رأيتم أن أتركها دون أن أخبرها، ولكنها فاجأتنى بما لم أكن أتوقع!

خبط شيخ السلف على رأسه الحليق بأصابعه، وراح يفكر فى طريقة أخرى للحل، وينظر يمينا وشمالا وإلى أعلى، وطالت فترة صمته، وبددها بقوله مخاطبا خميس:

– ما رأيك؟ نعقد قرانك عليها رسميا، ثم تطلقها.

– كيف؟

– أظنها لن تدع الأمور تمر بسهولة. معنى أنها ذهبت إليك فى الكلية فهى تخطط لشىء ما. والأَوْلَى أن نحاول احتواء المشكلة.

– ألم تكونوا على معرفة وثيقة بها؟

– أخلفتْ ظنوننا!

– سأنتظر أى حل ينهى المسألة.

– سنفعل.

قالها دون أن يقول: "إن شاء الله" كعادته، ومضى. وبقى خميس فى مكتب الإدارة يتابع إعداد كتبٍ أو كتيباتِ الشيخ التلفزيونى، الذى طالت غيبته على غير العادة.

بدا لخميس أن ينطلق إلى قلب المدينة ليرى حركة الناس والشوارع والمحلات والكورنيش، فخرج لصلاة العصر مع الجماعة، وغادر فى سيارة إلى قلب المدينة، وعزم على قطع المسافات بعد ذلك على قدميه ليتعرف على المجتمع، الذى لا يهدأ طوال الصيف. ظل يجول فى الشوارع حتى قادته قدماه إلى محطة الرمل والكورنيش والبحر، فرأى مياهه الزرقاء التى تشبه مياه البحر عند قرية الصيادين. ابتسم فى داخله لهذه المشابهة الساذجة، فالبحر واحد. تذكر أباه وأمه وإخوته، وارتدَّ حسيرا إلى نفسه: كيف له أن يبلغهم بخيبته ومحنته؟ إنه لن يفعل. على الأقل فى الوقت الحالى. البحر أمامه يهدر بموجه، وزَبَدُه القطنى يتدفق سريعا نحو الشاطئ. يرى البحر نقيا طاهرا، ولكنه ليس كذلك. شهوته لوثت روحه، وأطفأت نور قلبه، وقذفت به إلى كشوف المهانة والرسوب!

راح يمضى بحذاء الكورنيش حتى كلّت قدماه، فانحطّ على كرسى حجرى. أعطى ظهره إلى الشارع، ومدّ بصره إلى الأفق الذى يجمع السماء بالبحر، وكأنه يحنّ إلى قريته التى يحملها فى دمائه، ولكنه يفتقدها. البحر الآن بالنسبة إليه هو قرية الصيادين بأبنائها الذين يبحرون بالمراكب والشباك باحثين عن الرزق، أو الذين يعملون بصبر ورضا فى صناعات سعف النخيل فينتجون الأقفاص والكراسى ومناضد الجريد، أو الذين يتغربون عن القرية فى المحافظات المجاورة يبيعون الملح والبلح النيّئ أو الناضج والسردين، أو الذين يسافرون إلى الخارج بحثا عن لقمة عيش أفضل، ومنهم أخواه اللذان سافرا دون أن يودعهما. البحر يعيده رغما عنه إلى أبيه وأمه، اللذين قاطعهما ولم يعبأ بمشاعرهما ولهفتهما عليه! عاد إلى الغرفة بعد وقت لا يدرى مقداره، ولكنه وجد رفاق الغرفة قد أخلدوا إلى النوم، فجذب حقيبته من مكانها، وسوّاها لتكون وسادة له، ونام ولم يستيقظ فى الفجر!

فى الضحى عاتبه بعضهم على عدم صلاة الفجر جماعة، فاعتذر بأنه تعب فى مشوار الأمس، وأنه سار على قدميه لدرجة أنه لم يشعر بنفسه وهو يضع رأسه على الوسادة! توقع الأتباع أن يصل الشيخ ومعه القيّم وبعض القيادات قريبا، وهناك من سيذهب لاستقبالهم فى المطار، فعزم خميس على المشاركة ضمن الوفد الذى سينتظر الشيخ والقيّم والآخرين. إنه يريد أن يكون فى بؤرة الضوء ليعوّض ما فقده فى الجامعة وينسى محنة الزواج السرى لبعض الوقت".

وقد كنت أظن، حين قرأت عنوان روايتنا الحالية، أن عنوان "اللحية التايوانى" هو من عنديات المؤلف لا علاقة لشخصيات الرواية به، وأنه قاله للإيماء إلى ضرب من الملتحين الذين يربون لحاهم لمخادعة الناس والله والرسول والمؤمنين، لكنى وجدت أحد الشبان فى الرواية يفرق بين لحيتين: لحية تايوانى،

ولحية أصلية. أى أن المصطلح شائع بين الناس، وليس من بنيات عقل المؤلف. وقد سبق أن قلت إن الذى يظن اللحية من أمور الدين وأنها دليل على التقوى والورع والتمسك بشعائر الإسلام ويشتغل بها ويضعها فى بؤرة اهتمامه إنما يفعل ذلك غالبا على حساب ما هو أهم حتى لو كان صادقا فى موقفه ذاك. ومن هنا فإنى لا أفهم أن تكون اللحية موضوعا للمفاضلة بين جماعة وأخرى، وكنت أحب لو كان موضوع المفاضلة شيئا آخر كالتفوق فى العلم والتعمق فى فهم غايات الإسلام وأنه دين العمل والإنتاج والإتقان والنجاح والإبداع والعدل والحرية والمرحمة والنظام والذوق الراقى والتواضع وسعة الأفق والتخطيط الجيد والتبصر لمواقع الخُطَا لا الاندفاع الأهوج نحو الهاوية بعَمًى وغباءٍ وسذاجة. هذا هو الفيصل لا المقارنة بين اللحى، وإلا فهل سمع أحد أن الرسول قد فعل شيئا من هذا أو أبا بكر أو عمر أو عثمان أو عليا؟ وهل فى القرآن أو فى الحديث أن الله لا ينظر إلى عملكم وإبداعكم، ولكن ينظر إلى ذقونكم ولحاكم؟ هذا للأسف تمييع للإسلام ذلك الدين العظيم.

وقد لاحظت أيضا كيف تتحمس بعض الجماعات الإسلامية أيام الأعياد لتعليق لافتات قماشية بعرض الشوارع ترشد الناس بها إلى أماكن صلاة العيد، بينما لا تهتم بإزالة أكوام الزبالة المزعجة المغثية الموجودة تحت هذه اللافتات. قد يقال إن ذلك ليس من اختصاصها. فهل تعليق اللافتات من اختصاصها؟ وأى الأمرين أولى بالاهتمام؟ إن الناس لا تحتاج إلى من يدلها على أماكن صلاة العيد، فالمساجد ومكبرات الصوت كفيلة بهذا، ولم يحدث أن ارتبك الناس فى أى عيد بهذا الخصوص، أما إزالة الزبالة فهو فرض، وتركه إثم. لكنْ فاتنا أن تعليق اللافتات أمر مظهرى يراه كل مارٍّ فيعرف أنه من صنع الجماعة الفلانية، أما إزالة القمامة فلها رب اسمه الكريم.

وثم نقطةٌ أخرى هنا حَرِيَّةٌ بالمناقشة، فقد ذكرت الرواية أن زملاء خميس فى الجماعة الإسلامية التى ينتمون إليها قد تباعدوا عنه لرسوبه فى الامتحان. وهذا أمر غريب لأن الرواية ذاتها قد أنبأتنا بأن مشايخ الجماعة يحرضون على عدم الاهتمام بالتعليم حتى يكون الأتباع جهلاء يسهل تطويعهم لما يريد أولئك الرؤساء. ومن ثم كان ينبغى أن يكون الطلاب على دين مشائخهم المخاتلين. لكننا نفاجأ بموقف يختلف عما كنا نتوقعه. واتصالا بما نحن فيه فالملاحظ أن الطلاب المنتمين لهذه الجماعات عموما لا يهتمون إلا بما يسمونه: "العلم الشرعى"، أى الفقه وعلم الكلام والحديث وما إلى ذلك، ويرددون فى هذا المجال ما يسمعونه ويُلَقَّنونه من المشائخ على أنه العلم اللدنى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، يرددونه بغشم وجهل وغباء ولا يفتحون عقولهم أبدا لنسمة هواء أو لمعة ضياء، ولا يرون للتاريخ أو الجغرافيا أو الفيزياء أو الكيمياء أو الجيولوجيا أو الرياضيات أو علم النفس أو علم الاجتماع أو تاريخ الأدب أو النقد الأدبى أية قيمة أو أى معنى أو مغزى.

ولا أنسى يوما قابلت فيه طالبا من طلابى فى تسعينات القرن الماضى فى أحد ممرات الكلية، وكنت لاحظت أنه يغيب عن محاضرات النقد القصصى التى ألقيها، فحاولت استيضاح السبب لأنى كنت أشيم فيه بعض الخير، فإذا به ينزل فوق يافوخى بإرزبة من جلافة الذوق وغباء العبارة قائلا: "لأن النقد القصصى لا يفيد فى الدين بشىء. إنه تضييع وقت ولا قيمة له". وعبثا حاولت أن أفهمه أن القرآن مملوء بالقصص وأننا، على الأقل لكى نتذوق تلك القصص ونتعمق فى فهمها، ينبغى أن نستعين بالنقد الأدبى بوجه عام، والقصصى بوجه خاص. لكن الطالب ولا هو هنا. لقد قال له مشايخه الضلالية هذا الكلام الأقرع، وانتهى الأمر. ولو نزل عليه ملك من المساء يفهمه غير هذا ما تقبل من كلام الملك

شيئا. وطالب آخر كان يحضر الدروس بجلباب، ويفاجئنى فى أول المحاضرة برغبته فى الخروج.

– لماذا يا بنى؟

– لأصلى العصر.

– ولم لا تنتظر يا بنى وتصليه كما أصليه بعد المحاضرة حيث يكون باقيا على المغرب فترة أكثر جدا من كافية؟

– لأنه لا بد من تأدية الصلاة على رأس وقتها.

– لكن الله سبحانه برحمته وواسع فضله جعل وقت كل صلاة عدة ساعات من أجل مواجهة موقف كهذا. بل إنه مسموح فى الإسلام جمع الصلاة حتى فى الحَضَر وبدون مرض أو مشقة منعا لإعنات المسلمين رغم أنى لا أفعل ذلك.

– لا، لا بد من الخروج.

– طيب، ولماذا لم تخرج قبل حضورى فلا تحتاج من ثم إلى استئذان ووجع دماغ وسين وجيم كهذا؟

فيسكت ولا يحير جوابا، بينما يتخايل من خلال ملامح وجهه شبح ابتسامة طفولية أحملها على أنه لا يزال طيب القلب. وأما تفسيرى لانتظاره حتى أدخل ثم الاستئذان للصلاة فأغلب الظن أنه مقصود لإثبات موقف على رؤوس الأشهاد بدلا من أن يمر الأمر فى هدوء لا يلفت الأنظار. بالمناسبة لم يعد ذلك الطالب يحضر المحاضرة أصلا، بل لم أعد أراه البتة.

وفى نوبة من تداعى الخواطر لخميس بطل الرواية تحت شجرة الجميز بالقرية على شاطئ النهر بعزبة الصيادين مسقط رأسه نقرأ ما يلى: "يذكر أنه دخل فى نقاش مع أستاذ التاريخ، وهو فى الفرقة الثانية، حول جماعة السلف وغيرها من الجماعات. قال لأستاذه:

– إن السلفية هى المنقذ من الضلال، وهى تستعيد أجمل عصر عرفه المسلمون فى صدر الإسلام.

سأله أستاذه فى حِلْم العالم الواثق الذى يصبر على طلابه وما يسمعه من قليلى العلم:

– هل السلفية التى تتبعونها هى صورة العصر النبوى؟

رد على أستاذه باندفاع الشباب:

– هم رجال، ونحن رجال، ونقتدى بالنبى الأعظم ﷺ.

– تقتدون به فى الشكل أو الموضوع؟

– نحن نقلده فى كل شيء.

ابتسم الأستاذ الطيب، وقال له بروح الأب الحانى:

– اسمع يا بنى. السلفية هى أن تستلهم الروح والمنهج والسلوك الذى كان. ولكن أغلب السلفيين اليوم يأخذون الشكل والصورة فقط. لا يعنيهم الروح ولا المنهج ولا السلوك. هل تفكرون مثلا فى العدل والإحسان وإيتاء ذى القربى؟ هل تَنْهَوْن عن الفحشاء والمنكر فى صورته الخطرة مثل أكل أموال الشعب وظلم الناس والبغى عليهم، أم أنتم مشغولون بالملابس وتربية اللحى وإطالتها دون تربية القلب والضمير والوجدان؟ جاء صوت حسن يوسف رافعا يده من وسط القاعة يقول:

– اسمح لى يا دكتور. إن هناك اهتماما غير عادى بالهوامش وترك الثوابت، وسمعت أن هناك كتيبا ألفه صاحبه المنتمى إلى جماعة السلف عنوانه: "القول السديد بأن دخول مجلس الشعب ينافى التوحيد"، وآخر عنوانه: "القول البتة فى تحريم لبس الكرافتة"، وآخر يقول: "إنزال الصواعق على من أكل بالملاعق"...

ولم يملك حسن نفسه من الضحك، فاهتزت القاعة بالقهقهة العفوية من الطلاب والطالبات. وابتسم الأستاذ ابتسامة هادئة، ووجه حديثه إلى خميس:

– لا تغضب يا خميس. زملاؤك يحبونك، وهم يريدون أن تكون الجماعة خادمة للإسلام وليس لنفسها فقط، وأن تكون نموذجا للمسلمين الصالحين وليست فصيلا ينتهز خصوم الإسلام أخطاءه لغمز العقيدة والتشهير بالمسلمين".

والواقع أن هذا شغل شيطانى غايته تشتيت العقل الإسلامى بعيدا عن جوهر الإسلام دين الحضارة والقوة والعلم والإبداع، وحصره فى ركن السخافات والخرافات والتفاهات. فالله قد خلق للإنسان فى جوفه قلبا واحدا لا قلبين لأن وجود قلبين يفسد أموره كلها، إذ الانشغال القوى يكون إما بالسطحيات والتفاهات وإما بالجوهريات والأساسيات. وغاية أعداء الإسلام شغل المسلمين بالسخافات المضحكات التى تُتَّخَذ فى ذات الوقت من أولئك الأعداء أنفسهم دليلا ساطعا قامعا على أن عقولهم عقولٌ تررلى لا تفيدهم فى شىء بل تضرهم كل الإضرار. والمسلمون بوجه عام لا يتنبهون لهذه المؤامرة التى يشارك فيها شيوخ الضلال والعار والشنار، تلك الثعالب الخبيثة التى تعمل بكل ما عندها من مكر والتواء على الظهور بمظهر التقوى والتشدد فى الحق، وما هى فى حقيقة الأمر سوى ثعالب خبيثة لا يرجى من ورائها خير بل ليس وراءها سوى الشر لا غير. وكيف ينتبهون، وقد غُيِّبَتْ عقولهم واستلذوا هم هذا التغييب الذى يريحهم من التفكير الجالب للصداع ووجع الدماغ والقلق واليقظة الدائمة بما فى ذلك كله من الإرهاق والمتاعب، بينما هم أحرص الناس على حياة: حياة لا كرامة فيها ولا عزة ولا استمتاع حقيقى بنعم الله سبحانه، بل مجرد حياة كحياة العجماوات والحشرات والزواحف والديدان؟

ومن الطريف أن صديقا من أصدقائه فى القرية كان يتندر على اهتمامه باللحية، ويستشهد بأحد الأبيات التى سقناها آنفا ضمن تهكم بعض الشعراء والكتاب العرب القدماء بهذا الاهتمام الغالى بإعفاء اللحية وكأن إعفاءها سوف يبوئ المسلمين قيادة العالم إلى الأبد: "لقد كان صديقه حسن يوسف يتندر عليه ببيت من الشعر القديم قاله محاربون ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، ولم يجدوا ما يأكلونه أو تأكله خيولهم:

ألا ليت اللِّحَى كانت حشيشًا فنُطْعِمها خيولَ المسلمينا

كنت أقول له:

– عيب يا حسن أن تهجو لحى المسلمين؟

فيردّ علىَّ قائلا:

– أنا أهجو اللحى التايوانى التى لا تخاف الله!

ثم يستطرد حسن مازحا:

– ما أطول لحى الحاخامات والقساوسة، ولا يستطيع أحد أن يشير إليها بكلمة. ولكنهم يشيرون إلى المسلم ذى اللحية يسخرون منه وينالون لأن المسلمين ضعفاء لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم ولا معتقداتهم، وينتهزون ما يفعله أصحاب اللحى التايوانى من أخطاء وموبقات لينالوا من الإسلام والمسلمين مع أن اللحية الإسلامية الحقيقية تشعّ طهرا وإخلاصا ونقاء وقوة، ومن يحملها يفترض أن يكون طاهر القلب والذيل والجيب. هذه اللحية الأصلية هى المستهدفة استهدافا شرسا من شياطين الإنس بالغمز واللمز والهجوم. ولهذا يجب أن تكون اللحية على مستوى المسؤولية الإيمانية".

هذا ما قاله صديق خميس، أما أنا فأرى أن أعداءنا يحبون بل يموتون فى انشغال المسلمين باللحية وأشباهها من الاهتمامات الشكلية، ثم يستديرون فى

ذات الوقت ليسخروا منا ومن هذا الاهتمام الفارغ بها الذى لا يقدم ولا يؤخر وليست له أية قيمة. إن مُحَمَّدا ﷺ لم يبعث لدعوة الناس إلى تربية اللحى، وإلا كان الأمر مضحكا، فالسماء لا يمكن أن تُنْزِل دينا بهذا الشكل يصيِّرنا مسخرة فى عيون الناس أجمعين. نبينا الكريم العظيم هو نبى الرحمة لا نبى اللحية. الإسلام جاء لتوعية الناس بأن لهم عقولا لا بد من إعمالها وتشغيلها، ولتنفيرهم من الخرافات والوثنيات، ولحثهم على العمل الصالح، وهو كل عمل من شأنه ترقية الحياة وتيسيرها على عباد الله وليس الصلاة والصوم فقط، ولتشجيعهم على الإبداع والإتقان والتخطيط السليم والدقيق فى مواجهة كل موقف يمرون به، ولحفزهم على التعاون من أجل الصالح العام، ولإثارة مشاعرهم الإنسانية الكريمة نحو إخوانهم فى المجتمع الذين تدهورت أحوالهم لا من كسل وتبلد ورغبة فى الأكل والشرب واللبس على قفا الآخرين بل من ظروفهم الصعبة التى لا يد لهم فيها، ولدفعهم دفعا لطلب العلم والترقى فى دنيا الثقافة والفكر ورقة الأحاسيس بدل المستوى المتدنى الذى يتمسك المسلمون به وكأنه مفخرة يعز عليهم أن يفارقوها إلى التقدم والتحضر، ولترهيف ذوقهم فلا يقبلون العيش فى شوارع قذرة تعج بالمطبات والحفر وبأكوام الزبالة وتسطع فيها الروائح المنتنة، ويعملون على أن تكون بيوتهم واسعة ونظيفة ليس فيها نتانة ولا عفونة. ولا أدرى كيف فات حسن فى هذا الحوار أن أعداءنا لا يفرقون فى سخريتهم بين لحية ولحية، بل يسخرون من اهتمامنا الذى لا معنى له باللحى أيا كانت جماعة الملتحى أو فرقته، وكأننا سوف ندك الكون بها دكا. كذلك ليس فى اللحى لحية إسلامية ولحية غير إسلامية. اللحية مجرد مظهر اجتماعى لا يعنى شيئا، وإن كان بعض الناس يظنونها من الدين، وليست من الدين، وبعضهم منافق يستعملها دريئة يخفى خلفها حقيقته

الثعلبية الشيطانية ليروج بين العوام والجهال والمغيبين على أنه مسلم تقى يخشى الله حق الخشية، بينما قد رباها ذلك الإبليس لغرض خسيس.

ومن هذه الأغراض الخسيسة الضحك على الناس وجمع الأموال منهم بغرض المتاجرة بها وإعطائهم أرباحا عالية لا تعطيهم إياها البنوك فى البداية ثم إذا بهم بعد ذلك فص ملح وذاب. وقد تعرضت الرواية لهذه المسألة، إذ كان شيوخ الجماعة قد جمعوا أموالا هائلة، وفى مواعيد قبض الأرباح الأولى أعطوا أصحاب الأموال الموظفة عندهم نسبة عالية من الفوائد، ثم توقفوا عن الدفع واختفى من كانوا يجمعون الأموال وكأنهم كانوا يشتغلون لحساب أنفسهم لا لحساب مشائخ الجماعة حتى تظل الجماعة بعيدا عن مرمى النيران. والنص التالى يوضح ذلك، والكلام فيه عن واحد من أعضاء مجلس الشعب الطيبين من نفس قرية خميس جاءه خلق كثير يشكون إليه خميس ويستنجدون به أن يساعدهم فى استرداد ما أخذه خميس من أموالهم بحجة توظيفها فى مشاريع تدر دخلا عاليا:

"فى الصباح استقل المواصلات العامة ليحضر جلسات المجلس كالعادة. لا يملك أحمد سيارة لأنه لا يملك ثمنها، ولم يحاول أن يستدين من البنك بدون فائدة أو يأخذ قرضا كبيرا وفقا لامتيازات النواب يسدده على أقساط طويلة. إنه راضٍ بنعمة الصحة والقدرة على العمل، ويزهد فى مظاهر الترف التى يحرص عليها غيره، ويحمل طعامه من البيت ليأكله مع زملائه عند الاستراحة بين الجلسات دون أن يطلب الوجبات الفاخرة من المطاعم الشهيرة كما يفعل بعضهم. وطالما هو بخير ويهضم ما يأكله فقد ملك الدنيا وما فيها.

عند الخروج من إحدى الجلسات التقى بقيادة أمنية مهمة حضرت لترد على طلبات الإحاطة التى تقدم بها بعض النواب. الرجل يكن احتراما كبيرا لأحمد، ويرى فيه نموذجا طيبا للنائب المسلم المخلص الذى لا يتربح بلحيته. عرض عليه

قصة خميس وأهل السلف والتهام أموال الضحايا من المواطنين، فأمهله يومين، ليخبره بما يتمّ. فى اليوم التالى وقف خميس أمام صديقه الباشا الذى يزوّده بالأخبار، قال له:

– دون لف أو دوران أين أموال الناس؟

– أية أموال؟

– التى توظفونها، وتدفعون ربح الشهر الأول ثم تختفون! هل أقول أكثر؟

– يا باشا. يا باشا.

وتلعثم خميس، فقال له الباشا بحزم وحسم:

– إذا كنت تنوى أن تلاعبنى بالكلام فأنت ضيفنا حتى تتكلم.

– سأتكلم يا باشا.

– قل.

– الأموال كنت أسلمها للشيخ عبده سلطان، وكان يشترى ببعضها أراضى بناء ويتركها حتى يرتفع ثمنها.

– يعنى: عملية تصقيع؟

– بالضبط يا باشا.

– وبقية الأموال؟

– كان يضارب فى البورصة!

ثم أردف:

– وكان يخسر كثيرا.

– وأنت؟ أين الأموال التى أخذتها لنفسك؟

– ضاربتُ فى البورصة، وخسرتُ.

– يعنى: لم تضفها إلى حسابك فى البنك؟

سكت خميس ولم ينطق، فهو يعلم أن حسابه تحت المراقبة، وخطواته مرصودة. تابع الباشا:

– صرتَ مليونيرا يا خميس، وصار شيوخك يملكون عشرات الملايين، وأصحاب تجارة وأنشطة بغير حدود: حاسبات ولوازمها، وأراض، وعقارات، ومواش، ومدارس خاصة، ومقاولات، وتوريد مستلزمات للمؤسسات التعليمية والصناعية، وتبادل منافع مع المسؤولين الفاسدين، ومكتبات، ومراكز تدريب على العلوم التقنية، وتنظيم دورات تدريبية فى البرمجة واللغات والاتصالات، ومستوصفات وعيادات، وسوبر ماركت، فضلا عن العمل فى الصرافة وتغيير العملة فى السوق السوداء، وتبرعات لا تذهب إلى أصحابها، وتحويلات الخليج التى لا تتوقف، ثم أكل أموال الناس بالباطل!

صمت خميس ولم ينطق، فقال له الباشا ليؤكد على معرفته بلصوصية الجماعة وفسادها:

– هل أخبرك بالمزيد أم تعيد أنت وشيوخك أموال الضحايا؟

ونطق بعد الصمت:

– ما تراه يا باشا!

– غدا تعيدون أموال الناس. أبلغ شيوخك بذلك. وبعد أن تتم المهمة عُدْ لتشرب الليمون.

– حاضر يا افندم!

وبينما كان يهم بالخروج استوقفه الباشا قائلا بصيغة موحية:

– نسيتُ أن أبارك لك شقة القاهرة!

أحنى رأسه ورد فى ذلة على الباشا:

– الله يبارك فيك.

وانطلق كالصاروخ إلى قيادة أهل السلف. دخل على القيّم مضطربا يلهث. قال له أبو فارس:

– مالك؟

أخبره بما قاله الباشا كلمة كلمة، وحرفا حرفا. فطلب النائب، وجلسا يتدبران الأمر. وجاء شيوخ التوظيف، فوجه إليهم أبو فارس الكلام قاطعا:

– الآن وفورا يتم إعادة الأموال إلى أصحابها، وإلا فأنتم تعرفون ما ينتظركم جميعا!

طأطأوا رؤوسهم، واستولى عليهم الذهول. لم يملكوا إلا الطاعة والتنفيذ، ولكن كيف، وقد ذهب جزء من الأموال فى البورصة، وجزء آخر مجمد، والباقى لا يفى بنصف ما يستحقه الناس؟".

كذلك وقع خميس فى شَرَكٍ نصبتْه له راقصة فاتنة سلطها عليه بعضهم فى جهة ما، وتزوجها عرفيا بورقة أبقاها معه ثم مزقها حين اكتشف أنها راقصة فى ملهى، ولكنه لما حاول بعد ذلك أن يدخل الشقة الفخمة التى اشتراها لها وكتبها باسمها طردته من أمام الباب شر طردة: "كان الخريف يعصف فى الخارج برياح متربة، والجو يبدو متمردا على الاعتدال الخريفى المعتاد، وخميس يجلس فى الصحيفة يمارس عجرفته مع المحررين والموظفين، ويتصل بدار النشر ليرى أخبار كتب التحقيق التى يقدمها له اللص المحترف وهل فرغت المطبعة من تجليدها أم لا، ثم يهاتف قياداته فى الإسكندرية ليقدم تقريره اليومى عن العاملين فى الصحيفة ودار النشر، وأحدث أخبار الحركة الإسلامية فى القاهرة، والأنباء التى تتردد عن حل مجلس الشعب، والاضطرابات التى تسهم جماعة السلف فى أحداثها.

كان يتحدث مع القيادات وذهنه مشغول بالراقصة اللعوب التى ضحكت عليه لأول مرة فى حياته وسلبت معظم ما معه: كيف سيواجهها؟ والشقة باسمها وتقيم فيها، والأموال التى حصلت عليها، وكيف سيواجه المجتمع لو علمت الصحافة المتربصة بالسلف لدرجة أن كاتبا شيوعيا ممن يعملون مع الأمن كتب مقالا طويلا فى صحيفة معروفة عنوانه: "أنقذوا مصر من الاحتلال السلفى!" مع أن الشيوعى يعلم أنه موظف مثلهم لدى الجهات الأمنية، كُلٌّ بطريقته؟

ماذا يقول لزوجته التى طلبت الانتقال إلى القاهرة لتكون حارسا عليه حتى لا يلعب بذيله؟ ترى لو علم أهله بقرية الصيادين ماذا سيكون موقفهم؟ هل يشمتون به؟ أم يقولون إنه ذنب الشيخ إبراهيم، الذى كان يتمنى أن يراه قبل موته، فلم تتحقق أمنيته، بل إنه لم يكلف خاطره لتشييع جنازته، بل لم يحضر فى اليوم التالى ليواسى أمه المسكينة؟ إنه لم يعطف على أمه بجنيه واحد. الذى قام بالعطف كان أحمد مفتاح، فقد جمع من الجيران والأهالى ما يغنى أمه عن مدّ اليد إلى الناس. ثم ماذا سيقول أخواه فى الغربة لو تسرّب إليهما الخبر أو عرفه من يعملون معهما من أهل القرية والقرى والعزب المجاورة؟

لم يعد يخشى الفضيحة أو هو يخشاها ولكن لا يبالى، فقد عرف منذ زمان أن المال هو كل شيءفى حياته: يعوضه عن نقص المؤهل العلمى وعن المنصب، ويعوضه عن أهله وعن القرية. يكفى أنه ينحاز إلى الجماعة التى لا تؤمن بالمؤهلات ولا المناصب ولا الجيش ولا الأهل ولا الموطن! الولاء للشيوخ وحسب!

ظل يفكر ويفكر، ولكن ما فعلته الراقصة اللعوب طعنه بسكين حادة. إنها أول طعنة مميتة. لقد أنقذه الأمن والشيوخ من الطعنات السابقة، ولكن هذه طعنة

نجلاء. فليذهب إليها فى الشقة التى اشتراها وكتبها باسمها. دق الجرس. تباطأت فى فتح الباب، ثم خرجت بروب شفاف وواربت فتحة الباب قائلة بصورة متحفزة:

– نعم؟

– ألا أدخل؟

– كلا!

– أتمنعيننى من بيتى؟

فسحبت صوتا مقززا من بين حلقها وأنفها، وقالت:

– هئ. هئ. من أنت؟

– زوجك الذى اشترى لك هذه الشقة.

– تحب أرفع صوتى، وأجلب عليك أمة لا إله إلا الله؟

– هكذا؟

– اذهب ولا تعد! وإلا أخبرت الصحف والإعلام وأخبرت الدنيا يا من كنت رفيقى!

رأى التفاهم مستحيلا. لم يجد بدا من العودة إلى الصحيفة. فكر فى القيام بعملية انتقامية بوساطة بعض البلطجية، ولكنه يخشى الفضيحة، ولا يخشى الله. فكر فى شحاته أبو مندور بلدياته العتيد، الذى صار مقدم برامج سياسية، ويتحول من التأييد إلى الرفض ومن الرفض إلى التأييد بسرعة الصاروخ. لقد أفنى معظم حياته الصحفية بين يَدَىْ من يُسَمَّوْن: أهل الفن. ولا بد أنه يعرف هذه الراقصة اللعوب، ويستطيع أن يعيد المياه إلى مجاريها، ولكنه لا يتورع عن اتخاذ الموضوع ذخيرة حية يوجهها إليه عند اللزوم!

هل يعترف للشيوخ بما فعل، وكثيرا ما اعترف بخطاياه وأسراره أمامهم، فانكسرت عينه وأنفه؟ لا يظنهم يستطيعون فعل شىء له. لو اعترف هذه المرة

فإن اعترافه يثير شكوكهم حوله، وسيتهمونه بسرقة الصحيفة والدار ليمارس الحبّ مع الراقصات وأشباههن. إن الشيوخ أكثر فسادا منه، وهو يعلم ذلك جيدا، ويرفعون بعض الشعارات الكاذبة مثل "الولاء والبراء" بينما يوالون المستبدين والمحتلين ولا يوالون الله، ويبرأون من الإيمان والهواية بينما يغرقون فى الضلالة والغواية. إنهم يتحدثون عن الحركة الإسلامية الواسعة حديثهم عن الأعداء، بل يصفونهم بالخوارج وكأنهم يشبهون أهل الكتاب الذين يقول فيهم الله تعالى: "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلا".

يعلم خميس أن شيوخه مع القوة المهيمنة التى تسيطر على مقادير الناس، فهم لا يريدون خدمة الدعوة ولا الإسلام. إنهم يريدون المال بأية طريقة، مع أن الإنسان لا يستطيع أن يغير المُقدَّر له فى الرزق بالسرقة أو الخيانة. ولم يتردد نائب الدعوة ذات يوم أن يمتدح الطغاة والمستبدين ويراهم أقرب إلى الدين، ويفضلهم على أبناء التيار الإسلامى الذين يملكون الوعى والفهم لما يجرى فى بلاد الإسلام، وأقدر على قيادة الأمة. بل إنهم فرطوا فى حق المظلومين منهم أمام جبروت الظلم والطغيان. ويذكر خميس جيدا كيف جعلوه جاسوسا على أسرة الشهيد بإذن ربه سيد بلال، الذى مات إثر تعذيبه فى جهاز الأمن. كان سيد رحمه الله من أتباع جماعة السلف، ولكن نائب الدعوة لعب دورا مشينا فى إهدار حقه، وعدم تمكين الشهود من الشهادة، وحرمان أهله من الدفاع عن حقوق ابنهم!".

هذا، ولا أظن أن الجماعات الإسلامية الأخرى تَفْضُل هذه الجماعةَ كثيرا، فالدَّخَل والغش والزيف فيها كثير، ورغم هذا تجد أتباع كل جماعة يتحدثون عن جماعتهم وكأنهم أفضل من الصحابة أنفسهم، ويحرصون على السمت الخارجى حرص الشحيح على ماله بل أشد. وشىء آخر: أنهم لا يهمهم إلا جماعتهم حتى

إنهم لو عرفوا إنسانا يهتم بالإسلام أعظم الاهتمام لم يفكروا فى تعضيده ولا فى تشجيعه، اللهم إلا إذا كانوا بحاجة إلى جاهه وسمعته، فعندئذ يتقربون منه إلى أن ينالوا منه مبتغاهم، ثم باى باى. بل كثيرا ما يؤثرون التعاون مع العلمانيين وأشباههم على خدام الإسلام، والحجة جاهزة بل معلبة: "المواءمات"! فهذا العيب القاتل ليس من خصائص الجماعة التى أخذت الرواية على عاتقها تشويهها، ومعها كل الحق، بل هى سمة عامة فى الجماعات الأخرى. ولله الأمر من قبل ومن بعد! وهذا هو السبب فى فشل تلك الجماعات كلها فى المهمة التى تدعى جميعا أنها تأخذ على عاتقها أداءها، ولم تصل إلى شىء. لقد شغل الثعالب الناس بالتفاهات والقشور، وكان أولئك الثعالب يتكالبون طوال الوقت على الدنيا وعلى أحقر ما فيها بأحقر ما فيهم هم أيضا. وهذه هى النتيجة: خذلان إلهى مستديم.

ومع هذا كله لقد أفدت من قراءة الرواية فى تأكيد ما كنت أعرفه من بعيد عن تلك الجماعة وأشباهها من الجماعات الأخرى، وفى معرفة ما لم أكن أعرفه أو كنت أعرفه ولكن بغموض وبدون تفصيل وبغير عمق. ومن الواضح أن المؤلف على دراية واسعة بأوضاع تلك الجماعات، وإن كنت أختلف معه فى تكويمه العيوب على جماعة منها واحدة، إذ أوحت الرواية بأن الجماعة التى تقف منها على طرفى نقيض هى جماعة مستقيمة تمام الاستقامة يخشى أبناؤها الله، فأنا أرى أنهم كلهم فى الهلس والاهتمام الحاد بالمظاهر على حساب الباطن والتعصب الضيق الأفق للجماعة شرقٌ. والملاحظ أيضا أن الكاتب خبير فى الحديث عن منطقة بلطيم وقرية الصيادين المقابلة لها على الناحية الأخرى من البحر، وكيفية معيشة الناس هناك وتفاصيل حياتهم وخباياها، فهو من قرية تقع على بحر كبير هو "بحر سيدى إبراهيم الدسوقى" كما كنا نسميه ونحن صغار، ويبرع فى إدارة الحوار

بين أبطال الرواية على اختلاف طبقاتهم وميولهم ومهنهم، وفى تصوير شخصياتهم، وإن كان قد ركم العيوب كلها فى جانب، وأبرأ الجانب الآخر متمثلا فى الأستاذ أحمد تمام الإبراء. وقد استعان فى تأليف روايته بكثير من الأحداث التى نعرفها من خلال وسائل الإعلام ونعرف أصحابها، وجاء هذا كله على نحو سلس إلى حد كبير لا تكلف فيه ولا غشم ولا اندفاع.

ومن المفارقات العجيبة فى الرواية، وهو ما يحدث فى الحياة كثيرا، أن أَخَوَىْ خميس، اللذين لم يتعلما تعليما عاليا، وتغربا من أجل لقمة العيش الشحيحة، قد عادا إلى أرض الوطن فى نهاية المطاف وقد استطاعا أن يقتصدا من الرزق الصعب الذى كانا يحصلان عليه فى الغربة ما كفل لكل منهما الزواج وفَتْح بيتٍ سعيد، بينما خميس الكبير، الذى دخل الجامعة وكان يَعِد بمستقبل باهر ونجح فى السنتين الأُولَيَيْن بامتياز جعل كل من يعرفه يتوقع له أن يكون معيدا يترقى مع الأيام حتى يصير أستاذا جامعيا عظيما، قد فشل فشلا فظيعا، فلم يكمل تعليمه ولم يتزوج زيجة طيبة قط، وجرى المال فى يديه بدون حساب، ولكن الله لم يبارك له فى شىء، وانتهى الأمر بالفضائح ودخول السجن، فى الوقت الذى كانت أمه ترقص فى دخلة ابنيها الآخرين فرحة بهما دون أن تدرى شيئا عن ابنها الأكبر العاق الذى لم يعد يسأل عنها أو عن أبيه من قبل أو يتشوق إلى القرية.

ومما يحمد للكاتب أنه، مبكرا جدا ومنذ بداية الرواية، جعل الأب يقلق على ابنه الأكبر خميس، وإن كان قلقا غامضا، حينما شعر أنه يفارق السرب الأسرى فى القرية ويلتحى ويلتحق بجماعة دينية، إذ كان تدين الأب أبسط من ذلك وأكثر مباشرة وسلاسة، فلم يرتح لاتجاه ابنه، وأحس أنه يحبِّك الأمور ويجنح بعيدا عن التدين الذى يعرفه وكانت مصر تعرفه طول عمرها. وقد صدَّقَتْ هواجسَه الأيامُ والليالى، فانتهى ابنه إلى السجن بعدما فشل فى زيجتين اثنتين، وإن

كان الله سبحانه قد رأف به فأماته قبل أن ينتهى الابن إلى ذلك المصير المخزى. وهذه براعة من الكاتب، إذ لم يفاجئ القراء بتحول خميس وانحرافه على نحو مباغت، بل جعل لذلك مقدماته فى شكل قلق أبوى. وكثيرا ما تقول قلوب الآباء والأمهات لهم كلاما مهما مباشرا لا يحتاج إلى تفكير وتعليل، وتصدقه الأحداث.

ويجرى الحوار فى روايتنا هذه بالفصحى دون أن يشعر القارئ بأية غرابة، وبخاصة أن أسلوب د. القاعود يتسم بالبساطة وينفح بعبق الواقعية، وبالذات الواقعية الريفية، فهو طول عمره يعيش فى قريته المجاورة لدسوق وتقع على البحر، ويعيش فيها ناس يعملون بالصيد أو يمر الصيادون بها فى قواربهم ومراكبهم. وقد حدث لى ذات صيف فى تسعينات القرن الماضى أن ركبت المعدية فى رأس البر وزرت قرية الصادين قبالتها على الشط الآخر من النيل وجست خلالها ثم عدت مرة أخرى إلى المصطاف. ومن هنا كان سهلا علىَّ أن أتفاعل مع الرواية وشخصياتها ووقائعها وأعيش روحها.

وقد سألنى بعضهم: أترى د. القاعود يشبه مُحَمَّد عبد الحليم عبد الله؟ فكان جوابى النفى القاطع: فالموضوعات مختلفة تماما، والأسلوبان متباعدان: أسلوب مُحَمَّد عبد الحليم عبد الله مفعم بالصور البيانية والتعبيرات الطريفة التى لا تخطر على بال أحد غير مُحَمَّد عبد الحليم عبد الله، وإن كنت لا أضيق صدرا به كما فعل بعض اليساريين، فلكل كاتب طعم أسلوبى مميز. وأسلوب القاعود أسلوب مباشر وسلس ولا يهتم بالزخرفة البيانية إن صح القول كما كان يفعل مُحَمَّد عبد الحليم عبد الله، الذى قرأت له رحمه الله عددا من رواياته، وأعظمها فى نظرى هى "شمس الخريف"، التى قرأتها مرتين على الأقل: مرة وأنا بالجامعة، ومرة بعد ذلك بعدة عقود، وفى كل مرة كنت أستمتع بها غاية الاستمتاع، وبالذات فى المرة الأولى

حيث وجدت فيها بلسمًا لأحزانى التى كنت أمر بها فى ذلك الحين. وعلى هذا فإنى أستطيع أن أصدر حكمى فى تلك القضية وأنا مطمئن.

لكن الرواية التى بين أيدينا تذكرنى برواية "عمارة يعقوبيان" فى بعض مواقفها، وإن كانت نقطة انطلاق كل من الروايتين مختلفة: فعلاء الأسوانى قد خرج يطلب رقبة الاتجاه الإسلامى كله على بكرة أبيه، أما حلمى القاعود فقد حصر همه فى السلفيين وحدهم، وأخذ عليهم لا اتجاههم الإسلامى ذاته بل غرامهم المرهق بالشكليات التى لا طائل وراءها ولا أمامها، وجئت أنا فأخذت فى رِجْلَىَّ هؤلاء وأولئك معا اعتمادا على ما رأيته وخبرته ممن عرفتهم من الفريقين لدن احتكاكى بهم. وقد ركزت كما ركز المؤلف على اللحية وأشبعت تلك المسألة كلاما وبحثا، وأوضحت أن الإسلام أعظم وأضخم من أن نربطه باللحية على أى وضع. إنه دين الحضارة الإنسانية الراقية والقيم النبيلة والمبادئ السامقة، وليس دين التفاهات والشكليات الصغيرة التى لا تليق بدين أتى به مُحَمَّد الرسول الكريم العظيم من عند ربه جل وعلا. كما أن القاعود أكبر من أن يقع فى السخف الذى وقع فيه كاتب "عمارة يعقوبيان" حيث رأينا وسمعنا فيها الرجال فى المسجد يوم الجمعة يهتفون وقت إلقاء الخطيب خطبته من على المنبر على حين تزغرد النساء المصليات. وهو ما يدل على أن الكاتب لا يعرف شيئا عن المساجد، اللهم إلا إذا كان قد دخل الرواية وفى ذهنه الإساءة إلى المساجد وروادها حتى والخطيب يخطب يوم الجمعة. كذلك لم يرتكس القاعود فى التفاصيل الجنسية المقززة كما فعل صاحب "عمارة يعقوبيان" رغم أن الجنس فى حد ذاته لا ضير فيه، بل هو غريزة حياتية لولا هى لما كانت هناك حياة أصلا، فضلا عن أن تتناسل وتتكاثر البشرية وتصير أجيالا تتتالى. فإذا أضفنا أن الجنس فى "عمارة يعقوبيان" هو جنس حرام زاد التقزز منها. لا أقصد أن على الروائيين أن يتجاهلوا

الحرام فى رواياتهم بل أقصد أنه لا ينبغى الإلحاح على ذلك وإيراد كل تلك التفصيلات التى زكمتنا روائحها الكريهة فى تلك الرواية.

وهناك رواية أخرى قد تلتقى مع رواية د. القاعود فى بعض النواحى، وهى رواية "قسمة الغرماء" ليوسف القعيد، إلا أن تلك الرواية هى رواية تافهة سمجة مفككة غشيمة تعمل طول الوقت على التحكك بالمسلمين وإيذائهم بكل سبيل سخيف وسمج بما فى ذلك افتراء الكذب الرخيص المتدنى الذى لا يمكن اغتفاره كما وضحت تفصيلا فى كتابى عنها الصادر عن "مكتبة جزيرة الورد" فى أواخر العقد الأول من قرننا هذا.

وقد نجح الكاتب فى تجسيد كل ما يريد أن يقوله فى روايته، وفى جعل التصرفات والمواقف خاضعة لقانون العلية، فليس هناك شىء حدث "كِدَهُهْ"، وهو ما سماه أنيس منصور يوما: "الكِدَهُوِيّة" مكوِّنا من تلك الكلمة العامية مصدرا صناعيا ظريفا، بل لا بد أن يكون وراءه سبب من البيئة أو الجماعة التى يتحرك فيها أو ينتمى إليها أو من شخصيته هو أو من هذا كله... لقد كان خميس شابا مستقيما فى البداية، وانضم إلى جماعةتهتم بالدين، والدين شىء حساس وحيوى بالنسبة للشباب عموما، إلا أن إفراط الجماعة التى ينتسب إليها خميس بالمظاهر وإهمال الباطن، وما رآه من شيطنة كثير من قادتها وتهافتهم المقيت على الدنيا واستغلالهم له فى تأليف الكتب باسمهم وتلاعبهم بأحكام الدين وتطويعها لشهواتهم وغاياتهم قد سمم عقله وقلبه وأفقده توازنه الذى أتى به من عند أمه وأبيه وبيئته البسيطة الأولى. وهذا يذكرنى بما كنت قد قرأته أو سمعته لا أدرى أين ولا متى من واحد كان ينتمى إلى جماعة دينية ثم انخلع منها، فقال إن هناك ثلاثة أشياء تسيطر على شخصيات الكثيرين منهم وتصرفاتهم: الجنس والمنصب والمال. وواضح أن هذا ينطبق إلى حد كبير على القوم ولو بوجه عام.

لكن على الناحية الأخرى لدينا الأستاذ أحمد مفتاح، وهو على العكس تماما من خميس، بل أقرب إلى أن يكون من الملائكة، وهو ما لا يتفق والطبيعة البشرية: فهو خيِّر دائما، حلال للمشكلات، ليس فى قلبه ولا فى عقله موضع للدنيا ولا للتفكير فى المصالح الشخصية التى لا تمضى الحياة بدونها، بل هو زاهد فى كل شىء، وعلى استعداد دائم لمعاونة الآخرين دون انتظار لأى شىء آخر، وليست لديه أية مشاكل شخصية أو أسرية. وقد ظهر هكذا فى الرواية منذ البداية، وظل هكذا حتى النهاية لم نر منه شيئا سيئا ولا ضعفا ولا ارتباكا ولا ترددا قط، فشخصيته ثابتة لم تتطور، ولا تعرف سوى الخير، والخير الخالص الذى لا تشوبه شائبة. وهو ما يدفع إلى الاستغراب رغم أنه يمثل الواحة الخضراء الظليلة فى الرواية من هجير الحياة الذى يكاد يحرق كل شىء والذى يهب علينا من ناحية خميس وكل من ينتمى إليهم خميس من قادة عفاريت وزعماء شياطين. بل إن اسمه هو أيضا مفعم بالإيحاءات الحسنة، فهو أحمد (من الحمد، إذ كل شىء فيه محمود ويستحق فعلا وحقا الحمد)، ولقبه مفتاح (فهو مفتاح لكل خير وحُسْن، ولا تقف أمامه مشكلة، بل يحل جميع المعضلات حَلًّا). وعلى الناحية الأخرى لدينا خميس، وهو اسم شعبى يناسب بيئة الصيادين الذين كان أبوه واحدا منهم.

إلا أننى لاحظت أن عم إبراهيم والد خميس، حين سافر ابناه ليعملا فى الخليج ويجمعا قرشين يتزوجان بهما ويبدآن عملا يتعيشان منه بعد أن لم يعد الصيد لأسباب أوردتْها الرواية يدرّ دخلا كافيا لأية معيشة كريمة، لاحظت أن عم إبراهيم حزين غاية الحزن لفراق ولديه، وهو ما لا يتسق مع ما نعرفه من مشاعر أمثاله فى تلك الظروف، إذ يكونون سعداء أَنِ استطاع أولادهم السفر لدول الخليج، ويبذلون كل غال ورخيص فى سبيل توفير تذكرة السفر وما إلى ذلك، وتصير الأسرة كلها هدفا للغبطة بل للحسد، والحسد السيئ. صحيح أن

المصريين، كما قيل للشيخ إبراهيم ساعتئذ، كانوا يعدون أنفسهم غرباء لمجرد الذهاب إلى المركز الذى تتبعه قريتهم. لكن ذلك قد صار من الماضى البعيد. لقد أصبح السفر إلى دول الخليج بمثابة دخول الجنة، إذ كلها عدة سنوات يعود بعدها المهاجر بما يكفى من المال لبناء شقة أو بيت ودخول دنيا. ثم هو فى الغالب لا يكتفى بهذا بل يعاود السفر تاركا زوجته مع أهله، ونازلا كل سنة أو سنتين مرة بما يترتب على هذا من مشاكل أسرية، إلا أن هذه نقرة أخرى.

شغفها حبا

هذه الرواية هى أفضل ما قرأت للدكتور حلمى القاعود. إنها رواية رائعة. ولسوف أسرع بالدخول فى نقدها، وأقف أول ما أقف لدن عنوانها. وأذكر هنا أن زوج ابنتى رأى على مكتبى قبل أيامٍ هذه الرواية، فشدَّه عنوانها، والتقطها فى الحال وشرع يقرأ فيها، وبخاصة حين وجد المؤلف يصدِّرها بقوله تعالى: "وقال نسوة فى المدينة: امرأةُ العزيز تُراوِدُ فتاها عن نفسه. قد شَغَفها حُبًّا. إنا لنراها فى ضلال مبين"، فحَسِبَ أن الرواية تدور حول سيدنا يوسف عليه السلام وامرأة العزير، التى شغفت به حبا أفقدها رشدها وأنساها وضعها الاجتماعى ومركز زوجها السياسى وأرادت أن تمارس معه العشق والغرام غير مبالية برجلها ولا بنظرة فتاها إليها ولا بكلام الناس عنها ولَوْك صديقاتها لسيرتها. ثم لما انتهى خَتَنِى من الصفحة الأولى تبين له أن ظنه فى غير محله وأنه ليس للرواية أية وشيجة تصلها بيوسف عليه السلام وزليخا زوجة العزيز، بل تدور حول موضوعات معاصرة، وأبطالها من أساتذة الجامعة، وما إلى ذلك.

والواقع أن العنوان مأخوذ من جملة عابرة وردت فى واحدة من حكايات الرواية الثلاث. ولا علاقة البتة بين الرواية والآية الكريمة ولا قصة يوسف وزوجة العزيز على الإطلاق، بل لا علاقة بين الحكاية المذكورة وبين قصة يوسف بأى نحو من الأنحاء. ليس هذا فحسب، بل إن الحكاية المقصودة ليست هى محور الرواية الجوهرى، بل حكاية سيدكُبَّايَة هى الحكاية المحورية. وكما قلت فالرواية، فى نظرى، أحسن روايات د. القاعود وأحفلها بالفن وأشدها حراراة وأنضحها بالإلهام وأقواها تأثيرا علينا نحن القراء والنقاد حتى إنى لأتوقع، لو كان جمهور القراء والنقاد الآن كجمهور القراء والنقاد فى صبانا وشبابنا، أن يشيع لقب "سيدكباية"

والنَّبْز به كما شاع لقب "سِى السيد" مثلا بسبب "ثلاثية" العملاق نجيب محفوظ، ذلك الذى اتهمنى بعض الناس تسرعا ونزقا قبل سنوات بأنى شتمته واتهمته فى إيمانه. أستغفر الله! وكيف أقول هذا وأنا أكرر وأؤكد دائما قبل حصوله على نوبل أنه يستحق نوبل وأم نوبل وأبا نوبل أيضا إن كنا نعرف من أبوه، ويرن فى ذهنى دائما ما كان يقوله العقاد رحمه الله عن استحقاقه هذه الجائزة "من زمان"، والعقاد هو من هو نقدا وإحكام رأى وبعدا عن الترخص فى مثل تلك القضايا، وفوق ذلك فإنى معجب أشد الإعجاب بـ"أولاد حارتنا" وقرأتها أكثر من مرتين، وإن كانت تعانى من بعض العيوب التى ذكرتها فى دراستى الطويلة عنها؟

لقد رجتنى رواية "شغفها حبا" رجا شديدا وأنا أطالعها رغم عدم موافقتى على اختيار العنوان، وانتهيت من مطالعتها وأنا مبهور الأنفاس لشدة وقعها على نفسى وتنفسى. ولكنى رغم ذلك لا أدرى لم اختار مؤلفنا هذا العنوان، ثم لم يكتف بهذا بل عضده بالآية الكريمة المقتبسة من سورة "يوسف تأكيدا لاختياره. ويغلب على ظنى أن تدينه هو المسؤول عن ذلك. وربما أراد أيضا تشويق القراء وإطماعهم فى قراءة الرواية، وإن كانت أقل نظرة فى أول صفحة منها كفيلة بإطارة هذا الوهم من دماغ الشارى كما حدث مع خَتَنِى.

وسر إثارتى لهذا الموضوع ما شاع بآخرة فى مقالات النقد التطبيقى من الحديث عما يسمى فى الترجمة العربية بـ"عتبات النص" والبدء بها دائما وكأنها الطهارة التى لا تصح الصلاة بدونها، ومن التنطع فى الكلام عنها وعن أهميتها وقدرتها على فض كثير من مغاليق النص وما إلى ذلك من هذا الكلام المتهافت التافه الذى يظن كثير جدا منا أنه ما دام قد أتى لنا من الغرب فهو الحق الصراح الذى لا يمكن أن يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ولا من يمينه ولا من شماله ولا من فوقه ولا من تحته. سخف ما بعده سخف، وبخاصة أن أغلب ما

يكتب فى هذا الموضوع كلام لا رأس له ولا ذيل ولا طعم له ولا رائحة ولا معنى له ولا مغزى، كلام بارد تحس أنه لا يخرج من قلب ولا من عقل، وإنما هو أداء واجب والسلام، يفيض بالتنطع وثقل الظل، وتحس أن صاحبه فاضٍ فُضُوًّا تامًّا لا شىء يشغله، فهو يتمطع ويتنطع براحته، وقد نفرت عروقه وزحرت أنفاسه وكأنه فى ولادة متعسرة. خيبة الله على كل متساخف قليل العقل ضيق العطن يتصور أن اهتماماته التافهة ينبغى أن تشغلنا، وعلى كل قارئ ضائع يصدّق هذا السخف ويتصور أنه هو النقد كل النقد. وللمرة المائة نقول: إن هذه العتبات ليست من النص ولا النص منها. وكثيرا ما يستشهد المؤلف فى أول كتابه بعبارة براقة مشهورة لهذا الكاتب أو ذاك دون أن يكون بينها وبين كتابه هو أية وشيجة. وحتى لو كانت فما دخلها بقيمة الكتاب الذى ألفه؟ ألا إن هذا شىء، وذاك شىء آخر. وكثيرا ما كانت العبارة العَتَبِيَّة رائعة، لكن الكتاب الذى هى عتبته كتاب قمىء أراد صاحبه أن يستر قماءته بتلك العبارة، وهيهات.

ثم هناك الغلاف والصورة المرسومة عليه ولونه وخط العنوان وما إلى هذا مما يمكن أن تشتعل بسببه الحرب الكونية الثالثة، أجارنا الله من الحروب كونية كانت أو محلية. ترى ما دخل المؤلف المسكين بتصميم الغلاف بل وبتصميم الكتاب كله من نوع الورق ولونه ووزنه ومقياس الصفحات والخط والبنط؟ إن المصمم شىء، والمؤلف شىء آخر. ولدينا هنا مثلا غلاف روايتنا التى بين أيدينا: وحجم الرواية عرضا وطولا وسمكا حجم مقطقط ظريف رغم أن الرواية كلها مآسٍ. كما أن ألوان الغلاف لا توحى بشىء مما تحتويه. وهناك سلسلة من المصابيح الكهربية الصغيرة لا أدرى ماذا تفعل هنا. كما أن ثمة وردة حمراء وفيها ورقتان خضراوان لا أعرف إلام ترمز، وهى موضوعة إلى جانب قلم فوق كتاب مفتوح مما يناسب الطريقة التى تتصرف بها المراهقات المترفات حين يكتبن خطابات غرامية. وعلى

يمين الوردة والقلم فنجان قهوة لا أدرى أهو مملوء أم فاضٍ، ومن يدرى فربما لم يكن فنجان قهوة بل فنجان كاكاو مثلا أو قرفة أو ينسون أو زنجبيل. وهناك أيضا صورة شاحبة لبعض الأشجار الجرداء لا أعرف سببا لوجودها. وقد أخبرنى ابن المؤلف أن المصمم فى الغالب وجد هذه الصورة على المشباك (الإنترنت)، فأخذها ووضعها على الغلاف كما هى دون أن يكون هناك أى مغزى لأى شىء فيها.

ومع هذا فكثيرا ما أرى التافهين يقفون عند مثل هذا الغلاف طويلا ويعملون بأمخاخهم الزنخة على إظهار براعتهم النقدية التافهة مثلهم فى استنطاقه ومحاولة الربط بينه وبين مضمون الكتاب وشخصية صاحبه دون أن يفهموا أن الأمر لا علاقة له بالأديب أو فكره أو موهبته من قريب أو من بعيد، ومن ثم كان على الناقد الأدبى إهماله والتركيز على العمل ذاته. وكيف يفهمون، وهم قد سدوا آذانهم وأغلقوا عيونهم، فطمس الله على بصائرهم وعقولهم فلا يهتدون إلى الحق أبدا؟ وحتى لو كان للأمر علاقة بالمؤلف فهل المؤلف هو صاحب التصميم حتى نشغل أنفسنا به؟ وحتى لو كان هو صاحب التصميم فهل النقد الذى نكتبه يدور حول إبداعه الأدبى أم حول تصميمه للغلاف؟

يا خَلْق هُوهْ، فليكن عندكم شىء من الفهم والحكمة، ولا تكونوا ببغاوات وقرودا، وقد خلقكم الله بشرا لهم أمخاخ وعقول وقدرة على الفهم والتحليل والتدقيق والتمييز بين الصواب والخطإ، وبين الغث والسمين. ولكن على من تتلو مزاميرك يا داود؟ أرح نفسك واعمل مثل سعد زغلول حينما نادى وقد تمدد على السرير استعدادا للموت: "يا صفية، غطينى والطمى!"، ثم تمطى ومات، وأراح واستراح. الله يخرب بيت العتبات ومن ابتدعوا العتبات! كان يوما أغبر يوم ابتدعوها.

على أن ثم عتبة أخرى هى عتبة الإعلانات التى تعلنها شركات النشر على الغلاف الخلفى للكتاب أو فى أى مكان آخر منه. فماذا ينبغى أن يقول الناقد فيه؟ لا ينبغى أن يفتح فمه بكلمة وليركز فى العمل الإبداعى ذاته، فليست الإعلانات من شأنه ولا همّه. وبالمثل هناك عتبة المقدمة والدراسة اللتين يكتبهما المحقق أو أى شخص آخر غير صاحب العمل. وعلى الناقد ألا يزعج نفسه ويزعجنا بالتعرض لهذا، فهو أمر آخر لا شأن للمبدع به. وثم نوع كل من الورق والحرف ولونهما ومقياسهما، والصحة أو الأخطاء المطبعية. وهذا أيضا لا شأن للناقد به. وأذكر أننا قرأنا كثيرا من كتب المازنى فى ستينات القرن الماضى وسبعيناته فى طبعات رديئة مملوءة بالأخطاء المطبعية، ومع هذا كنا من الحصافة رغم صغر أسناننا بحيث لم نجعل من الحبة قبة ونتنطع فنتحدث عن هذه العتبة، إذ لم يكن موضوع العتبات قد عُرِف ولا أثير بعد، بل استمتعنا بإبداعات الأديب الكبير من مقالات وأحاديث وقصص وصور أيما استمتاع. لقد كنا نتعامى عن كل ذلك ونشاهد أمامنا المازنى بأسلوبه المتميز وروحه التى لا تشبهها روح أخرى خاليين من كل العيوب والأخطاء، وكأننا نقرأ أفخم الطبعات على أنصع الورق وبأجمل الحروف وأنسب الأبناط. باختصار ليس للأديب المبدع سوى عمله الأدبى الذى أبدعه، أما ما خلا هذا من تصميم للغلاف أو استشهاد بحكمة أو مثل أو بيت شعر أو كلمة مأثورة أو اقتباس فليس من شأن الناقد. ببساطة لأنه ليس من إبداع الأديب.

وهناك أيضا عتبة من نوع مختلف تنتظرنا بعد العتبات السابقة، ألا وهى عتبة التنبيه والتحذير من أن يظن ظانٌّ أن هذه الشخصية أو تلك من شخصيات الرواية هى ذلك الشخص أو هذا من أشخاص الحياة. والمؤلفون الذين يفعلون هذا يفعلونه تحسبا للعواقب، فكم تعرض المؤلفون لمواقف محرجة، وأحيانا

لخصومات ومعارك واعتداءات لفظية وجسدية بسبب تصور بعض من حولهم أنهم هم الأشخاص الفلانيون أو العلانيون السيئون فى قصصهم. وأذكر فى هذا الصدد ما قرأته لصنع الله إبراهيم من أن بعض أقاربه ظنوا أنهم هم المقصودون فى إحدى رواياته المسيئة فقاطعوه. كما قرأت أشياء مثل هذه عن قصاصين آخرين.

يقول مؤلفنا الهمام فى هذه العتبة: "هذه الرواية من وحى الخيال، وأى تطابق بين الشخصيات أو الأحداث غير مقصود. لذا لزم التنويه". وقد وقعت الآن على تحذير مشابه سجله أحد الفيسبوكيين الليبيين، إذ كتب فوق قصة قصيرة نشرها فى صفحته ما نصه: "القصه من وحى الخيال، ولا تمت للواقع بصلة". وأنا عادةً متى قرأت مثل هذا التحذير فى بداية أية قصة انعكس تأثيره عندى وقام فى خاطرى أن الرواية حقيقية أو شبه حقيقية، أعنى: فى خطوطها العامة على الأقل وليس حرفيا، وأن صاحبها كتبها من تجاربه الذاتية وتجارب من حوله وأنه يخشى أن يغضب أحد ممن صورهم تصويرا شنيعا فى روايته، فهو يريح نفسه منذ البداية ويعلن أن ذلك كله من وحى الخيال مع أن أى إنسان له علاقة بالأدب والنقد يعلم تمام العلم أن الخيال لا يأتى بشىء من الهواء بل مما تمتلئ به حصّالة النفس مما مر بالشخص أو قرأه أو سمع عنه. بل فى كثير من الأحيان يكون الإلهام مستقًّى من دائرة المؤلف الضيقة، ثم يعمل الخيال بعد ذلك عمله، فيغيّر هذه التفصيلة أو يحوّر تلك السِّمَة أو يستبدل بهذا الاسم اسما آخر أو يخلط شيئا من تلك الشخصية بشىء من هذه أو يقلب الأمر رأسا على عقب... المهم أن الخيال المطلق الذى لا علاقة له بالواقع ليس له وجود.

وأذكر مرة وأنا صبى أنى كتبت قصة قصيرة ساذجة فوصفت الغابة التى كان يسير فيها الحبيبان. وطبعا سوف ينط لى أحدهم قائلا: إن هذا لأكبر دليل على أن الخيال يمكن أن يكون مطلقا لا علاقة له بالواقع، وإلا فأين يا أبا خليل رأيت

غابة حتى تصفها فى قصتك هذه؟ والجواب سهل جدا لمن أراد أن يبصر الحقيقة. صحيح أننى لم أكن رأيت فى حياتى الواقعية حتى ذلك الحين غابة، لكن لا تنسَوْا أننى شاهدت غابات لا غابة واحدة فى الأفلام الأجنبية، وقرأت وصفا للغابات فى عدد من القصص المترجمة عن اللغات الأوربية، كما أننا درسنا فى الجغرافية شيئا عن الغابات فى مناطق مختلفة من العالم. ومن هذا كله استمددت كلامى السطحى عن الغابة فى قصتى القصيرة الساذجة التى حدثتكم عنها.

هذا عن العتبات، أما الوصف فهو فى الرواية بارع رائع: ففى أول الفصل الثانى من الرواية يصور المؤلف على لسان السارد نوع المسكن الذى كان يعيش فيه سيد عبد الله بطل الرواية بالمدينة التى هُجِّر هو وأسرته إليها بعد هزيمة يونيه ١٩٦٧ حين وضعت الحكومة كل بضع أسر فى فصل من فصول إحدى المدارس هناك لا يفصل بين كل أسرة وجاراتها سوى ستارة بدائية لا تخفى شيئا ولا تمنع انتقال الأصوات الفاضحة ليلا أو نهارا. وهو ما شاهدته بنفسى لدن عدوان ١٩٥٦ الثلاثى، فقد كنت أذهب إلى الوحدة المجمَّعة بعد عودتى من الكتاب لنلعب مع أولاد المهجرين، وكنا ندخل الفصول التى يعيشون بها ونرى بالضبط، كأنه نَقْلُ مسطرة، كيف تعيش أربع أسر فى فصل واحد، وكانت أمهات بعضهم تقدم لنا مشكورات مأجورات من الطعام البسيط الذى كانوا يتناولونه. وكانوا كلهم ممن الأسر الفقيرة "الغلبانة" حتى إنى لأحس بالحزن والشجى الآن وأنا أكتب هذه الكلمات وأتذكر الأولاد البورسعيدية الظراف اللطاف الذى كنا نلعب معهم "كلوا بامية. طلَّعوا الحَقّ المستحق البولوبيف" وغيرها من الألعاب التى لم نكن نعرف نحن الصبيان الريفيين المتخلفين عنها شيئا، إذ كانت لنا ألعابنا الخاصة المتخلفة مثلنا مثل "وفَتْلَة وفتلة وفتلة" و"جحشة الجُرْن" و"أبونا ضَرَبُونا"

"و"الطاقيَّة فى العِبّ" و"سِكّ امسك عصاتك" "وطالِقْنى! طالِقْتَك!"، وكفاية كده، وبلاش فضايح!

يقول المؤلف: "سيد عبد الله من أبناء السويس الذين هُجِّروا بعد هزيمة ١٩٦٧. حملته سيارة النقل وهو فى مقتبل الشباب مع أسرته إلى إحدى مدن الدلتا الصغيرة، فلم يجدوا مكانا يأويهم غير ركن فى فصل بإحدى المدارس التى ضمت عشرات من الأسر التى وصلت قبلهم. كان كل فصل يضم أسرتين أو ثلاثا وأحيانا أربع أسر. ويتم الفصل بينها بملايات السرائر أو البطانيات التى وزعت عليهم من بعض الجمعيات الخيرية.

الحياة فى المدرسة وسط هذا الحشد الآدمى صعبة وقاسية ومحرجة أيضا، وخاصة عند قضاء الحاجة فى حمامات غير مناسبة. وفى الليل كانت الأصوات ترتفع بما يستحى المرء من ذكره وسماعه، وتفرض نفسها على الجميع باختراق آذانهم بما فيهم المراهقون والمراهقات. فترة عصيبة عاشها سيد عبد الله حتى تحقق العبور وتم توقيع اتفاقيات الانسحاب من سيناء، وأخذت العائلات المهاجرة تعود إلى المدن المدمرة على ضفة القناة الغربية.

رفض سيد أن يعود إلى مدينته، وآثر أن يواصل تعليمه فى مدينة المهجر ويعمل فى الوقت نفسه فى بعض المهن الحرفية التى تكفل له حياة بسيطة معقولة. واستطاع أن يتخرج فى كليته بتقدير "جيد"، واستوعب لغة السوق من خلال عمله الذى لم يتوقف. ألفاظه وجمله وعباراته لا تمت بصلة إلى عالم المتعلمين أو المثقفين أو التهذيب بصفة عامة، ولكنه ينتمى بمعجمه وتراكيبه وصوره إلى السوق أو دنيا "المِعَلِّمِين" بكسر الميم الأولى والثانية".

وفى النص التالى تصوير عجيب لما كان يباشره سيد عبد الله الشهير بـ"سيد كباية" (أو "سيد محارة" إن أحببتَ) فوق السقالة من أعمال المحارة أو ينخرط فيه

من أحلام اليقظة أو يدخل فيه من أحاديث مع أمثاله من الحرفيين. الواقع أنك تحس بكل قوة أن المؤلف كان واحدا منهم. وهذه هى البراعة: أن ينخدع القارئ فيظن أن المؤلف إنما يتكلم عن نفسه لا عن أحد أشخاص روايته وأنه يصف ما كان يصنعه فوق السقالة أيام البهدلة: "كان سيد عبد الله فوق السقالة، وبيده جردل ماء فيه كوز للرش، والتقط أداة تثبيت المِلاط على الجدار، وكانت على جانب فمه سيجارة تَعَوَّد على تدخينها عند بداية العمل، وراحت يداه تعملان فى وقت واحد: الأولى تثبّت المِلاط، والأخرى تسكب الماء بالكوز على الأماكن الخشنة بقصد تنعيم صفحة المِلاط التى ثَبَّتَها، وراح يفكر فيما قاله صاحبه السباك: هل يمكن أن يكون أستاذا جامعيا ويرتدى البدلة الكاملة وربطة العنق والنظارة الملونة ويحييه الطلاب والموظفون، ويُهْرَع إليه السُّعاة يحملون حقيبته ويتوددون إليه انتظارا لنفحاته؟ هل يسلو مهنته التى تربى عليها وجعلته فى غنى عن انتظار مرتب هزيل؟ إنه يشتاق إلى زملاء العمل ويجد لذة كبرى وهو يجلس معهم فى المقهى الضيق، ويدخن معهم الشيشة أو يلعب الطاولة أو يتبادل معهم الرأى بشأن العمل منفردا أو مع آخرين. بل إنه كاد يصبح شيخ المهنة ليحل مكان الحاج مُحَمَّد الطنطاوى الطاعن فى السن. وقد رد سيد على من طالبوه أن يكون شيخا للمهنة بحكم ثقافته وذكائه بالاعتذار لأن أمامه مشوارا طويلا فى المهنة، وأن الحاج مُحَمَّد فيه البركة".

وهذا نص آخر يصف عربة القطار الفخمة التى ركبها سيد أول تعيينه فى الجامعة بعدما كان يركب عربة الدرجة الثالثة المزدحمة القذرة. وتشعر وأنت تقرأ الوصف أنك راكب قطارا مصريا صميما، وتشاهد الباعة وتسمع نداءاتهم وترى فى أيديهم بضائعهم، وإن كان آخر كلام السارد يعاكس أوله، فقد قال فى البداية إن سيد لم يكن يعى ما حوله فى عربة القطار من الباعة وبضائعهم ونداءاتهم،

ليعود فيقول فى النهاية إنه تعجب من أن يكون حال العربة الممتازة فى القطار هو نفسه حال العربة الشعبية من حيث وجود الباعة فى كلتا العربتين. بيد أن وصف العربة فى حد ذاته، وعلى وجازته، حى ومقنع وينقلك على الفور إلى جو القطار: "شعر، وهو فى القطار، أنه يغادر عالما قديما مألوفا له تعوَّد عليه إلى عالم آخر مجهول لن يجد فيه أُنْس الحارة ولا لذة المقهى ولا متعة سهرات الزملاء الليلية. ظل ساهما وشاردا عما حوله. لم يعِ ما يجرى فى القطار من حركة ركاب يصعدون أو يهبطون ولا ما يقوم بعض سعاة البوفيه من خبط الملاعق على الصوانى، والباعة من نداءات على بضائعهم أو أشيائهم المتواضعة أو الصحف اليومية والمجلات المرتجعة التى تهتم بشؤون الفنانين. قطار فاخر، وباعة مثل هؤلاء؟ كل شىء ممكن فى أم الدنيا! كان يتصور أن القطار الفاخر يمثل حالة مختلفة عن القطارات العادية التى يركبها الفقراء وعامة الناس، ولكنه وجد الأمر متشابها".

ثم هذا نص ثالث يصور بعض الأشياء فى بيت إبراهيم الحلوانى بالقرية والد د. سحر الحلوانى المدرسة بذات الكلية التى عُيِّن فيها سيد كباية فى أول حياته الوظيفية بالجامعة: "فُتِح الباب الخشبى العريض الذى يبدو عليه القدم مع تآكل حوافه، وغطى الصدأ الحلقة المثبتة بمفصّلة فى الوسط، وتحتها قطعة بارزة مدوّرة من الحديد تطرق عليها الحلقة فتحدث صوتا ويسمع من بالداخل، إشارة إلى وجود طارق يطلب أهل البيت...

لم تجد العجوز بدا من أن ترحب بها وتدخل معها إلى المندرة (حجرة الضيافة)، وهى غرفة كبيرة بها مصاطب مستطيلة مفروشة بالحصير تصلح للجلوس والنوم محاذية للجدران فى البيت الطينى القديم الذى يضم عددا من الغرف الواسعة، وحظيرة للحيوانات مسقوفة بفروع الشجر والقش، وسلما من الطوب اللبن يقود إلى السطح حيث توجد غرفتان صغيرتان: إحداهما للألبان،

والأخرى للخزين، وتتناثر أمامهما صوامع تخزين القمح الطينية، بالإضافة إلى عشش الدجاج والطيور الأخرى". إنك تشعر وكأن آلة تصوير متحركة تدور بأرجاء المكان وتتلبث عند بعض المواضع التى يريد صاحب المصوِّرة أن يركز عليها تعريفا بها وإشعارا بأهميتها.

وفى الرواية كذلك تحليل دقيق وتصوير عميق لكل شخصية: نأخذ مثلا وصفها لسيد كباية (أو "سيد محارة"). لقد لزق بالأستاذ الدكتور عبده الإسكندرانى كاللزقة الأمريكانى منذ اقترب منه فى محاضرات الدراسات العليا، وكان خادما له بل عبدا بل كلبا لا يكف عن هز ذيله حتى أعطاه أستاذه العديم الضمير الماجستير، وكان يعمل طوال الوقت أيام الدراسة فى الليسانس وفى الدراسات العليا محّارا، ثم تمكن أستاذه بنفوذه وانعدام ضميره أن يعينه بجامعة إقليمية مدرسا مساعدا. وهنا يأتى وصف الرواية له وتغلغلها إلى أعماقه فى كلمات قليلة موحية بل كاشفة.

وهذا نص من تلك النصوص التى تصور شخصية بطل روايتنا، وهو فى الحقيقة لا بطل ولا يحزنون. إنما هى المصطلحات ليس إلا: "ارتدى سيد قميصا وبنطلونا وحذاء قديما. كان الجو مائلا للحرارة أواخر الصيف، وكانت أول محاضرة فى الدراسات العليا يشهدها سيد بصحبة صديقه فتحى محروس، واستمع إلى الحوار الذى دار بين الأستاذ عبده الإسكندرانى وزملائه الطلاب. أعجبته طريقة الأستاذ وهو يجلس فى حلقة ضيقة من الطلاب والطالبات، ورآه لأول مرة يضحك، على العكس من المحاضرات التى كان يلقيها على طلبة الليسانس، ووجد نفسه يتجرأ ليناقش أستاذه ويسأل فى بعض القضايا التى تدور حولها المحاضرة، وفوجئ بالأستاذ يمتدح أسئلته وذكاءه. وفى نهاية المحاضرة حمل سيد عبد الله حقيبة الأستاذ حتى دخل مكتبه فوضع الحقيبة فوق المكتب وظل واقفا،

والأستاذ يدق جرس البوفيه ليطلب العامل، ولكن سيد التقط اللحظة، وفهم أن أستاذه يريد مشروبا فقال لأستاذه:

– سأذهب فورا لأحضر ما تريده يا أستاذنا. هل تريد شايا أو قهوة؟

ذهب سيد وأحضر المطلوب بعد أن طلب من العامل البقاء فى مكانه، فهو سيقوم بكل شيء. قدم المشروب للأستاذ وظل واقفا فى خضوع. وبعد أن تنبه الأستاذ لوقوفه أمره بالجلوس على كنبة بعيدة عنه قليلا. سأله الأستاذ بعد فترة عن ظروفه وقراءاته، فأخبره بحقيقة أحواله وعمله الحِرْفىّ وحياته وحيدا فى المدينة. شجعه الأستاذ بعد أن أثنى على كفاحه فى سبيل العيش، وبارك جهده من أجل الدراسات العليا، ووعده أن يقف إلى جانبه حتى يصل إلى شاطئ الأمان.

رقص قلب سيد عبد الله فرحا وهو يستمع إلى تشجيع الأستاذ له، وأدرك بذكائه أنه مقبل على عصر جديد!

* * *

فى قاعة المحاضرات جلس سيد مع زميله فتحى محروس، الذى أنهى فترة التمهيدى، وبشره أن الرجل (يقصد الأستاذ) أبدى استعدادا كريما لمساعدته، وأن حياته منذ الآن ستتخذ طريقا آخر. قال له صديقه فى فرحة منتشية:

– أحب أن أبشرك أيضا أنه وافق على خطة البحث فى الماجستير، وقال لى: ابدأ العمل فورا، وتغلبْ على العقبات بكل وسيلة.

– يبدو أنه رجل "لقطة"!

قالها بلغة السوق، وغمز بعينه لصاحبه تعبيرا عن مكسب كبير فى هذه الصفقة، وراح يدندن ببعض أغانى السمسمية التى كان يحفظها أيام كان فى السويس:

إحنـــا البمبوطيـــة ولا لنـــا مثـــال

تجـــــار بحريـــــــة نعمـــل فى القنـــال

إحنا البمبوطية إحنا

ولم تمض أسابيع حتى كان سيد منخرطا مع زملائه فى الدراسة التمهيدية: تعرف عليهم، وتفاعل مع بعضهم فى إطار صداقة محدودة يفيد منها فى تبادل الكتب والمحاضرات، كما تعرف على الأساتذة وحاول أن يتقرب إلى بعضهم ويعقد معهم علاقات شبه حميمية، وقدم خدماته فى مجال المحارة واستجلاب معارفه من أصحاب الحرف المختلفة للعمل بأسعار معقولة، ومتابعة أعمالهم فى الدهان والسباكة والبلاط والنجارة وغيرها حتى صار قريبا من هيئة التدريس والطلاب جميعا. وفى الوقت ذاته راح يرتب عمله بحيث يكون ليلا أو فى الأيام التى تخلو من المحاضرات. كان مشدودا إلى الكلية بخيوط قوية، فقد اتسعت فرص عمله الحرفى مع الأساتذة والموظفين الذين عرفوه وألفوه، ووصل إلى أدق الأخبار والأسرار، وصارت أحشاء الكلية مفتوحة بين يدية. يعرف ظاهرها وباطنها وطريقة الوصول إلى كل الأطراف: صغرت أو كبرت!

لم يكد يمر عامان أو أكثر على سيد حتى أحرز درجة الماجستير قبيل صديقه السباك بعدة شهور، فقد فتح له الأستاذ "اللقطة" باب الأمل على اتساعه، وتساهل معه فى كثير من المطلوبات، وزاد على ذلك أَنْ وعَده بمنحه فرصة الانتساب إلى سلك هيئة التدريس بإحدى جامعات الأقاليم الجديدة، فقد كان الرجل ضعيفا أمام خدماته الصغيرة التى يقدمها له وتمنحه شيئا من الزهو والمباهاة كأن يفتح له باب السيارة أو يحمل حقيبته إلى المكتب أو يشترى له بعض أنواع السمك أو اللحوم أو الخضراوات والفاكهة ويقوم بتوصيلها إلى البيت أو يذهب لغسل السيارة فى مغسلة قريبة.

أخذ صديقه فتحى السباك يمزح معه، وإن كان القهر باديا فى جوف كلماته وضلوعه:

– سبقتنى يا سيد!

ووقفت الكلمات فى حلقه، ولكنه استدرك لكيلا يلحظ عليه الكمد:

– أتيتُ بك إلى التمهيدى، وكنتَ ممانعا، وهأنت تقترب من الانضمام لهيئة التدريس. مبارك عليك يا صديق!

ابتسم سيد، وهتف فى لغة السوق:

– جَبَرْنا!

واستطرد:

– عُقْبَى لك. كلها فركة كعب، وتلحق بى!

كان فتحى يعلم جيدا طبيعة صديقه سيد والخدمات التى يؤديها، وأنه لا يستطيع أن يفعل مثله. ومع أنه يحترف مهنة السباكة إلا إنه كان حريصا على أن يضع نفسه فى موضع بعيد عن الامتهان أو المؤاخذة من أى أحد. فى أعماقه يرفض سلوك سيد ويزدريه، ولا يحب ممارسته. هذا ما يعزّيه عن تأخر مناقشة رسالته، التى بذل فيها جهدا مضنيا. وكان يثق أنه سيلحق بصاحبه فى يوم ما، وربما يتجاوزه".

وهذا نص آخر: "فكر الأستاذ الكبير عبده الإسكندرانى أن يجد وظيفة لتلميذه الخدوم سيد عبد الله. رأى أن بعض المحافظات تتنافس فى إنشاء جامعات إقليمية تبدأ بكلية أو كليتين إحداهما غالبا للتربية بعد التفكير فى إلغاء دُورِ المعلمين والمعلمات، والأخرى للآداب، ثم يتوالى إنشاء كليات أخرى نظرية وعملية. كان ذلك يتم دون أن تكون هناك هيئات تدريس كافية مدربة أو أطقم إدارية تفرق بين العمل فى المدارس وتقاليد الجامعات، فكان الاعتماد على ندب

أساتذة من الجامعات العريقة، وبعض الموجهين الكبار فى إدارات التعليم، وموظفين من هذه الإدارات، وأضحت الكليات الجديدة مجرد مدارس مثل مدارس التعليم العام، ويتعامل معها الجمهور على هذا الأساس.

المواطنون والطلاب يذهبون إلى الأساتذة فى بيوتهم أو على المقاهى أو الاستراحات أو يلتقون بهم على محطات السكة الحديد أو مواقف السيارات والحافلات للتوصية على أبنائهم، أو مناقشة نتائج الامتحانات، أو الاعتراض عليها، ورأى بعض المنتسبين للإدارات والمؤسسات المهمة أن بإمكانهم التدخل لدى أعضاء هيئة التدريس أو قيادات الكلية والجامعة لتعديل نتائج أقاربهم وفقا لقانون المصالح المتبادلة العرفى!

أخذت الجامعات تفكر فى تأسيس هيئات تدريس مستقلة، فأعلنت عن وظائف فى تخصصات مختلفة من الحاصلين على درجات علمية من الجامعات بدءا من المعيدين إلى الأساتذة. خاطب الأستاذ الكبير بعض أصدقائه فى جامعة إقليمية بالوجه القبلى للإعلان عن وظيفة لتلميذه الخدوم الذى منحه الماجستير. استجاب الأصدقاء، وظهر الإعلان، وبعد شهور قليلة كان سيد عبد الله مدرسا مساعدا بكلية جامعية. قال لأستاذه:

– المسافة بعيدة، وسأفقد عملى الحرّ وما يدره من دخل أكبر!

ابتسم أستاذه فى شىء من الشفقة والدهشة:

– سيد! تذكر أنك الآن مدرس فى الجامعة. ستحصل على مرتب محترم، ويجب أن تظهر بالمظهر اللائق أسلوبا وتعاملا وهيئة.

تساءل فى شىء من التحسّر الخفى:

– يعنى: أترك المهنة نهائيا؟

ضحك الأستاذ:

– لا تَعُدْ إليها أبدا!

حاول أن يبتسم مازحا:

– إن يدى تأكلنى للإمساك بالمحارة!

– لقد بدأ عصر الكتاب يا سيد!

كانت كلمات الأستاذ قاطعة لإغلاق المناقشة".

أما كيف حصل أبو السِّيد (أو "عَرَب" كما يقول السارد أحيانا) على الماجستير فالنص التالى كفيل بتعريفك: "كان سيد مشغولا بوضع اللمسات الأخيرة للدكتوراه والاستعداد لمناقشتها. لن تكون المناقشة فى الكلية التى يعمل بها، ولكنها ستكون فى الكلية التى سجّل فيها، وهى التى تخرَّج فيها، ويوجد بها المشرف الأستاذ الكبير الدكتور عبده الإسكندرانى. فالرجل "لقطة" كما وصفه سيد فى أول لقاء به عندما تقدم للدراسة التمهيدية، وقد وجد لديه تناغما جيدا. فالرجل كريم جدا مع أمثاله الذى يعرفون كيف يقدمون المقابل ماديا أو معنويا، وقد ساعده مساعدة كبيرة أيام إعداد الماجستير لدرجة أنه دفع بعض تلاميذه ممن منحهم الماجستير والدكتوراه كى يجلسوا مع سيد الساعات الطوال فى الأيام الطوال ليوجّهوه، ويوفّروا له المراجع، ويرشدوه إلى الاقتباسات والنصوص التى تخدم موضوع بحثه، وتضاحك بعضهم مع سيد ساخرا:

– لم يبق يا سيد إلا أن نكتب لك البحث على الآلة الكاتبة!

فيقهقه سيد ويرد ببساطة:

– سأخدمكم فى الأفراح إن شاء الله!

لا ينكر سيد أن أستاذه بذل معه جهدا كبيرا فى الدكتوراه. كان الرجل يعلم أن تلميذه لا يقرأ خارج المقررات مذ كان طالبا فى مرحلة الليسانس، بل هو من المخاصمين للقراءة بصفة عامة. حتى الصحيفة اليومية لا يتابعها إلا استثناء، وإذا

طالعها فإنه يهتم بصفحة الحوادث. لا تعنيه الأخبار العامة أو العالمية ولا الاقتصاد ولا الثقافة ولا الكلمات المتقاطعة. حين سألوه فى التنظيم الطليعى عن قراءاته فى السياسة رد عليهم بأنه يحب الزعيم ويفتديه بروحه، وهو ما لا يحتاج إلى قراءة فى السياسة أو غيرها. فتعجبوا واستوضحوه: كيف يكتب التقارير التى تُطْلَب منه؟ قال لهم: الأمر بسيط للغاية. من يكره الزعيم أو يقول عنه كلاما سيئا فهو عدو الثورة وضد الزعيم. لم يهتم بمحاكمات مراكز القوى ولا رؤوس التنظيم الطليعى، ولكنه فهم أن نظام السادات سيغيّر النظام، ويأتى بقوم آخرين!".

وأما لِمَ صار لقبه "سيد كباية" فالنص التالى يأخذ بيدك ويعرِّفك، وهو خاص بسلوكه فى المدينة الإقليمية الصغيرة التى عين فى إحدى كليات جامعتها، والتى لا أدرى لماذا أتصور دائما أنها مدينة طنطا، التى تعلمت فيها منذ الثانية عشرة حتى حصلت منها على إعدادية الجامع الأحمدى وثانوية المدرسة الأحمدية، وانتقلت للجامعة فى القاهرة. والمحير فى الأمر أن مؤلف الرواية رجل غلبان مثلى لا له فى الشرب ولا حتى فى الأكل. بل إنه لو شرب ماء قراحا لظل طول النهار والليل يكحّ مثلى وتكاد تزهق روحه، ولربما نقلوه إلى العناية المكثفة. فكيف يا ترى استطاع أن يصف عالم الخمارات؟ وأية خمارات؟ الخمارات الشعبية التى يرتادها ولا يعرف سواها عمنا أبو السِّيد. لقد كنت أمر وأنا فى طريق عودتى من المعهد الدينى بحى سيجر بطنطا على بوظة مقرفة أرى عَرَضًا بعض الجالسين فيها وقد وضعوا أكوازهم أمامهم على الترابيزة المقرفة أو رفعوها إلى أفواههم وأخذوا يعبون منها، ولا أحقق شيئا آخر غير ذلك، وهو ما لا يؤهلنى لوصف شىء من تفاصيل ما يدور فى تلك الخمارات من الداخل، والله ولا من الخارج، إذ لا أذكر إلا ما قلته لك هنا يا قارئى العزيز. فكيف استطاع المؤلف وصفها؟ ألا إن هذا لغريب. يقول النص: "صار سيد عبد الله معروفا بين هيئة التدريس، وعلى مدى سنوات

أنشأ شبكة علاقات واسعة فى الكلية توطدت مع بعض من يشبهونه فى الفكر والسلوك، واستطاع عن طريق أستاذه عبده الإسكندرانى أن ينجز رسالة الدكتوراه، ويستعد لمناقشتها، ويرى المستقبل ضاحكا فى عينيه.

كان يعيش فى استراحة الجامعة مع زملائه المغتربين سعيدا مسرورا: فالمكان ملائم بالنسبة له. والمدينة ليست مزدحمة خانقة مثل مدن أخرى، وتبدو فى الليل هادئة وادعة جميلة. آثار الحياة الريفية البسيطة تنعكس على سكانها الأصليين. وجد سيد فرصة السهر مواتية فى المدينة كلما أراد، وقد تعرف على قاعها وما فيه من مواضع تشعل رغباته وتشبع مزاجه الخاص.

شاهد أكثر من موضع فى قلب المدينة وأطرافها. مواضع لا تعمل ولا تنشط إلا بعد منتصف الليل، كان مع زملائه الذين يقيمون معه يذهبون إليها ويستمتعون بالطعام والشراب، وينطلقون على هواهم، ويعبّون من الشراب الرخيص الذى يحل عقدة ألسنتهم فيقولون ما لا يقال!

اكتسب سيد فى هذه السهرات الملوّنة تأكيد لقبه القديم: "سيد كبّاية"، ووجد فى هذا لذة ما بعدها لذة حين ينادَى به. كانوا يَعُدّونه مَلِك الشرب. يشرب كثيرا ويستمر فى الشرب إلى وقت طويل صاحى العقل دون أن يفقد وعيه. وبعد أن يتناول كميات أكبر يشعر أن مخّه أخذ يتفكك، ويبدأ لسانه ينطلق فيقول فى زملائه ورؤسائه وأقاربه وأستاذه عبده الإسكندرانى ولجنة المناقشة وعميد الكلية ورئيس الجامعة ما لا يقال!

يستعيد سيرة أبيه وشجاره الليلى مع أمه بعد عودته من الحانة. يشعر أنه ابن أبيه حقا، بل يفوقه دون أن يعود إلى زوجة تؤنبه أو تخوفه من نار جهنم، أو تذكره بأولاده وواجباته نحوهم. إنه أعزب بلا زوجة، يفعل ما يشاء. فهو بعد السهرة يعقد الصفقة مع بائعة الهوى التى تعجبه ويصحبها إلى الاستراحة فى الهزيع

الأخير من الليل حيث تكون الدنيا قد نامت وسكنت، وأوت الطيور والقطط والصراصير والضفادع إلى مضاجعها، إلا سيد ورفيقته.

فى المدن الريفية تُعْرَف الأسرار الخفية من خلال الهمس الذى ينتشر أو يتسلل على ألسنة أهل النميمة. لا يخفى سر فى المدينة. هم يعرفون ما يجرى فى كل مكان، وخاصة ما يتعلق بالطارئين أو المقيمين إقامة مؤقتة. السكان الأصليون أو المقيمون الدائمون يعرف بعضهم بعضا إلى حد كبير. أما الغريب الطارئ فالعيون تتركز عليه وتتربص به، ويحظى باهتمام أكبر إذا كان ممن لا يراعون التقاليد السائدة، أو يمارس سلوكا مرفوضا. وقد يتحرشون به عن طريق بعض الشباب الذى يرى أن مخالفة التقاليد عدوان على المدينة الريفية وأهلها. ولكن سيد عبد الله ما زال خارج مجال الاهتمام الشعبى. قال لزميله بعد إحدى السهرات:

– هذه المدينة متخلفة. تهتم بسلوك الآخرين، ولا تهتم بشؤونها.

نظر إليه زميله مستفهما، فأوضح سيد:

– إنهم يراقبوننا، ويتابعون ما نفعل!

رد عليه زميله بتلقائية:

– هذا أمر طبيعى. ألسنا فى حكم الغرباء؟

– لم نعد غرباء. لنا سنوات نقيم فيها، ويُفْتَرَض أننا صرنا منهم.

سكت زميله للحظة، ثم سأله بدوره:

– وهل ما نفعله يجعلنا منهم؟ إنهم لا يتابعون المشغول بعمله ومن ينام مبكرا.

وأطلق ضحكة ساخرة كأنها تفسر تهافت اعتراض سيد على متابعة الناس له ولزملائه. وانطلق سيد وزميله فى طريقهما إلى الاستراحة. كان أذان الفجر ينطلق

من أحد المساجد المجاورة، ولكن النوم غلب سيدا، فراح فى سبات عميق تملؤه الأحلام والكوابيس، فيصحو ليشرب بعض الماء، ويعود إلى السبات العميق".

فسيد كباية (أو "سيد محارة"، وكلاهما لقب دقيق يبرز ناحية معينة فى شخصيته) كان يشتغل محّارا حتى حصل على الماجستير، الذى لا يستحقه لأنه لا علاقة له بالعلم ولا بالكتاب ولا بالوسط الجامعى بل كل ما فى شخصيته يعكس هذه الحرفة، التى لا نذكرها هنا على سبيل التحقير بل على سبيل التحليل. فمعظمنا آتون من أسر فقيرة، وعانينا حتى تعلمنا، لكننا كنا نحب العلم ونتعلق به ونمضى وقتنا بعد أن نضجت عقولنا فى القراة والمناقشات الأدبية والسياسية والدينية والفلسفية، ولا نكف عن الحديث عن العقاد وطه حسين وأحمد أمين ومحمود شلتوت وزكى نجيب محمود وإبراهيم المازنى ونجيب محفوظ ولا عن الشيوعية والرأسمالية وروسيا وأمريكا وابن رشد وبرتراند راسل وجان بول سارتر والوضعية المنطقية والوجودية، التى أرقتنى أنا وصديقا لى ليلة كاملة فى المدينة الجامعية لم نفهم شيئا مما كتبه د. يحيى هويدى عنها فى أحد كتبه رغم لَوْكه جميع مصطلحاتها، إلى أن وقع لى فى الإجازة الصيفية التى بعدها كتاب د. كامل البوهى عن "الوجودية والإسلام" فى سلسلة "اقرأ"، فوجدت السلاسة والوضوح البلورى، واتضح لى المقصود مما يقوله الوجوديون من أن الوجود يسبق الماهية على عكس ما يقوله غيرهم من سبق الماهية للوجود. يقصدون أنه لا توجد ماهية مسبقة تُفْرَض على الشخص فرضا بقدَر لا يقاوَم، بل كل فرد يصنع ماهيته بإرادته واجتهاده، وهو ما لم أقتنع به، إذ الماهية ليست شيئا فرديا حتى يصنعها كل إنسان صنعا، بل هى شىء عام يخص البشر جميعا، أما ما يصنعه الإنسان فهو المساهمة فى تقرير مصيره الفردى. أقول: المساهمة لا صنع هذا المصير صنعا كاملا

لأن الشخص ليس سوى عامل واحد من العوامل التى تؤثر فى شخصيته وسلوكه ومسيرة حياته، فهو مجرد مساهم لا صانعٌ مستقلٌ.

ما علينا! أما سيد كباية (أو سيد محارة) فلا علاقة له بشىء من هذا لأن عقله ليس عقل طالب علم ولا أستاذ بل عقل حرفى يشتغل بتمحير الجدران والأسقف. ولو ظل محّارا ما كان عليه من عيب أو حرج، لكن الحرج بل الإثم كل الإثم هو ألا يكون على مستوى الوظيفة التى ساعده أستاذه العديم الخلق فى الحصول عليها دون كثير ممن يستحقونها عن جدارة وأهلية، فأسهم فى إفساد الجو الجامعى، وبلا الكثيرين بأخلاق هذا السكير الأجرب المنحط ومؤامراته وسفاهاته وقلة أدبه وانعدام دينه.

تقول الرواية عن هذا الجانب الفظ الوعر من شخصية سيد كباية (أو "سيد محارة"، وأترك لك الاختيار بين اللقبين، وإن كان كلاهما ينطبق عليه تمام الانطباق مع تفوق الأول لأنه يشير إلى الناحية الأخلاقية أكثر مما يشير اللقب الثانى): "المحارة جزء من تكوين سيد عبد الله. وإذا كانت الخشونة قد زالت أو بدأت تزول من يديه الخشنتين فإنها لم تزل باقية فى رأسه وذهنه ولسانه. ألم يكن زعيما للمهنة ذات يوم، ولكنه تنازل أن يكون الزعيم الرسمى، واكتفى بالزعامة المعنوية التى تجعله صاحب مقام وقيمة فى المهنة، وعند أربابها، ويحتكمون إليه أحيانا لحل مشكلاتهم، ومواجهة بعض المتاعب التى تعترضهم فى العمل؟ وما زالت طبيعة المهنة تفرض عليه طريقة التفكير حين يهيئ برش الإسمنت طبقة خشنة تساعد على لصق المِلاط أو الخلطة المكونة من الرمل والإسمنت بعد رشها بالماء، فهو يواجه الموضوع الذى يشغله بالتمهيد واستخدام الحيل كى يصل إلى ما يريد. إنه يتعامل بمنطق المادة ليصل إلى ما يريد. لا مكان عنده للعواطف أو المشاعر أو الاعتبارات الإنسانية. لا يعرف شيئا اسمه اللباقة. إنه يصل إلى هدفه مباشرة،

ويستخدم اللغة الخشنة والسلوك المادى الجاف. حين يطلب حاجة ممن يملكون ينحنى بجذعه إلى أسفل بل إلى الأرض إذا دعت الضرورة ليقنع مَنْ بيده الأمر أنه عبد ذليل ليمنحه طلبته. وقد يستخدم لغة مدبَّبة مع من هم أقل منه أو من يراهم ضعافا، ولكنه عند القوة يتحول إلى أرنب ناعم الملمس، ويكون هادئا وديعا.

ذات يوم وهو يعمل بالمهنة أعجبته فتاة تعمل فى حانة شعبية فى أطراف المدينة. كان الليل قد اقترب من الهزيع الأخير، فعرض عليها الزواج بطريقة مباشرة، فصعقت الفتاة:

– تتزوجينى يا نوسة؟

لم ترد الفتاة، وراحت تنظر إليه فى اندهاش وذهول، ووجدت لسانها ثقيلا.

– تتزوجينى يا بنت؟

لم تستطع أن تحرك لسانها، وتسمرت عيناها على شفتيه. لاحظ ذهولها وصدمتها. لم تصدق الفتاة أن شخصا مثله يبدو "أفنديا" كبيرا يهبط إلى مستوى فتاة مثلها بسيطة وضعيفة ومهنتها محتقرة، ويفكر فى الزواج منها. ثم إنه لا يعرف عنها شيئا ولم يسبق أن كلمها أو تحدث إليها. هل هو بكامل وعيه؟ هل جاءته هذه الرغبة فى الحلم؟ لا تعلم. وحين رأى صمتها المطبق راح يسبها بأقذع الألفاظ، ويرميها بأبشع البذاءات، وينقضّ عليها ليفتك بها لولا تدخل رواد الحانة، الذين استغربوا فعلته، وقدروا أنه أفرط فى الشراب، وإن لم يعلموا أن وعيه لا يغيب بسهولة بوصفه مدمنا عريقا ومحترفا عرف أحط أنواع الشراب.

لم تكن هذه الحادثة الوحيدة التى تكشف لغته الخشنة التى لا تعرف النعومة. هناك حوادث أخرى عديدة شهدها جمع كبير من الناس أو عدد محدود. كانت لغته مسامير محمَّاة على الضعفاء ومن لا يخشى بأسهم.

تمنى فتحى محروس أن يتحول صديقه سيد عبد الله من لغة المحارة إلى لغة الجامعة، وأن تهذب لغته بحكم علاقته بأساتذة مفكرين لغتهم ناعمة مهذبة، لا يرتفع صوتهم إلا نادرا وعند الضرورة كأن يكونوا فى محاضرة تقتضى مزيدا من الشرح أو مزيدا من التوضيح. تقاليد الجامعة العريقة أو الجامعة الأم فى زمن بعيد كانت تقضى أن يكون السلوك الجامعى مهذبا، واللغة الجامعية راقية، وخاصة فيما بين أعضاء هيئة التدريس، وفيما بينهم وبين الطلاب، ولكن دخول الجامعات الإقليمية وما تضمه من أعداد طلابية كثيرة بلا تجهيز علمى جيد أسقط التقاليد الجامعية، وجعل لغة الجامعة خليطا من النعومة والخشونة، بل جعل العلاقة بين لغة الأساتذة والطلاب تبدو أقرب إلى لغة السوق والزحام.

لم يستطع سيد أن يتخلص من لغة السوق التى تجذَّرت تحت لسانه مع أنه أمضى سنوات عديدة منذ تعيينه مدرسا مساعدا فى الكلية. كان يستقبل بعض الطالبات فى مكتبه، فيتعامل معهن كأنهن صبيانه الذين يناولونه المِلاط وهو فوق السقالة. يشخط وينطر، ولا مانع أن يرسل عبر حديثه بعض الألفاظ السوقية أو البذيئة. وكانت الطالبات يشعرن بغلظته وخشونته، فتحمرّ وجوههن، ويعتريهن الخجل، ويُضْطَرّ بعضهن إلى الانسحاب مؤثراتٍ البحثَ عن معونة أعضاء آخرين".

وإذا كان الشىء بالشىء يذكر فقد ابتلى الله الأساتذة المصريين المعارين إلى إحدى دول الخليج فى أوائل تسعينات القرن المنصرم بواحد من هذه الشاكلة كان يشخر وينخر ويسب الدين ويحكى لزملائه ما يدور بينه وبين زوجته من أدق المسائل فى الفراش ويصف نفسه بأنه ابن "مَرَة..."، ويتفاخر بأن أباه، وكان صيادا أميا من حثالة الصيادين، كان يشتمه بأمه قائلا: "يا ابن المرة الـ..."، ولكن هذا الشخار النخار سباب الدين ما إن يقوم فيخطب فى حفل من حفلات الكلية

التى يعمل فيها فى تلك الدولة حتى يستغرق فى الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله بأطول صيغة ممكنه وكأنه شيخ تقى نقى يذوب ورعا وخشية من مولاه. وهو فى نفس الوقت دائم التآمر على كل من يراه أفضل منه ويُشْعِره بجهله حتى إن أحد زملائه ساعده فى صنع معجم نشره بعد ذلك فى دار كبيرة مشهورة عربيا، وكان قد وعده دون أن يطلب منه ذلك أنه سوف يذكر اسمه فى مقدمة المعجم على نحو مجلجل لقاء الخدمات والمساعدات العلمية التى قدمها له والتى لم يكن الوغد الشخار النخار سباب الدين يستطيعها وحده، ليفاجأ الزميل المذكور بعد أن عاد الشخار النخار سباب الدين قبله إلى مصر وفتح فى مدينته دكان كشرى يستثمر فيه فلوسه التى حصل عليها فى الدولة الخليجية بأنه كتب فيه شكوى إلى الجامعة التى تنتسب إليها كليتهما فى تلك الدولة اتهمه فيها بأنه ملحد، وذلك اعتمادا على ما كتبه الزميل فى فهرس كتاب له عن "مصدر القرآن" من أن النظرية الأولى التى يعتمد عليها المستشرقون والمبشرون فى تفسير نبوة مُحَّد ﷺ هى "أنه ﷺ كان كاذبا مخادعا"، وأن النظرية الثانية هى "أنه ﷺ كان واهما مخدوعا"، وأن النظرية الثالثة هى "أنه ﷺ كان مريضا بمرض عصبى" رغم أن الكتاب دفاع شرس عن صدق سيدنا مُحَّد ﷺ وهجوم ساحق على أعدائه السفلة بالدليل العلمى وبالتحليلات الطبية والنفسية التى لا يخر منها الماء.

وكان الشخار النخار سباب الدين يؤكد لكل المصريين الذين يعملون معهما فى القسم أنه سوف يعيد هذا الأستاذ إلى مصر مقيدا فى الكبول. وليس لهذا كله من سبب سوى أن زميله ساعده فى تصنيف معجم لم يكن ليستطيع أن يصنعه لولا التوجيهات والأفكار والمراجع والمصادر التى دله عليها أو أمده بها من مكتبته والمراجعات التى راجع بها ما كان يكتبه أولا بأول، وبخاصة تفهيمه إياه ما ينقله نقلا دون فهم من عبارات إنجليزية أو فرنسية. ولخوف كل من بالقسم من

المصريين أن يكتب فى أى منهم شكوى إلى الجامعة اعتمادا على أن له أصدقاء مصريين يعملون فى إدارة الجامعة ويستطيعون توصيل شكاواه إلى المسؤولين بكل سهولة، ولغيرتهم من تفوق الزميل المشكو فى حقه عليهم سكتوا فلا هم نبهوه إلى ما يحاك له من مؤامرة إجرامية ولا هم كتبوا إلى الجامعة بأن ما تحتويه الشكوى كلام غير صحيح. فهذا مثال واحد على المصائب المتلتلة التى يمكن أن تنصبّ على رؤوس الأساتذة المحترمين من أفاعيل أمثال سيد كباية (أو سيد محارة).

وكان هناك بالكلية المذكورة، ولكن فى قسم آخر، أستاذ من نفس الثغر الذى منه الشخار النخار سباب الدين، يكرهه ويذكره دائما بكل سوء قائلا إنه قضى طفولته على شاطئ البحر مع أمثاله من أولاد الصيادين عريانا إلا من تُبَّان ممزق، ومعه مصفاة يصطاد بها البيساريا ويبيعها فى السوق بقروش زهيدة وأن أخلاقه سافلة ولا يمكن أن يكون آدميا حتى لو غُسِل بماء النار نفسها. فهذا الشخار النخار سباب الدين ظل يتخلق بأخلاق الولد الصايع شبه العارى لمام البيساريا من على الشط حتى بعد أن صار أستاذا بالجامعة. ولو كان فيه خير لتطور مع الأيام واطَّرَح أخلاقَ السفالة والشخر والنخر وسب الدين وتخلَّق بأخلاق العلماء، لكنه لا يمكن أن يكون عالما أبدا لا فى تخصصه، وكان ضعيفا فيه ضعفا مخزيا، ولا فى غير تخصصه بالأحرى. فهو منقوع فى النيلة وتَشَرَّبَها كل مَسَمٍّ فى جلده وكل عضو من أعضائه الداخلية والخارجية وكل خلية من خلاياه، ولا يمكن أن تزول عنه ولو خُلِق خلقا جديدا. وقد أخبرنى زميله المشكوّ فى حقه بعدما عاد ووقع فى يده بالمصادفة نسخة من المعجم المذكور أنه لم يأت له فيه بذكر على الإطلاق.

ونمضى مع وصف سيد كباية (أو سيد محارة) فى الرواية. إنه لا يستطيع أن يتصور نفسه خارج عالم المحارة، ولهذا يريد أن تكون الكلية التى يعمل بها قريبة من

بلدته حتى يمكنه، فى أوقات الفراغ من العمل الجامعى، أن يخلع بدلة الأستاذية ويلبس عفريتة المحّار ويتسلق السقالات ويباشر التمحير. إن الأمر لديه ليس أمر جامعة وعلم وقراءة وكتابة ومحاضرات بل أمر فلوس، وهو يكسب من المحارة شيئا وشويات، فكيف يقبل بكل تلك البساطة أن يكون مغفلا ويترك هذا الرزق الوفير الذى لا يكلفه صداع قراءة وتشغيل مخ؟ وانظر فى قوله لأستاذه الذى لا يقل عنه إجراما وفساد ذمة:

– المسافة بعيدة، وسأفقد عملى الحرّ وما يدره من دخل أكبر!

وكيف لم يتراجع حين أفهمه أستاذه المنحرف مثله أنّ وضعه كأستاذ فى الجامعة يحتم عليه ترك تلك المهنة. ومن ثم نسمعه يتساءل فى تحسر خفى:

– يعنى: أترك المهنة نهائيا؟

وحين ضحك الأستاذ من عقليته وفهمه المنحط وأمره أمرا أن يترك التفكير فى هذا الموضوع ظل فى حسرته على ضياع هذا الباب من أبواب الرزق، فقال متصنعا المزاح، وقلبه يأكله:

– إن يدى تأكلنى للإمساك بالمحارة!

وهى عبارة عجيبة كاشفة لنفسيته، ليرد عليه الأستاذ المخضرم الذى يفهم من أين تؤكل الكتف، وإن لم يختلف عنه اختلافا كبيرا فى الوضاعة، قائلا:

– لقد بدأ عصر الكتاب يا سيد!

فـ"كانت كلمات الأستاذ قاطعة لإغلاق المناقشة" بنص الرواية، ذلك النص الذى يعنى أن سيد محارة لم يقتنع بل انصاع بنفسية الخادم بل العبد الذليل لتنفيذ أوامر سيده ومولاه.

وفى النص التالى نتعرف إلى شخصية سيد أكثر وأكثر، ونعرف أى بشر يساعدهم الأستاذ المنحرف الذى أتصور أنى أعرفه من لقبه. وهو، رغم علمه،

منحط الأخلاق ظلوم ليس عنده قلب ولا إنسانية، ويتصرف فى مجال عمله كالقتالين بالأجرة، فينكل بعالم شاب مثلا ولا يرقيه رغم استحقاقه الترقية بكل جدارة لا لشىء سوى أن زميلا له حرضه عليه رغم أنه لا يعرف عن الشاب المحرَّض عليه شيئا يجعله يقدم على التنكيل به، أو يرسِّبه لقاء ترسيب زميل له شابا يكرهه هو. كما أنه كثيرا ما ساعد الشبان السفلة فى الترقية لا لشىء سوى صندوق جمبرى جامبو مثلا كما صرح لى الشخار النخار سباب الدين، إذ قال فى ساعة تجلٍّ: أبى صياد، وأعرف كيف أختار طعام البحر. وقد ملأتُ ثلاجة يدوية بالجمبرى الجامبو وذهبت إليه فى بيته وانحنيت على رأس "أخيك هدهد" (هكذا سماه بالنص) وطبعت على رأسه قبلة وأنا أسخر منه بينى وبين نفسى، فقبل الهدية، ورُقِّيتُ دون تأخير.

وهذا ما قالته الرواية عن د. عبده الإسكندرانى حين أُبْعِد عن لجان الترقية مع من أبعدوا من قدامى الأساتذة: "ظل الأستاذ الكبير يقظا. أطفأ النور وحاول أن ينام، ولكن النوم جفاه. كثيرا ما كتب التقارير التى تنقل المدرس إلى أستاذ مساعد، والأستاذ المساعد إلى أستاذ، وكثيرا ما تدفقت الهدايا قبل الترقية وبعدها. وكان هناك رد للجميل أكبر من الهدايا يتمثل فى توزيع كتب معاليه على الطلاب من جانب المُرَقَّيْن، وتزداد القيمة إذا كان عدد الطلاب كبيرا. هناك من لا يحفل بتوزيع الكتب ويكتفى بالهدية الثمينة قبل الترقى، ولكنه يظل فى دائرة الولاء وتحت سطوة النفوذ والاستجابة لما يُطْلَب منه".

والآن مع هذا النص البارع الذى يصور لنا بعض الجوانب الأخرى من شخصية سيد حين كان طالبا جامعيا: "يسكن سيد فى غرفة فى أحد البيوت بإحدى الحارات. تعرف على السكان جميعا: رجالا ونساء وأطفالا. لا يلتقى بهم كثيرا، فهو فى النهار واقف على السقالة، أو يذهب إلى الكلية، وفى الليل يرابط

بالمقهى على ناصية الحارة، أو يكمل عملا لم ينته منه فى النهار. كانت له قدرة غريبة على التقاط الأخبار والتعرف على الآخرين وأخبارهم ولو لم يلتق بهم، بالإضافة إلى استقطاب من يحتاج إليهم أو يتبادل معهم المنافع.

أنست إليه صاحبة البيت العجوز، وكانت تمنحه فى بعض المناسبات طبقا مما تطهوه أو تعده فى مطبخها، وترسله إليه بوساطة ابنتها الشابة التى لم تحصل من التعليم إلا على شهادة متوسطة، ولم تجد وظيفة مناسبة. ساعدتها ظروف أمها الميسورة نسبيا على الجلوس فى البيت تحلم بالعريس. كان الرجل الذى تحلم به هو الأستاذ سيد، الذى تراه يوميا بصورة شبه دائمة عند دخوله وخروجه، وعند حديثه لأمها فى شأن أو آخر. تحلم به عريسا. إنها تناديه بـ"الأستاذ" مع أن الآخرين فى الحارة والمقهى تعودوا على تعريفه بـ" المعلم"، ولكن الفتاة ترى أن مناداة سيد باسم الأستاذ يرفع أسهمها عنده. تجرأ سيد ذات مرة، وقال لها بطريقة مباغتة:

– اشكرى الست الوالدة، وقولى لها يا سعاد إننى أشتهى الملوخية بالأرانب!

تضرج وجه سعاد بالحمرة، فأضفى على هيئتها نوعا من الجمال الرقيق الذى يصنعه الحياء:

– من عينى يا حضرة الأستاذ. إن شاء الله عندما تعود من الشغل تجد الملوخية والأرانب.

تدارك نفسه:

– لا تصدقى يا سعاد. كنت أمزح!

ردت بثقة وعزم:

– أنت واحد منا يا أستاذ. وطلباتك أوامر!

كان الحلم يداعب فؤادها أن تكون زوجا لهذا الأفندى الذى يعمل فى الحارة، ويحمل شهادة. وكانت تتصور أن الطعام هو أقرب الطرق إلى قلب الرجل، ووجدت فرصة نادرة فى طلبه الأرانب بالملوخية، التى جهزتها بالفعل، ووجد فى تذوقها طعما خاصا أنعشه، وجعلت الفتاة تحظى باهتمامه.

استطاع سيد أن يجعل من سعاد مصدرا للمعلومات عن أسرتها والجيران. راوده التفكير أن ينالها بطريقة لا تقيده بها رسميا لأنه يفكر فى الانتقال إلى مكان أفضل عندما يحصل على الماجستير. ثم إنه يرى الارتباط الرسمى مزعجا له ولبرنامجه اليومى فى العمل والدراسة والمقهى وسهرات الزملاء من رجال الحرفة. لم تكن لديه مشكلة فيما يتعلق بالجنس الآخر. كان يقضى حاجته بطريقته الخاصة عبر اللقاء مع بائعات الهوى اللاتى لديه قدرة على التعرف عليهن بخبرته التى اكتسبها فى مدارس الإيواء. فقد كان المجال هناك مفتوحا بسبب التكدس فى الفصول، واعتياده وهو فى عنفوان المراهقة على سماع التأوهات والتشنجات الليلية من كل الأركان. كانت فترة صعبة كشفت ستر الأسر، وأسقطت كثيرا من التقاليد، وهوت بالآداب العامة التى تحكم العلاقات بين الرجال والنساء، وأشعلت الرغبة فى عروق الشباب والفتيات إلا من رحم الله.

كانت الحارة قديمة إلى حد ما مع أنها نشأت ضمن عشوائيات المدينة، ولكن بيوتها تبدو متماسكة، ومَيَّزَها المقهى الذى يجلس عليه الحرفيون، ومن بينهم سيد عبد الله وزملاء الحارة. كان فى الحارة بعض المحلات الصغيرة لبيع البقالة والدواجن والخردوات المتواضعة، وورشة للحام، وإلى جانبها محل لتأجير الدراجات، وافتتحت على الناصية أخيرا صيدلية صغيرة يقف فيها شاب حديث التخرج قليل الكلام.

معظم سكان الحارة تحت الطبقة المتوسطة وفوق الطبقة الفقيرة. يمكن القول إنهم ميسورون أو مستورون على كل حال. وكانت سعادة سيد بوجوده فى الحارة أن أهلها عرفوه، وكثيرا ما جلبوا له زبائن من الحارات والشوارع المجاورة، فقد شعروا أنه واحد منهم. ولكنه مع ارتياحه فى الحارة إلا أنه كان فى داخله يطمح إلى مكان آخر، وإن لم يجد الوقت الملائم للوصول إليه.

فى طفولته كان يسكن شقة صغيرة تضم أسرته كثيرة العدد. كان لا يرى أباه إلا فى الليل. يعود إلى البيت بعد أن ينهى عمله فى البحر. كان رفاقه الصبيان فى المدرسة يقولون عنه: "البمبوطى يكسب كثيرا، ويصرف كثيرا". لم يعرف معنى الجملة، ولكنه كان يسمعها ولا يفكر فيها. ذات يوم سأل أمه عن معناها. زَوَتْ ما بين عينيها، ومطت بوزها إلى الأمام، وأمرته بالصمت. ركب رأسه وأصر على معرفة معنى الجملة ومحتواها. ولكنه أجل المحاولة إلى وقت آخر. بعد أيام قال لأمه:

– أريد أن أعرف معنى "يكسب كثيرا، ويصرف كثيرا".

لم تتردد أمه فى صفعه على وجهه فشعر بلسع النار، وترك البيت متجها إلى زميل له يسكن قريبا منه، وقص عليه ما جرى، فنظر إليه زميله باستهانة، وقال له:

– معناها سهل جدا. سمعتهم فى الميناء يقولون: إنه يشرب منقوع البراطيش فى الحانة بما يكسبه.

تساءل فى براءة:

– منقوع البراطيش؟

– نعم منقوع البراطيش!

– وما هو؟

– ألا تعرفه؟

– لا

– إنه المشروب المحرَّم.

بدأ ذهنه يستعيد بعض ما كان يجرى بين أبيه وأمه من شجار كانت تتطاير فيه الكلمات حول الشرب والسكر والخمر وغضب الله، وأخذ يصل إلى المعنى رويدا رويدا حتى عرفه، وحاول فى يوم أن يقلد أباه، ولكنه لم يجد ثمن المشروب، فأجل المسألة إلى حين. كان يخرج فى أيام الصيف إلى الشاطئ مع إخوته يرتدون قمصانا طويلة على اللحم دون سراويل، لا يعرفون من أين جاءت بها أمهم: ينتشرون لجمع بقايا السمك الصغير الذى يتسرب على الرمال من الشباك والتجار، يملأون الصفائح التى بأيديهم، يبيعونه بقروش قليلة يعودون بها إلى الأم التى تغطى بها تكاليف الطعام البسيط.

عاد سيد ذات يوم دون أن يحصل على قرش واحد، فكان نصيبه علقة ساخنة من أمه. من يومها كان القرش هدف سيد وغايته. يجب أن يعود إلى البيت بالقرش. ينبغى أن يملأ جيبه بالقرش. لا يساوم إلا من أجل القرش. لا شىء يقف فى طريق القرش. هكذا نشأ سيد وشبّ لا يعرف غير القرش. يعمل فى كل شىء طالما سيعود عليه بالقرش. لا يخجل ولا يستحى من أى عمل يحمل إلى جيبه القرش. كان تلميذا فى الإعدادى وهو يعمل من أجل القرش، وفى الثانوى كان يعمل من أجل القرش، وفى الجامعة كان يعمل من أجل القرش، وبعد الجامعة راح يعمل من أجل القرش. جرب أعمالا كثيرة فى مراكب الصيد: حلقات السمك، جراجات السيارات، تقديم الشاى فى المقاهى، تلبية الطلبات فى المطاعم حتى انتهى إلى مهنة المحارة عاملا يحمل المونة، ثم مساعدا للمعلمين، ثم مستقلا بنفسه

له مساعدون. لم تَرُقْه الوظائفُ التى كان يتهافت عليها زملاؤه. ولكنه اختار الطريق الذى يمنحه حرية العمل ومضاعفة القرش.

لم يشغله العمل عن التحصيل الدراسى. كان ذكيا ويحفظ ما يقوله المعلمون، وربما كان يكتفى بسرده فى الامتحانات إن لم يسعفه الوقت لمراجعة الكتاب جيدا. وكان يبهر زملاءه فى الفصل بحصوله على درجات عالية تفوقهم فى بعض الأحيان. كان وجود القرش فى جيبه يصنع له مركزا قويا فى البيت. أمه اعتمدت عليه بوصفه رب الأسرة البديل عن الأب المغيّب. صار يأمر وينهى فى إخوته. لم تكن له هوايات غير القرش. فى الثانوية جذبه زميل له إلى منظمة الشباب الاشتراكى. جلس مع رفاقه. آمن بالزعيم الملهم الذى سيحقق الاشتراكية والمساواة بين المواطنين، ويقضى على الرأسماليين والإقطاعيين، ويجعل الفقراء فوق الأغنياء. شعر بشىء من النشوة. راح يمضى قدما فى سياق الترقى القيادى بالمنظمة. أصبح من القلائل الموثوق بهم، يقدم تقاريره عن أعداء الثورة والزعيم. لم يعد لديه مانع أن يكتب التقارير فى أقرب الناس إليه ولو كان أبوه. المهم أن يرضى الزعيم ولو كان الزعيم لا يعرفه.

قال له أحد رفاقه فى المنظمة:

– تقارير كثيرة وعميقة وقاتلة!

– فى سبيل القيادة التاريخية كل شىء مباح!

اندهش زميله:

– كل شىء مباح؟

رد عليه بثقة وجسارة:

– ولو كانت كتابة التقارير ضد الآباء والأمهات!

حدثت الهزيمة، فأبلى بلاء حسنا فى الوقوف إلى جانب الزعيم الذى لم يقابله أبدا: من خلال المظاهرات التى طالبته بالبقاء بعد التنحى، ورفع الروح المعنوية للشعب المهزوم. تمكن سيد أن يقود خلية فى التنظيم الطليعى. ومع أن هذه الخلايا كانت لا تعرف بعضها ولا قياداتها العليا فقد شعر أن العيون مركزة عليه ليتبوأ مركزا مرموقا. ومع ذلك لم يترك عمله الذى وجد فيه فرصته لجمع القروش، وعرف كثيرا من أهل المهنة، وتوطدت صلته بهم.

كان فى السنة الأخيرة بالجامعة، وأحدثت حرب الاستنزاف زلزالا فى مدن القناة بسبب القصف اليومى المتبادل الذى أتى على كثير من البيوت والمبانى والمؤسسات. الجيش فى الخنادق ليتفادى القذائف، أما المدنيون فهم مكشوفون للعدو، الذى لا يبالى بقوانين الحرب، فكان التهجير إلى الدلتا والصعيد، الذى حفر فى وجدانه أثرا عميقا.

عقب وفاة الزعيم فى سبتمبر ١٩٧٠ الفجائية تهاوى حلمه بالمنصب القيادى فى التنظيم مع أنه تخرج وحصل على الليسانس. كانت محاكمة ما أطلق عليه: "مراكز القوى" ضربة موجعة للتنظيمات الاشتراكية، والتنظيم الطليعى فى مقدمتها، فترك عائلته فى مركز الإيواء يتلقَّوْن معونات الدولة، وانطلق يعمل بعيدا عنها ويعيش منفردا فى المدينة التى درس فى جامعتها، وحفظ دروبها وملامحها، واستطاع أن يجد فيها مجالا رحبا للعمل وإثبات الوجود خارج المنظمة والتنظيم.

* * *

فى المقهى عرف شرب الشيشة إلى جانب التدخين، وفى بيوت رفاق المهنة والسهرات الليلية أعاد سيرة أبيه، وألف الطريق إلى المشروب الحرام، ومرافقة الساقطات. ومعهن كان يستعيد تأوهات مركز الإيواء فى الليل، فيفرغ طاقته الحبيسة مستشعرا تعويضا لشىء ما لا يعرف ما هو. فكر ذات ليلة أن ينال سعاد

ابنة صاحبة البيت. راح يضع الخطط التى تُوقِعها فى حبائله معتمدا على سذاجتها وحلمها أن تحصل على عريس يوفر لها الأمن والسعادة. بيد أن الرياح لم تكن مواتية!".

لقد وصف المؤلف الحارة وطبيعة سكانها، وهى البيئة التى خرَّجت أبا السيد إلى الحياة بعد الجامعة، ووصف الأسرة التى كان يسكن فى شقتها وكيف كان يهتبل كل سانحة ليطلب الطعام من البنت المسكينة التى كانت تتطلع إلى الزواج منه، وهى فى الواقع أرقى منه إنسانية، فهو لا يستحق سوى فتاة فى مثل سفالته وانحطاطه وجمود وجهه واتضاعه. وهو حين يطلب طعاما فإنما يفعل ذلك كأنه يمزح، لكنه يقصد ما يطلب قصدا. إنه طَفِسٌ، وبطنه طَفِسَةٌ، وذوقه طفس، وكل شىء فيه طفس دنِىء. ولو كانت فيه ذرة من الإنسانية لكان ينبغى أن يمد يده بالمساعدة للسيدة وابنتها بدلا من مد يده للأخذ والشحاتة. لكن ماذا نصنع به وبطفاسته؟ ولا ننس أنه متدله فى هوى القرش بل يكاد يعبده عبادة. وقد نجح المؤلف أيما نجاح فى الإيحاء بهذا التدله المرضى، وذلك فى إحدى فقرات النص الماضى حيث كرر كلمة "القرش" بضع عشرة مرة، كل مرة فى آخر كل جملة، فصارت كلمة "القرش" تتكرر كأنها صدى ترَدِّده شواهق الجبال. ثم إنه سوف يتنكر لكل ما مَنَّى به الفتاة المسكينة ويتركها طعينة القلب. لقد أدت هى وأمها دورهما فى حياته، وانتهى الأمر بلا رحمة أو تردد من جانبه.

كذلك تصف الرواية دوره فى التجسس والتلصص على من يعرفهم ممن يمكن أن يذكروا النظام السياسى بكلمة نقد يقولها أحدهم فى ساعة تململ من الأوضاع. وهو فى هذا لا يرحم ولو كان المكتوب فيه التقرير أباه أو أمه. إنه وحش منحط ضارٍ لا يبالى بقيمة أو مبدإ. إنه يريد التسلق على أكتاف الآخرين والسلام، حتى لو كان هذا التسلق على حساب حياة أولئك الآخرين. وتصف

الرواية أيضا البيئة العفنة النتنة التى يقضى وقته مع أهلها من ساقطات وخمورجية. إنه كتلة شهوات وأحقاد. ولم يشعر نحو البنت المسكينة الساذجة بأى عطف. إنه لا يعرف الشكر ولا حفظ الجميل، فحاول مرارا أن ينال البنت فى الحرام اعتمادا على أن البنت تريد أن تتزوجه، فهو يتصور أنها سوف تطيعه وتسلم نفسها له تطلعا إلى أن يتزوجها. لكن الظروف، كما يقول المؤلف، كانت غير مواتية، فنجت البنت بحمد الله من ذلك الوغد السافل الذى لا يفترق عن الوحش المفترس بشىء، ذلك الوغد الذى يجمع بين طباع الثعلب وطباع الخنزير. والعجيب أن هذا المجرم يشق طريقه بكل سلاسة إلى الميدان الجامعى ويصبح مدرسا فى إحدى الكليات جراء وقوف المجرم الأكبر إلى جانبه فى مقابل الخدمات التى كان يقدمها له. وكما يرى القارئ الكريم لا يوجد أدنى فرق بين سيد كباية وبين الشخار النخار سباب الدين. والأستاذ الذى ساعد هذا، فيما أتصور بل أرجح بل أكاد أوقن، هو نفسه الذى ساعد ذاك.

والمعروف أن النقاد الكلاسيكيين يطالبون فى المآسى أن يسقط بطلها العظيم من عليائه سقوطا مدويا، وأن يكون سبب سقوطه ومأساته كامنا فى شخصيته، وإلا ما كانت مأساة. أما فى حالة سيد كباية فالساقط ليس بطلا ولا عظيما بل خنزيرا حقيرا، وإن كان سبب سقوطه متضمَّنا فى شخصيته. وهذا السقوط، وإن أبهجنا، لا يتمشى دائما مع الأوضاع فى البلاد المتخلفة حيث يرتقى فى كثير من الأحيان الوضيع، ويسقط الشخص الجاد الشريف العامل ذو الخلق الرفيع.

لقد حصل أبو السِّيد على الدكتوراه وهو لا يصدق نفسه، ومع هذا فقد أهمل أهله تماما ولم يكن يسأل عنهم أو عن أحوالهم ولا يستجيب لشوقهم إليه فلا يفكر فى زيارتهم بتاتا. بل إنه، حين أتاه خطاب بأن والده مريض ويوشك أن

يموت لم يبال ولم يذهب لرؤيته متعللا بأن ذهابه لن يؤخر موته، وأن أباه لم يكن يهتم به فى صغره، فكيف يراد منه أن يهتم هو به الآن؟ ثم تزوج زميلة له فى منتصف الثلاثينات مثله متوسطة الجمال توشك أن تعنّس، وساهمت معه فى تكاليف الزواج بأكثر مما دفع هو، وكانت إنسانة طيبة تهفو إلى أن تكون لها أسرة خاصة بها، وهو ما تحقق لها، وإن كانت خشونة أبى السيد وجلافته لم تختف تماما بل تظهر بين الحين والحين. وبالمناسبة لم يعزم سيد أحدا من أهله فى عرسه اتباعا لسياسته فى الابتعاد عنهم وعما يمكن أن يأتيه من وجع دماغ من ناحيتهم. ورغم زواجه حن إلى التردد على المومسات، وعملها ذات ليلة مع زميله صبحى بطرس. إنه كذيل الكلب لا يمكن أن يستقيم أبدا. وقد فاجأتهما فى تلك الليلة كبسة من الشرطة أخذتهما عاريين إلا من ملاءة إلى قسم الشرطة حيث رآهما العميد هناك حينما ذهب لمقابلة الضابط وتمنَّى طَيَّ الموضوعِ وتَرْكَ العقاب للجامعة، وهو ما كان، ثم نقلته الجامعة إلى جامعة أخرى حيث قضى عاما استمر فيه يتعاطى الخمر الرخيصة كعادته، بينما زوجته تعامله ببرود وتلوذ بالصمت ولا تتفاعل مع ما يقوله أو يفعله أبدا.

وفى النص التالى نقرأ كيف قبض على سيد وصديقه صبحى بطرس فى بيت المومسات، وسيقا إلى قسم الشرطة حيث قضيا ليلتهما فى غرفة الحجز مع عتاة المجرمين. ومرة أخرى لا أدرى كيف استطاع المؤلف تصويرَ هذا الجوِّ وإجراءَ ذلك الحوارِ الذى سنقرؤه حالا، وهو مثل العبد لله لا له فى الثور ولا فى الطحين فى مثل تلك الموضوعات بل ربما كان أكثر منى تعبدا وابتعادا عن ضجيج الحياة حيث ينزوى فى بيته الريفى بقريته قرب شمال الدلتا. ولكن ما علينا. فلنقرأ النص القوى الذى يضرب فى الصميم تصويرا ولغة وسردا وحوارا، والكلام فيه عن المكتب الذى كان يجلس فيه صديقنا كباية بكليته الجديدة التى نقلته إليها الجامعة

بعيدا عن الألسن والأنظار بعد فضيحة القبض عليه هو وصديقه صبحى بطرس فى بيت دعارة شعبى على قد الحال:

"جلس سيد عبد الله فى مكتبه يحاول أن يشغل نفسه ويملأ فراغه. كان هاجس الفضيحة يهيمن على تفكيره، يريد أن ينساه، ليس من أجل أن يتطهر ويتوب، لكن من أجل صورته فى عيون الآخرين. يريد أن يظهر بمظهر القوى الشديد الذى لا ينال منه شيء ولو كان فضيحة تنتهى به فى غرفة حجز الشرطة بالملاءة التى تستر جسده، ويجلس على الأرض الإسمنتية مع النشالين، والبلطجية، والمتشردين، والمتسولين، والمدمنين، والمَدِينِين، والغارِمين، وتجار المخدرات و... لن ينسى هذه الليلة أبدا. إنها ليلة رهيبة. رفاق الغرفة من المجرمين العتاة يتهكمون على جريمته هو وصاحبه، ويصفونهما بالخيبة والسذاجة فى التعامل مع هذه المسألة البسيطة من وجهة نظرهم. ولأن الرفاق ذوو خبرة فى كيفية الضحك على البوليس والمخبرين والفرار من قبضتهم الغشوم فإن سيد وصاحبه لا يملكان هذه الخبرة أو إن خبرتهما محدودة. قال لهما بائع مخدرات قديم:

– من الغباء يا أفندى أنت وهو أن تذهبا إلى مكان يرصده البوليس.

لم يردّ صبحى أو سيد، فاستكمل البائع تقريعه:

– ألم يكن لديكما مكان أكثر أمانا؟

نظر الرجل فوجدهما قد أطرقا ونكسا رأسيهما، ولم ينبسا ببنت شفة.

– لم أر أخيب منكما! وأفندية كمان؟ إخص!

من أركان الغرفة جاءت تعليقات المحتجَزين ساخنة وساخرة ومؤلمة لا يحفظ سيد منها شيئا إلا وقع سياطها على روحه الميتة لأنه، وهو معلم الحارة السابق الذى يجيد فنون العراك والضرب، كان عاجزا عن الرد أو الصد أو الكلام. وكلما

همّ أن يقول شيئا من أعماقه الميتة احتبس صوته، ومات الكلام على فمه، والملاءة على جسده العارى تشعره بعار العجز والوضاعة".

واستطاع سيد كباية بمساعدة عبده الإسكندرانى أن يسافر فى إعارة إلى السعودية، وهناك لم يفارقه طبعه، فكان يختلف مع زملائه فى شراسةٍ فِجَّةٍ، وكاد أن يتسبب فى أذًى مدمِّر لزميل له هناك، إذ اتهمه ظلما وكذبا من باب الانتقام جراء خلاف تافه كان هو المخطئ فيه بأنه يعادى الإسلام (وهو نفس ما صنعه المجرم الشخار النخار سباب الدين كما لعلكم تتذكرون، فالطينة النتنة النجسة الدنسة واحدة) لولا أن شهد سائر الزملاء أن زميلهم المشكو فى حقه رجل فاضل ويحب دينه، وهو ما لم يفعله زملاء الشخار النخار سباب الدين، وكلهم ملتحون، وبعضهم صار رئيسا لبعض الجمعيات الدينية التى يتبعها الملايين فى مصر، بل تركوا الأمر يمشى فى مساره ولو كانت النتيجة قطع رقبة زميلهم المشكو ظلما وزيفا وحقدا وتنكرا للجميل. والغريب أن سيد كباية، الغيور على الدين بهذا الشكل المباغت، والذى لم يكن يصلى طوال حياته فى مصر، كان حريصا، من أجل لفت أنظار المسؤولين بالكلية والجامعة فى السعودية، على تأدية الصلاة فى وقتها، وفى الصف الأول دائما، ولكن بغير وضوء.

وفى واقعة أخرى تهجم على زميل له وسبه سبا مقذعا مفحشا وكاد يفتك به لولا حُؤُول الزملاء بينهما، ورفع الزميل المذكور عليه دعوى فى المحكمة بتشجيع من سائر أعضاء القسم الذى يعمل فيه، إذ أرادوا وضع حد لسفالاته وتصرفاته الإجرامية التى أزعجتهم جميعا ولوثهم طينها، فحكمت على صاحبنا بالجلد إلى جانب التعويض المالى الضخم. وتدخلت زوجته لدن زملائه طويلا، فأثمرت توسلاتها إليهم لما كانت تحظى به من سمعة طيبة على عكس زوجها السافل المجرم، ونُفِّذ الجلد لعدة أسابيع على أن يتم مرة كل أسبوع، وشهد القاصى والدانى مجرمنا

وهو يجلد عاريا، فازداد نقمة على الجميع ولم يحفظ جميل التنازل عن التعويض، ولم يتذكر سوى الجلد، الذى لا يستطيع رافعُ الدعوى أن يتنازل عنه لأنه حق الدولة، ولا مناص من تنفيذه. ثم كانت النتيجة آخر العام أن الجامعة لم تجدد العقد له ولا لزوجته، فعادا إلى مصر والفشل والعار والخذلان يرافقه.

وشعرت الزوجة بقسوة الظروف عليها، فكانت تعدِّد فيما بينها وبين نفسها بهذه الكلمات التى أوشكتُ وأنا أقرؤها فى كل مرة أن تفرّ منى دموعى لولا بقية من تماسك، والتى سبق أن عَدَّدَتْ بها حين مات أبوها، الذى تركته وحيدا بمصر لتلحق بزوجها فى الجامعة التى نُقِل إليها بعد فضيحة بيت المومسات:

قـــــالوا: شـــــقية قلــت: مــن يــومي
قـــــسموا النوايــــب طلـع الكبـير كـومى

* * *

يا حـــــسرتى لمـــا قـــالوا لى: مـــات
دبيـــت علـــى ســـدرى تـــــلات دبات
واتهـــدّ مـــن حيلـــى تـــلات هـــدّات

* * *

نَخْلَـــه بَـــلا حَـــارِس يُرُدُّوهَـــا
حُرْمَـــهْ بـــلا راجـــلْ يِهِينُوهَـــا
نَاقَـــهْ بَـــلا جَمَّـــالْ يفُوتْهَـــا الـــصِّيف
حُرْمـــه بـــلا راجـــل هَتِعْمِـــلْ كِيـــفْ

ولا أدرى من أين أتى حلمى القاعود بهذه الأبيات المؤلمة، فأنا مثله من الريف، وكنا نرى فى طفولتنا وصبانا النسوة وهن يعدِّدن فى بيوتهن وبيوت جاراتهن

وقريباتهن حين يموت لأى منهن ميت، لكنى لم أسمع قط بهذه التعديدة العجيبة التى تشق القلب شقا.

ولما عاد الزوجان إلى أرض الوطن ظل سيد على عهده فى السلوك والتفكير وكراهية الآخرين والتربص بهم وقلة الأدب والإجرام معهم والتلاعب فى نتائج الامتحانات حتى ضاق به الجميع، وكتب العميد فيه مذكرة، وأحيل إلى التحقيق. ثم زاد على ذلك أنْ تقدَّم يخطب زميلة بالكلية اسمها سحر الحلوانى، وهى البطلة الثانية فى قصتنا، ولها حكاية توجع القلب وتستدر الدموع، وإن كانت حكايتها قد انتهت نهاية باسمة بهيجة، لكنها رفضت عرضه حفاظا منها على مشاعر زوجته، التى كانت تعزها وتثنى عليها وعلى أخلاقها، فكأنها ضربته فى قلبه بسكين. وهو ما ردت عليه الزوجة بأن بحثت لها عن زوج يملأ عليها حياتها بدلا من أن تقضى باقى عمرها أرملة تربى ابنها وحدها منعزلة عن المجتمع، حتى وجدته فى شخصِ زميلٍ كريمٍ، وتمت الزيجة على يديها.

وقد حاول سيد أن يجد من يعينه فى ورطته، لكن د. عبده الإسكندرانى كان قد وهن صحيا وتهاوت مكانته فى الجامعة وفى مؤسسات الدولة التى كان له فيها نشاط إدارى وثقافى يدر عليه المال ويبوّئه المنزلة العالية، ثم سرعان ما مات، وحُكِم على سيد بالفصل من الجامعة، فهاج وماج فى مكتب العميد وأخذ يتلفظ كعادته بالبذىء من القول والتنفج الكاذب عن الشرف والأسرة الكريمة التى ينتمى إليها ويهلوس فى حديثه هلوسة المخمورين والمجانين. ولما لم يُجْدِه شىءٌ من ذلك نفعا ترك المكتب والكلية وركب سيارته غاضبا وانطلق بها بأقصى سرعة محاولا التخفف من غضبه ونقمته وشعوره بالعار والخزى، فكانت النتيجة أن عمل حادثة تحطمت فيها سيارته وفقد فيها حياته. وأسرعت زوجته تسأل عنه، وفى قلبها مرارات الدنيا كلها وشعور بالفشل يجللها.

وتحكى الرواية البديعة هذا الموقف فى آخر فقراتها على النحو التالى: "خرجت الدكتورة ليلى تتابع ما فعله سيد، وتسأل من يقفون على باب الكلية: إلى أين اتجه بسيارته؟ وكيف كانت حالته؟ وهل كان معه أحد؟ كانت تتحدث بينما يشتعل داخلها بالألم والبؤس النفسى والاجتماعى نتيجة اقترانها بشخصٍ فَقَد الرشد والصواب، ولم يبالِ بنفسه ولا أولاده ولا صورته أمام الناس. ثم يأتى عزله من وظيفته ليصب مزيدا من الملح على الجرح. صحيح أن لديه بعض المدخرات التى تهيئ له حياة لا بأس بها، وسيحصل على معاش بسيط نسبيا يساعد على تسيير الأمور. الضربة القاتلة هى العزل من الوظيفة. ماذا سيقول الناس؟ وكيف يواجه الأولاد زملاءهم فى المدارس حين يأتى الحديث عن الآباء ووظائفهم؟ وبم يردون على أقرانهم حين يسألونهم: لماذا يجلس أبوهم فى البيت؟ ولماذا هو فى المعاش قبل الستين؟ ألم تعلموا أن الأساتذة يظلون فى العمل بعد سن المعاش؟ لماذا يا سيد وضعت الجميع تحت سيف لسانك، ومطرقة يدك؟ الله يسامحك!

ما كادت تعود إلى مكتبها لتجمع أوراقها وتأخذ حقيبتها حتى كان الهاتف الداخلى يخبرها أن العميد ينتظرها ثانية فى المكتب. بادرها بالاعتذار لأنه طلبها:

– ستذهبين بسيارة الكلية إلى المستشفى العام، فقد تلقيت مكالمة بوصول الدكتور سيد إليها. ويبدو أنه تعرض لحادث وهو يقود سيارته التى تهشمت! قلبى معك.

شعرت بانهيار أدخلها فى دوار وإغماءة. سرعان ما أفاقت. حملتها السيارة إلى المستشفى، ويا لهول ما رأت! كان سيد ممددا على سرير فى الطوارئ بلا حراك. قال لها الأطباء:

– البقاء لله!

أطلقت صرخة داوية سمعتها الدنيا كانت خلاصة لمأساتها مع سيد وبسببه. ولم تشعر بنفسها إلا بعد حين على سرير غير نظيف فى غرفة الطوارئ. رأت الناس من حولها يئنون، والمحاليل معلقة فوق رءوس بعضهم، والمكان يعج بالمرضى والمصابين والأطباء والأهالى والمرافقين لا مجال فيه للتنفس. كل شىء حولها يدفعها إلى المغادرة دفعا. سألت عن زوجها، وعرفت أن عددا من الزملاء جاءوا لتجهيزه استعدادا لدفنه. لم تكن له مقبرة فى المدينة، فلم يفكر فى بناء واحدة، وأهله فى السويس بعيدون. ضمته واحدة من مقابر الصدقة، وطويت صفحة سيد عبد الله، الذى انتقل من الحارة إلى الجامعة.

كان زميله فتحى محروس يبكى بحرقة، ويأسى على زميله الذى كان يمكن أن يرقى بسلوكه وعلمه إلى مرتبة إنسانية أعلى، ولكنه أخلد إلى الأرض. فما كانت المهنة مهما كانت متواضعة قيدا على صاحبها يمنعه من مباشرة إنسانيته المهذبة. كنتُ سباكا ولم يمثل ذلك عقدة لى أو سلوكا نشازا فى حياتى، وما زلت حتى اليوم أحل مشكلات السباكة فى بيتى وبيت أبى. لا تجوز عليك إلا الرحمة. الله يرحمك يا سيد!

أما الدكتورة ليلى فقد كانت تراه صورة يحتمى بها أولادها، وقد ذابت اليوم هذه الصورة تاركة وراءها العار والحزن والألم، وراحت تردد فى أسًى العدُّودة القديمة:

قالوا: شقية قلت: من يومي
قسموا النوايب طلع الكبير كومى

طلع الكبير كومى. طلع الكبير كومى. طلع الكبير كومى. طلع الكبير كومى. طلع. طلع. طلع...

وذابت الكلمات مع دموعها المدرارة".

والآن لقد لاحظ القراء حملتى الشعواء على سيد كباية، وأغلب الظن أنهم استغربوا هذا الموقف لأن الرجل مجرد شخصية خيالية فى رواية من الروايات. أعنى أنها ليس لها وجود مطابق فى الواقع لا أنها من بنيات خيال المؤلف تماما. ولكن لا بد من القول بأن المؤلف كان من البراعة بحيث قَرَّ فى رُوعِنا أننا أمام عمل حقيقى وقع كما هو فى الرواية. كما أن تعرفى على بعض شخصيات الرواية كعبده الإسكندرانى، ومشابهة بعضها الآخر لأشخاص مروا فى حياتى كسيد كباية، الذى يشبه شخارنا النخار سباب الدين على ما مر بيانه، قد ساعدانى على توهم حقيقة كل ما طالعناه فى ذلك العمل القوى المحكم الرائع.

من هنا ثار فى نفسى السؤال التالى: هل كان سيد كباية حرا فى تصرفاته الإجرامية وكلامه البذىء وشراسته مع الآخرين وتآمراته عليهم؟ أم هل كان خاضعا خضوعا إجباريا فى إتيان كل ذلك؟ لقد مهد المؤلف لكل شىء وقع فى حياة صاحبنا أو له على نحو مقنع بحيث بدا لنا كل تصرف أو قول يصدر عنه أمرا طبيعيا ومنطقيا. ومن هنا يمكن أن يتسرب إلى نفوس بعض القراء أنه معذور، ولا ينبغى من ثم القسوة عليه فى محاكمته، فهو ابن بيئته وظروفه. لكننى أومن أن الإنسان، مهما كان ضغط ظروفه عليه شديدا ومزعجا وملحاحا، يمكنه عادةً التصرف بشىء من الحرية والاختيار لو أراد. ودليلى على هذا هو ذلك الإحساس الفطرى داخل كل منا بأن لديه مساحة من الحرية يمكنه فى نطاقها إتيان هذا الأمر أو تركه. ودليلى أيضا أن كل المجتمعات طوال التاريخ أنشأت المحاكم واللوائح والقوانين للعقوبة والمثوبة، ولا يمكن أن يُجْمِع كل البشر طوال التاريخ على خطإ. كما أن الأديان تتحدث عن عقاب الآخرة إلى جانب عقاب الدنيا، الذى يمكن أن يطيش فلا يصيب الهدف، ويُظْلَم فيه البرىء ويكرَّم المجرم، فتأتى محكمة الرب فى العالم الآخر لتعدل المائل وتقوِّم المعوج. وأنا أتصور الإنسان دائما

وقد رُبِط بسلسلة طويلة فى وتد مغروز فى الأرض، فهو حر فى الحركة بطول السلسلة حول الوتد من كل نواحيه، لكنه لا يمكن أن يتحرك خارج نطاق تلك الدائرة. وهو ما يرمز إلى الأفعال التى يمكن محاسبة الإنسان عليها، وتلك التى لا يمكن معها تلك المحاسبة. وفى ضوء هذا نفهم قوله تعالى: "لا يكلف الله نفسا إلا وُسْعَها". ورغم هذه الدائرة المحدودة فقد أنجزت البشرية العجب العجاب، فكان اختراع اللغة وإنشاء المجتمعات وتفصيل الملابس وإبداع الأساليب المختلفة لإعداد الطعام وإقامة دور العلم وتنظيم القوانين وصنع وسائل الاتصال وإنتاج الأسلحة واكتشاف الأمراض والتوصل إلى علاجها وأدويتها... إلى أن وصلنا فى عصرنا إلى السيارات والقطارات والبواخر والطائرات والصواريخ وسفن الفضاء والغواصات والمذياع والتلفاز والأقمار الصناعية والكاتوب والمشباك والهاتف المحمول وغير ذلك مما لا يحصى.

أما التعلل بالقضاء والقدر فلا معنى له لأن القضاء والقدر لا يُعْرَف إلا بعد وقوعه، وأما قبل ذلك فلا. ذلك أن القضاء والقدر هو نتيجة التفاعل بين القوانين الكونية وإرادات الآخرين وأفعالهم من جهة وبين إرادة وأفعال الشخص، الذى يستعين فى ذات الوقت ببعض تلك القوانين الكونية للتغلب على قوانين أخرى، ويمكنه بمعونة أولئك الأشخاص التغلب على أشخاص آخرين... وهكذا. وكل شىء فى الكون فى يد الله سبحانه، وليس معنى هذا أنه يسيِّرنا تسييرا دون أن يكون لنا مشاركة فى توجيه الأحداث، بل إنه سبحانه قد أنعم علينا بذلك القدر النسبى من الحرية والاختيار كما وضحنا آنفا. نعم، إن مشيئته مطلقة شاملة بلا أدنى جدال، لكنه عز وجل قد أكرمنا داخل هذه المشيئة المطلقة الشاملة بمشيئة على قدنا نستطيع أن ننجز بها الكثير. ثم إن الأفق الإلهى يختلف عن أفقنا البشرى، وعليه فلا معنى للتعلل بأن علم الله سابق على وقوع الأحداث، ومن ثم

فحين نفعل هذا أو ذاك إنما ننفذ ما أراده سبحانه سلفا، إذ ليس فى علم الله ولا فى مشيئته قَبْلٌ ولا بَعْدٌ. إنهما أزليان أبديان موجودان وجودا حاضرا على الدوام. وبالتالى فإن أَمْرَىِ المشيئتين: الإلهية والبشرية مختلفان تماما، ولا يتصادمان أبدا.

ومن هنا فإننى أدين أبا السّيد إدانة شديدة رغم وعيى بالظروف الرديئة التى تربى ونشأ فيها. ذلك أن هناك من هو أفظع منه ظروفا لكنه لا يتدنى ولا يتدهدى إلى هذا المستوى المنحط اللاإنسانى. لقد كان ينبغى أن يشكر الله ويحمده ويجتهد فى الاستقامة إقرارا بصنيعه سبحانه معه ونعمته عليه حين سهَّل له، من حيث لا يحتسب ولا يستحقّ، العمل فى الجامعة والبناء بدكتورة جامعية أصيلة وبنت حلال، والسفر فى إعارة. لكننا رأيناه لا يشكر ولا يحمد ولا يحفظ لأحد ممن عاونوه فى هذا السبيل وفى غيره جميلا ولا يعترف له بصنيع ولا حتى بينه وبين ضميره، الذى يصعب على أى منا خداعه، ولم يحاول الارتقاء بنفسه قط ولا شعر بشىء من لذع الضمير ولا الندم على أى ذنب أو ظلم أو إيذاء فَرَطَ منه، ولا فكر بعقله البارد فى مراجعة سلوكٍ معوجّ سَلَكَه أو موقفٍ مجحفٍ أَخَذَه أو لفظٍ بذىءٍ خرج من فمه أو خطةٍ شيطانيةٍ مدمرةٍ وَضَعَها. لقد تَصَحَّرَتْ بل تصخَّرت حاسته الأخلاقية حتى بدا أنه بلا حاسة من هذا النوع، إذ لم نره يحاول تصحيح ذاته فى شىء على الإطلاق. لقد كان بمكنته أن يتوقف ليحاسب نفسه ويتساءل عن مدى ما فى تصرفاته وتخطيطاته من صواب أو انحراف. لكنه كان كالقطار الذى تركه سائقه عامدا متعمدا وعالما بما سوف يحدث من مصائب بمنتهى الوضوح، وقفز منه وتركه يجرى بأقصى سرعته فوق القضبان، وفيه المسافرون المساكين. فماذا ينتظر فى هذا الحالة سوى الكوارث الرهيبة؟ أمن العقل والحكمة تقدُّم أحد للدفاع عن السائق فى هذه الحالة الواضحة الصريحة والتماس العذر له

على جريمته المتوحشة التى أتاها عن ترصد وسبق إصرار مع علمه التام بالنتائج البشعة التى تترتب عليها؟

ومن التصوير البارع للشخصيات فى الرواية أيضا تصوير شخصية إبراهيم الحلوانى والد د. سحر الحلوانى المدرّسة بذات الكلية التى كان يعمل بها سيد كباية: "ولدت سحر الحلوانى فى إحدى قرى الدلتا الواقعة على نهر النيل لأب غنى وأم فقيرة. انفصل أبواها مذ كانت طفلة فى المهد. تعددت الأقاويل حول أسباب الانفصال، ومن بينها أنه لم يكن طلاقا كما يشاع، بل كان قرارا من الأم حين أخذت ابنتها بليل ومضت إلى غير رجعة، ولم يعرف أحد وقتها إلى أين؟

كان والدها إبراهيم الحلوانى ابنا لفلاح يملك عددا محدودا من الأفدنة فى القرية والقرى المحاذية، فاحتل مركزا اجتماعيا لا بأس به بين الأعيان، ولكنه لا يشارك فى أحداث القرية وصراعات عائلاتها الكبيرة مع أن عائلته كبيرة أيضا، وتحتل ركنا بارزا فى جنوبها وشمالها. يؤدى واجب العزاء، ويهنئ فى الأفراح، ولا يستهويه منصب مشيخة البلد أو العمودية. يحظى بعلاقة طبيعية مع الأطراف كافة، فهو غير محسوب على أى طرف، وفى الانتخابات لا يذهب إلى صندوق الاقتراع سواء كان الاقتراع لمجلس النواب أو الاتحاد القومى بعد **١٩٥٢** أو العمودية أو مشيخة البلد.

حين تزوج الرجل أنجب إبراهيمَ وأخًا آخَر، وثلاثَ بنات. حاول أن يعلم ابنه الأكبر إبراهيم، فاشترى له البدلة والطربوش والحقيبة الجلدية وأرسله إلى المدينة ليتعلم، ولكنه تعثر. ولم يكن هناك مفر بعد سنوات من الخيبة إلا العودة إلى القرية، ومتابعة العمل فى الأرض الزراعية...

كانت أخوات إبراهيم البنات قد تزوجن واستقرت بهن الأحوال فى أسرهن الجديدة، واستطعن حل مشكلة الميراث معه بحكم أنه الشقيق الأكبر المهيمن على

الأرض والحيوانات والبيوت والأموال السائلة وغيرها، وذلك بعد تدخل رجال طيبين، أما هو فقد كان يشترى بعائد الميراث كله أرضا جديدة ويسجلها باسمه. وقد تنازلت البنات عن هذا الجانب إيثارا للسلامة وعدم قطع خيط المودة مع الشقيق الأكبر. قالت له أمه ذات يوم:

– إنك تظلم أخواتك البنات.

رد عليها بغير مبالاة:

– أنا الذى يقوم على زراعة الأرض، وهن فى بيوت أزواجهن لا يدرين شيئا عما أبذله وأعانيه.

قالت الأم بشىء من الامتعاض:

– الحق أحقُّ أن يُتَّبَع، وهذا شرع الله يا بنى!

لزم الصمت ومضى.

* * *

كانت قصة زواجه التى انتهت بالفشل الذريع حديث القرية، واستمرت لفترة طويلة موضع مناقشة الرجال فى أوقات العصارى: على المصاطب، أمام البيوت، وعلى رصيف مسجد القرية. قال أحدهم فى جلسة تضم بعض الرجال:

– أما كان لزوجة إبراهيم أن تصبر قليلا؟

أكمل الآخر:

– وكانت طفلتها الرضيعة تفرض عليها أن تتحمل حتى تجد حلا.

ولكن ثالثا قال:

– كيف تصبر، وطباعه لا تطاق؟ ثم إنه لم يكن ينفق عليها!

وأردف:

– إن القرش يخرج من جيبه مثل خلع الضرس!

بـدا الاسـتياء علـى وجـوه الحاضـرين بـلا اسـتثناء. كـانوا يعرفونـه جيـدا، ويحفظـون تـصرفاته وعاداتـه. كـان لا يغـير ثوبـه طـوال شـهور. لا يـشترى صـابونة ليغتسل. يذهب إلى النهر ويدعك جسمه بالطين، ثم يغطس عدة مرات، ويخرج ليلبس ثوبه البالى!

قـالوا إن حالـه سيتغير بعـد الـزواج، ولكـن الفتـاة الـتى اختارهـا ولم يبـذل لهـا مهرا يُذْكَر صُدِمَتْ بحرصه وتقتيره، فضلا عن طباعه الحادة، فأمضت نحو ثلاث سـنوات تعـانى فى بيتـه. ولـولا أن الخبـز والجـبن والبـيض والألبـان متـوفرة فى البيـت الريفـى بحكـم العمـل فى الزراعـة ووجـود الحيـوانات والطيـور الـتى تـتم المقايـضة بمنتجاتها أو بها لـشراء الزيـت والـسكر وكيروسين الإضـاءة وتـشغيل الموقد، وبعض الخضراوات الـتى لا توجـد فى الحقـل وتلـزم للطبـخ أو المائـدة لكانـت الأمـور أشـد صعوبة.

لم يكن ينفق مليما من ثمن القطن أو الحبوب التى تأتى من بيع المحاصيل. كان يدخرها لشراء بعض القراريط من هنا أو هناك. وربما يكون هناك من يريد أن يبيع فدانا أو أكثر، فيجد فى إبراهيم الحلوانى مشتريا منافسا لغيره سواء فى السعر أو الدفع الفورى. كانت الأرض هى شهوته التى لا تنطفئ. ومن أجل إشباع هذه الشهوة عاش مثل أفقر الفقراء شكلا ومضمونا. زد على ذلك تعامله المتشدد مع الفلاحين وهـو يتقاسـم معهـم الحبـوب أو النقـود. لم يكـن يـؤجر الأرض للفلاحين. كان يسمح لهم بالمشاركة بشروطه، وشروطه فيها غَبْنٌ كبير، ولكنهم كانوا يقبلون لأن البديل هو الجلوس بجوار الحائط، وخلوّ الدار من القمح واللبن، وهما عماد المعيشة فى البيت الريفى. روى أحدهم شيئا عن بخله فقال:

– رأيتـه ذات يـوم يـترك جلـستنا علـى شـاطئ النهـر، وينتحـى بعيـدا عنـا، ويجلس فى عشة صغيرة متربعا وحيدا على الأرض. كان ينحنى على حِجْره، ويداه

تعملان. تسللت إليه دون أن يحس بى. نظرت فوجدته يقسم سيجارة ماكينة، ويضع نصفها فى جيب الصديرى، ويَفْرُط نصفها الآخر فى ورقة رقيقة من ورق السجائر اللَّفّ (البافْرَة)، ويبرمها، ثم راح يشعلها، ويدخن منتشيا! قال أحد الجالسين:

– ليته لم يشتر السيجارة ولم يدخن، فيريح صدره، ويريح جيبه!

ضحك ثالث، وقال:

– إنه لا يشترى غير سيجارة واحدة، ولا يستطيع أن يدخنها أمام الناس حتى لا يحرجه أحد حين يعزم عليه فيتقبلها منه، ويجلس هو يشتهى نَفَسًا.

قال رجل كبير السن، يبدو عليه الوقار والتدين:

– السجائر مكروهة، ورائحتها لا تطاق. والأولى عدم التدخين!

* * *

لم يسع إبراهيم إلى الزواج ثانية، ولم يحاول أن يبحث عن ابنته وأمها. عاش سنوات طوالا بمفرده يعتمد على خدمة أمه وأخواته اللاتى يأتين إلى زيارتها من وقت لآخر. كان شغله الشاغل البحث عن الأرض التى يشتريها، وتكاثُر الفدادين التى يملكها، وانضمامه إلى كبار الملاّك بالقرية والمنطقة بأسرها، وهو ما حدث. حاول أهل القرية يوما أن يقنعوه بالتنازل عن فدان لبناء وحدة صحية تخدمهم، ولكنه لم يستجب. رد بطريقة ملتوية وقال: "إن شاء الله عندما تقرر الحكومة". قالوا له: إن الحكومة أدرجت الموضوع فى خطتها. رد عليهم: عند التنفيذ. ولما يئسوا من استجابته ذهبوا إلى غيره. وكان منهم رجل طيب، فتبرع لهم بنصف فدان، وانضم إليه آخر متبرعا بربع فدان، وعلقوا أملا على ثالث ليتبرع ببضعة قراريط".

وفى موضع آخر من الرواية حين زارت سحر الحلوانى قريتها بعدما كبرت، ثم دخل أبوها عليها هى وعماتها وأطفالهن بعد العشاء عائدا من الخارج بينما كانت تنتظره منذ وصولها عصرا على ألهب من الجمر شوقا وفضولا وبحثا عن العطف والحنان نقرأ ما يلى: "فى المساء كانت الدار تمتلئ بالأحفاد وآبائهم وأمهاتهم، والجدة العجوز تبدو سعيدة بهذا الحشد الذى لا يحدث إلا فى المناسبات والمواسم. ملأ الأطفال البيت أصواتا وصياحا وحركة يفتقدها على مدار أسابيع أو شهور. بل إن بكاء بعض الأطفال كان يشعر الجدة بوجود روح مفقودة، وحياة غائبة. إبراهيم فى عالمه البعيد، فى برنامجه اليومى، يبتعد عن البيت طول النهار بحثا عن المال والأرض الجديدة ومتابعة الفلاحين، ويسهر بعد تناول العشاء مع أهل القرية على مصطبة هنا أو هناك، يتابع ما يثرثرون به من أخبار وأقوال، ويحرص على سماع أخبار المدينين: من سيبيع أرضه؟ ومن سيرهنها؟ ومن سيتركها بُورًا من أجل تقسيمها أرض مبان تدر عائدا كبيرا؟ ثم يعود إلى الدار لينام وحيدا على مصطبة من مصاطب المندرة. قالت أمه، وهو يدخل الدار، بلهجة مغردة:

– ابنتك يا إبراهيم! سحر يا إبراهيم!

أدهشه التجمع الكبير فى الدار. ظن أن هناك مناسبة لا يعلم عنها. دارت عيناه فى المندرة. رأى وجوه شقيقاته، والتفت إلى الأطفال، الذين صنعوا شبه حلقة حوله، وراحوا يتصايحون: "خالى وصل! خالى وصل!". استكثر عددهم. لابد أن آباءهم وأمهاتهم يضيقون بهم (هكذا قال لنفسه). أما هو فيعيش بلا ضجيج بعيدا عن صياح الأطفال وصراخهم وبكائهم. انتبه إلى ما قالته أمه، فنظر إليها مشدوها متسائلا:

– من سحر؟ من ابنتى؟

قدمتها أمه إليه، والسعادة تقطر على جبينها:

– أبوكِ يا سحر!

بدا جامد العواطف، بارد القلب، لم يقبل عليها إقبال الأب المشتاق لابنه الغائب، ولم يبد فرحا أو بهجة بلقاء وحيدته التى لا يعرف شكلها مذ كانت رضيعة. كل ما فعله أو نطق به:

– أهلا وسهلا!

قالت الفتاة:

– كنت أتمنى أن أكون معك يا أبى مذ وعيت.

لم يرد ولم يعلق. ظل جامدا يتأمل الفتاة، وينقل بصره بينها وبين أمه، التى قطعت هذا الصمت:

– نأكل أولا، ونتحدث. هيا يا أولاد.

التف الأطفال وأمهاتهم وآبائهم حول الصوانى فى وسط الدار. خصصت الجدة صينية لها وللضيفة وأبيها، وراحوا يتحدثون فيما مضى. عرف إبراهيم قصة ابنته، وكفاح أمها فى تعليمها الذى واصلته بعد رحيلها حتى حصلت على الليسانس والماجستير، وعملها فى مدرسة خاصة لتواجه مطالب الحياة، ولكنه لم يبد تعاطفا أبويا أو إنسانيا. استقبل الأمر كأنه عبء جديد لم يتوقعه. وأبدى نوعا من الرفض حين طلبت أمه أن يسافر معها إلى الإسكندرية، ويقوم بتوصيلها إلى مكان إقامتها. ولولا إلحاح أمه، وإصرار شقيقته الكبرى على السفر معه ما وافق على مرافقة الفتاة فى عودتها. شعر أنه سيتحمل أجرة وتكاليف ليست واجبة عليه، ولكن الشقيقة أوضحت أنها ستتحمل ثمن التذاكر فى الذهاب والعودة.

استسلم، وفى الصباح كان يرتدى ثوبا قديما حال لونُه فوق صُدَيْرِيٍّ مخططٍ بهتت ألوانه، وحذاء أجرب مثقوبا فى بعض جوانبه، ويركب القطار مع سحر

وعمتها، التى لاحظت أنه لم يعطف عليها بشىء من المال أو الهدايا، بينما جهزت لها جدتها سلة كبيرة وضعت فيها جبنا وسمنا وبيضا، ودجاجات مذبوحة مجهزة للطبخ، وخبزا وأقراصا للإفطار، وغير ذلك من أطعمة ريفية، ثم جاءت بأحد خواتمها الذى تحتفظ به منذ زمان بعيد، وأهدته إليها، ووضعت فى يدها مبلغا تستعين به فى شراء بعض ما تحتاجه. كانت الفتاة تمانع، وتقول لها:

– مستورة يا جدتى. الحمد لله. لا أحتاج إلى شيء.

أصرت الجدة، وتقبلت الفتاة، وبدت سعيدة بما فعلته جدتها، وأحضرت عمتها قطعة قماش فخمة كانت تحتفظ بها لإحدى بناتها عندما تكبر، ولكنها رأت أن تهديها لابنة أخيها، التى لم تفد منه شيئا، وعاشت حياة صعبة فى وجوده. وعدت سحر جدتها وعماتها أن تزور دار أبيها من حين لآخر، وطلبت منهن الدعاء لها بأن توفق فى الحصول على الدكتوراه. كانت صافرة القطار تعلن تحركه نحو الإسكندرية، وعجلاته تصنع صوتا مميزا وهى تحتك بالقضبان، وسحر تقف فى شباك القطار تولى وجهها نحو القرية وتفكر فى أبيها، الذى يشبه لوح الثلج، وتترحم على أمها!".

ولا أظن مثل تلك الشخصية الروائية يمكن أن تُنْسَى هى أيضا. وفى الريف أحيانا يمكن أن نرى مثل إبراهيم الحلوانى، الذى تجرد من إنسانيته بل من عواطفه وغرائزه ذاتها ما عدا غريزة التملك، ولكن ليس أى تملك بل تملك الأرض الزراعية وحسب. ويا ليته كان يستمتع بما يتملكه بل كان شحيحا لا تطاوعه يده فى إنفاق أى شىء من المال فى غير شراء الطين حتى إنه، حين يريد الاغتسال، كان يغطس فى النهر ويدلك جسده بالطين ثم يغسله ويخرج، وحتى إنه لم يكن يشترى سوى لفافة دخان واحدة فى اليوم يقسمها نصفين ويدخن كل نصف على حدة. بيد أنه لا يكتفى بهذا بل يلجأ، كما رأينا، إلى حيلة مهينة مذلة كيلا يراه

الآخرون وهو يدخن، فتقع الكارثة ويضطر فى لحظة ضعف أن يعزم على أحد ممن حوله بنصف اللفافة الذى يدخنه ويحرم نفسه منه. وأذكر هنا ما قاله لى أحد زملائى بالجامعة عن قريب له موظف كبير ميسور الحال كان إذا زار القرية عندهم وأراد التدخين دخل المرحاض ودخن هناك لفافة سدا لباب العزيمة الذى قد يجر وراءه ضياع سيجارة سدى.

وعلماء النفس يسمون الغريزة حين تستفحل بـ"الغريزة السائدة". وغريزة حب شراء الأرض هنا قد استفحلت وتغولت ومحت أو كادت تمحو عند إبراهيم الحلوانى ما خلاها من الغرائز حتى لكأن تلك الغرائز الأخرى غير موجودة أصلا. وفى عالم التدين نلحظ نفس الشىء، إذ هناك من يصلى كثيرا ويتمتم كثيرا ويسبّح كثيرا ويقرأ القرآن كثيرا ويطيل لحيته كثيرا ويقصّر جلبابه كثيرا، لكنه لا يخرج الصدقة أبدا ولو طلعت الشمس من مغربها. بل إن إخراج شىء من المال بالنسبة له لهو أصعب من خروج روحه. فهو يمكن أن يجود بنفسه، لكنه لا يسخو أبدا ببضعة قروش معدودات. بل لأسهل عليه أن ينهدم الكون كله على رؤوس المخلوقات ولا يبذل بعضا من ماله.

ومن عشق إبراهيم الحلوانى المَرَضِىّ لشراء الأرض لم يفكر فى السؤال عن ابنته بعد عودته هو وأخته من توصيلها إلى مكان إقامتها فى المدينة التى كانت تسكنها وتعمل فى جامعتها خشية أن يتكلف لها شيئا من مال مهما ضؤل. ثم لما ذهبت عمتها إليها مرة أخرى بعد أعوام محملة بزوادة كبيرة فيها ما لذ وطاب من عندها هى لا من عند أبيها الصفوانىّ القلب وبلغت مسكنها الجديد بعد استفسار وتعب وتأخير وسألتها عن السبب فى أنها لم تزرهم منذ زيارتها اليتيمة دار حوار بينهما مؤلم أشد الألم لمن كان عنده ذرة من إنسانية كما فى النص التالى:

"كان اللقاء بين العمة وابنة أخيها حارا ودامعا وعاتبا مثل أجواء الخريف التى تلف الإسكندرية:

– لم تزورينى يا عمتى منذ زمن بعيد!

–كنت أنتظرك فى القرية يا ابنتى. لقد جئت إليك مع والدك، وتصورت أنك ستترددين علينا، وتسعدين جدتك وأهلك بالزيارة!

تنهدت سحر، وقالت فى أسى:

– تعلمين يا جدتى أن أبى لم يرحب بى، وكان منزعجا من زيارتى، وجاء معك لزيارة الست الكبيرة على مضض.

وبعد لحظة صمت طالت بعض الشىء أردفت سحر:

– تذكرين يا عمتى أنه لم يفكر أن يسألنى كيف أعيش، ومن ينفق علىّ وعلى تعليمى ودراساتى. على فكرة فإننى لست محتاجة إلى مليم واحد من ماله. أمى عملت وشقيت، وأنا عملت وشقيت، وكانت الست الكبيرة تحتضننى لوجه الله. صحيح أنها قريبة لأمى، ولكن مَنْ مِنِ الأقارب صار يتكفل بأبناء أقاربه الآخرين؟

تساقطت الدموع من عينى سحر، وقالت بحرقة:

– لم أكن أريد منه مالا وإنفاقا. كنت أريد منه حنانا وعطفا يشعرنى أننى ابنته ومن دمه. أعلم أن لديه أرضا أو فدادين كثيرة. لا أنظر إليها ولا أهتم بها. كنت أنتظر أن يسأل عنى مجرد سؤال. من لديه كلب من الكلاب يسأل عنه إذا غاب، وأنا ابنته ودمه ولحمه وعرضه، ولا يفكر فىَّ!

يبدو أن الفتاة كانت فى حاجة إلى الفضفضة والتعبير عن مخزون كظيم من الحزن والأسى، فانهمرت عيناها، ودخلت فى نشيج عاصف. إنها تعيش بعيدا عن أبيها وعائلتها مما جعلها تنساه تماما ولا تفكر به. ولكن الإنسان، كما يقولون،

حيوان اجتماعى. الابن يحتاج إلى أبيه وأمه وإخوته وأعمامه وأخواله وأقاربه ليشعر بوجوده وكيانه. من يولد بلا أب وأم ولا أقارب يسعى إلى أن يكون لديه بدائل لهؤلاء ليحس بالحياة أو الانتماء. سحر تحسّ باليتم وأبوها على قيد الحياة. ما أقسى الأنانية حين تدفع الوالد للتنكر لمولوده! إنه يفقد الإنسانية والانتماء إلى الفصيلة البشرية. وكان قَدَر سحر أن يتحصّن والدها وراء أنانيته الصخرية ولا يعبأ بما وراءها!

ربّتت العمة الكبيرة كتف سحر واحتضنتها، وحاولت أن تكفكف دموعها، وراحت تهدهدها حتى خفّت سَوْرَة الغضب الحزين أو الحزن الغاضب. التفتت العمة ناحية إحدى الغرف، فرأت كائنا صغيرا يحبو على الأرض: وجهه مشرق، وابتسامته عذبة، وعيناه أصفى من بحر الإسكندرية فى حال سكونه. ابتهجت العمة، وعبرت عن فرحها:

– باسم الله! ما شاء الله! ابنك يا سحر؟

– أجل!

وخَيَّمَتْ على جبينها سحابة حزن داكنة!

أدركت العمة أن هناك أمرا ما تعانيه الفتاة، وطالما هناك طفل يفترض أن يكون هناك زوج. ولكن لا أثر بارزا فى البيت لوجود رجل أو زوج بمعنًى أدقّ. كانت رياح الخريف فى الخارج ترسل إشارات تحمل علامات تغيير الجو والانتقال من الهواء المعتدل إلى الهواء البارد، وربما العواصف الممطرة والأمواج الهادرة. كان الطفل قد وصل إلى حيث تجلس أمه وعمتها. التقطته العمة ورفعته إلى أعلى، وراحت تقبله فى حنان غامر وهى تكرر "باسم الله! ما شاء الله!"، وسألت أمه:

– ما اسم المحروس؟

– إبراهيم!

– اسم جده؟

– بلى!

– بعد كل ما جرى تسمّينه باسمه؟

– إنه أبى يا عمتى مهما جرى!

– صدق من قال: "الظفر لا يخرج من اللحم".

راحت سحر تجهز طعام العشاء، وقد دبّت فيها روح أخرى غير التى تعوّدتها يوميا. لم تكن تحدّث أحدا أو تكلّم أحدا داخل البيت لأنه لا يوجد أحد فى البيت غير طفلها. كانت تتوجه بالكلام إلى الطفل الذى لا يفهم ما تقول، اللهم إلا ما يتعلق به من طعام وشراب ونوم يعبّر عنه بألفاظ مبهمة تحفظها أو بالبكاء وبعض الإشارات، وتلعب معه بالطريقة التى يفهمها فيضحك أو يحبو هاربا منها فى أثناء اللعب. وها هى عمّتها تكسر النظام اليومى الجامد الذى ألفته، فتتحدث معها وتشاركها همومها. ليتها تقبل أن تجلس معها أياما أو أسابيع. تعلم أن وراءها أولادها وزوجها وشؤون الحيوانات ومطالب الحقل. صحيح أن بعض الأبناء والبنات بمساعدة من العمة المجاورة لهم ينهض بمثل هذه الأمور، ولكنه لا يمكنه الصمود طويلا بدلا من الأم التى تتحمل مشقة الحياة اليومية. ستحاول معها، ولعلها ترضى، ولعلها لا تصر على الذهاب الليلة.

سألتها عمتها على مائدة الطعام:

– مالك يا ابنتى؟ أراك مهمومة! أين زوجك؟

تنهدت سحر تنهيدة عميقة، وقالت لعمتها فى صوت كله إحباط وحزن:

– إنها قصة طويلة يا عمتى. لا تشغلى بالك الآن. المهم الآن أن تأكلى بشهية، فأنت لم تأكلى منذ الصباح بالتأكيد، وربما لم تفطرى لتلحقى بالقطار.

وتلقت منها الطفل كى تفرغ العمة لتناول الطعام.

– قولى يا ابنتى. فضفضى.

أصرت العمة على الفضفضة ومعرفة ما تعانيه بعد أن شعرت بفقدان شهيتها حزنا على ابنة أخيها.

– فى السنة الأخيرة قبل الدكتوراه تعرفت على شاب عربى يدرس معنا. صارحنى أن له زوجة وأولادا فى بلده، ولكنه يريدنى على سنة الله ورسوله. كنت فى حاجة إلى من يؤنسنى أو يقف بجانبى بعد أن فقدت السيدة الكبيرة التى رعتنى عقب رحيل أمى. كنت وحيدة ضعيفة تنهشها النظرات، وتتربص بها العيون، وكنتُ عرضة فى أية لحظة للخطر!

– ولماذا لم تأتى إلى أحضان أبيك وجدتك وعماتك وأهلك؟

– تعلمين موقف أبى، فلمن أذهب؟

– جدتك وعماتك. أنت لحمنا ودمنا!

– المهم أنه طلب يدى من بعض أساتذتى الذين يعرفوننى، وصلتى بهم دائمة. أخبرتُه كل شىء عن عائلتى البعيدة. ولما أراد مقابلة أبى أفهمته أن مقابلته لا معنى لها. جهز لى هذه الشقة، وفى حفل صغير حضره بعض زملائى وزميلاتى وأساتذتى تزوجنى وأنفق بسخاء. وبعد عامين سافر على وعد أن يعود بعد شهور يقضيها مع زوجته الأولى فى بلده، ولكنه فاجأنى وأرسل لى ورقة الطلاق!

– قليل الأصل، صحيح!

وأردفت العمة:

– هل كان بينكما خلاف قبل أن يسافر؟

– أبدا يا عمتى. كان طيبا ولطيفا، وفرح حين علم أننى أحمل طفلا، ولكنه مضى دون أن يراه!

– يا سوء بختك! ماذا أقول يا ابنتى؟ "جات الحزينة تفرح ما لقيتش مطرح".

– النصيب يا عمتى! النصيب! الحمد لله.

– ألم يخبرك بسبب الطلاق؟

– اعتذر لأسباب عائلية.

– وتركك وحدك؟

– أرسل إلى بعض المال، ووعد أنه سيرسل من حين لآخر مبالغ أخرى!

زفرت العمة زفرة تحسّر، وعلقت:

– سامح الله أباك. كان قادرا على أن يكفيك شر هذه المتاعب!

– الحمد لله! مستورة يا عمتى. أنا أعمل على كل حال. الولد هو الذى يصعّب علىَّ الأمور، ولكن بعض الجارات يقمن باستضافته، وأصحبه إلى العمل أحيانا. وغدا يكبر، وتتحسن الأمور إن شاء الله.

قالت العمة بعد أن تناولت لقيمات قليلة:

– لا بد أن تأتى معى تعيشين وسط أهلك. سنربّى الولد. لا تحملى همّا.

– كلا يا عمتى. ستَبْقَيْنَ معى. مشتاقة إليك. إبراهيم فرح بك، ولعب معك.

– تعلمين أنهم فى البيت بحاجة إلىَّ، وعندما تكونين عندنا ستعلمين مدى المشقة اليومية التى نعانيها فى الحقل والبيت.

– أعلم يا عمتى، ولكنى لا أستطيع أن أترك عملى. وأريدك أن تَبْقَىْ معنا أسبوعا على الأقل.

– سأذهب الآن رغما عنى. اعذرينى يا ابنتى. سأعود إليك قريبا إن شاء الله.

قالت سحر:

– هبط الليل يا عمتى، والجو به لسعة برد، ولن تجدى قطارا الآن. من أجل إبراهيم فلنقض الليلة معا.

وجدت العمة نفسها مضطرة للمبيت أمام إصرار الفتاة وتأخُّر الوقت وصعوبة السفر:

– أمرى إلى الله!

وفى غرفة النوم كان الحيث ذا شجون!".

أَلا إنه، كمعظم نصوص الرواية، نص عجيب يستولى على النفس ويهيج المشاعر المؤلمة. ولا أدرى كيف وفق حلمى القاعود كل هذا التوفيق فى روايته هذه. الحق أن فى هذه الرواية بالذات قدرا كبيرا من البركة يرفعها فوق رواياته الأخرى التى قرأتها له وكتبت عنها. وقد يكون غريبا أن يتحدث ناقد عن البركة وهو بصدد تناول عمل أدبى. لكنى أومن بالبركة، بل وأومن بها أيضا إيمانا علميا. فكما يقول علماء النفس إن الإنسان إذا ما امتلأ عقله بالتفكير فى مشكلة ما وثابر فى محاولة الوصول إلى حل لها، ثم انغلقت فى وجهه السبل، فإنه قد يصل إلى الحل المطلوب فى المنام أو يعتريه هذا الحل بغتة دون أدنى توقع منه وكأنه آتٍ من خارج نفسه تماما. وهم يقولون إن العقل يظل مشغولا بالموضوع محاولا فى صمت وسط الظلام التوصل إلى حل فيصل إليه، وإن فهم صاحبه أن الحل قد أتى من خارجه تماما. فكذلك الأمر فى البركة بالمعنى الذى أتحدث به، إذ من الواضح أن أحداث الرواية وشخوصها لسبب أو آخر قد تملكت حلمى القاعود تملكا كاملا جعلته لا يستطيع الانشغال عنها بأى شىء آخر، وظلت تلح على عقله الباطن إلحاحا عنيفا حتى انفجرت رغما عنه، فكتبها كأنه مسيَّر لا دخل له بكتابتها. فهذه هى البركة كما أفهمها: أن يعطى الله الإنسان على قدر نيته واجتهاده

ومثابرته واهتمامه وأخذه أمره كله مأخذ الجِدّ الشديد الذى لا يعرف الهلس والبكش.

وانظر إلى حوار سحر وعمتها وما يتناثر فيه من ألفاظ أهل الريف والطبقات الشعبية وتعبيراتهم بوجه خاص، وبالذات بين النساء، مثل "الست الكبيرة– لست محتاجة إلى مليم واحد من ماله– من لديه كلب من الكلاب يسأل عنه إذا غاب– أنا ابنته ودمه ولحمه وعِرْضه– باسم الله! ما شاء الله! ابنك يا سحر؟– ما اسم المحروس؟– الظفر لا يخرج من اللحم– قليل الأصل، صحيح– يا سوء بختك!– سامح الله أباك!– الحمد لله! مستورة يا عمتى!". كما أن جو الحديث جو نسائى خالص، وهو ما يوحى ببراعة القلم الذى أبدع الرواية فى التقاط ملامح الشخصيات النفسية والعقلية وخصائص الجو الذى تدور فيه الوقائع.

ثم أتت نهاية الأب الشحيح الجاسى القلب والعقل. وفى الفصل التاسع عشر، وهو الفصل قبل الأخير، نقرأ: "استطاعت سحر الحلوانى أن تجد لها مكانا فى الكلية التى يعمل بها سيد عبد الله، وأن تسافر أيام المحاضرات من الإسكندرية إلى العمل وتعود آخر النهار. كبر طفلها واقترب من العاشرة، وكانت سعيدة بتردد عمتها الكبيرة عليها، فتنقل لها أخبار أبيها وجدتها وأقاربها. تبيت عندها ليلة ثم تمضى عائدة فى الصباح الباكر، وتبلّغ العائلة بما وصلت إليه الدكتورة سحر من وظيفة مرموقة فى الجامعة، وتفاخر فى القرية بابنة أخيها الأستاذة الجامعية. لم تكن العمة تعرف الفرق بين "مدرس" و"أستاذ". قيل لها إنها أستاذة فى الجامعة، ودكتورة أيضا، وهذا مناط الفخر والعز للعائلة.

لم يحاول أبوها أن يتغير حتى النفس الأخير. ظل فى شيخوخته المبكرة يحلم بالمزيد من الأرض، أو "الطين" كما يسمَّى فى الأرياف. ومع أنه شعر ببعض

المتاعب الصحية أخيرا فلم يحاول أن يذهب إلى طبيب، واكتفى بالأسبرين والشاى، وعصب رأسه بالمنديل المبلل. جلس فى البيت أسابيع، ثم خرج إلى الهواء وتمشّى على شاطئ النيل، وقد لف رأسه بشملة قديمة. بدا أنه يكح، ويمسك عكازا، وجلس على صخرة يقسم السيجارة الماكينة ويلفها فى الورق الخفيف كعادته، ثم يمضى عائدا إلى البيت، فيتناول لحم الدجاجة التى طبختها أمه، ومعها الشوربة. تنصحه الأم بالشوربة كى يعرق ويزول الألم، ويبدو أن المسألة كانت أكبر من الدجاج والشوربة، فقد أخذ يزهد فى الطعام، ويتناوله بغير رغبة حتى توقف تماما عن وضع شىء فى جوفه. وهنا استدعت الأم بناتها وأزواجهن، وذهب أحدهم لإحضار طبيب الوحدة الصحية، التى رفض إبراهيم التبرع لإنشائها بقطعة أرض، فأحضر الطبيب معه بعض الأدوية، وحين فحصه عرف أنها النهاية.

– أعطوه هذا الدواء بانتظام.

– إنه لا يفتح فمه يا دكتور!

– حاولوا بقدر الإمكان، وسأمر إن شاء الله غدا لمتابعته.

خرج الطبيب، ورافقه صهر إبراهيم ليودعه، وابتعدا عن البيت عدة أمتار، فمال عليه الطبيب وهمس فى أذنه بأن المريض فى لحظات الحياة الأخيرة، ومن الأفضل التركيز على ما يقتضيه واجب الرحيل، وعليه أن يهيئ أهله للنهاية المؤلمة.

أنفقت الأسرة على سرادق العزاء إنفاقا باذخا، واستأجروا الكراسى المذهبة والأضواء المبهرة ومكبرات الصوت الشهيرة، فضلا عن أعلام القرّاء فى الإذاعة، وذبحوا عجلا ضخما ليأكل المعزّون القادمون من البلاد المجاورة، وخصصوا أنواعا فاخرة من الكعك والمخبوزات التى تصنعها المخابز الإفرنجية فى المدينة، مع

الحلوى والفاكهة لتوزيعها على القراء والفقراء الذين يلتفّون حول القبر يوم الخميس، وكل خميس حتى الأربعين، بل السنوية.

حضرت سحر عزاء أبيها، وكانت حزينة على نفسها، وليس على أبيها. فقد نسيها طفلة، وتجاهلها عندما رآها فتاة شابة، ولم يسأل عنها بعدئذ ولا اهتم بأمرها وهى أم مطلقة لها طفل، ويعلم أنها وحيدة فى جوف مدينة كبيرة قاسية. وجدت عزاء فى رؤية أهلها وعمتها الكبيرة، التى كانت تتردد عليها باستمرار فى فترات متباعدة، وكانت تشعر بسعادة عندما تزورها وتبيتُ معها وتحكى لها عن عائلتها وعن القرية وتشاركها همومها بعد أن تركها زوجها وعاد إلى بلاده، ولم يفكر هو الآخر فى ابنه، وإن كان يرسل بانتظام مبلغا لابأس يساعد على تأمين حياة جيدة بعد أن كبر الطفل وصار يحتاج إلى مصروفات فى مدرسته الخاصة وتكاليف أخرى، ولكنها تعانى فراغا أو حرمانا لا يشبعه أو يمتلئ إلا برجل. قالت لها عمتها مرة:

– ألا تفكرين فى رجل يا سحر؟

أطرقت حياء:

– أين هو يا عمتى؟

– لم يتقدم إليك أحد فى هذه السنوات؟

– من يعرف أن لدى ولدا يتراجع!

فتتحسر عمتها على شبابها:

– كبدى عليك يا بنتى! شبابك يضيع هدرا.

– أنا راضية بما يأتى به الله يا عمتى.

كانت سحر تكابد الفراغ والحرمان والشوق إلى رجل. لو أنها لم تتزوج وظلت عذراء ما كانت لتشعر بهذا العناء بعد أن جربت أن تعيش مع زوج وتشبع

احتياجاتها الحيوية. كانت فى بعض تصرفاتها أمام الآخرين تكاد تفضح نفسها مثلما فعلت مع الدكتور على صالح فى مجلس الكلية. لقد افتتنت به، ووجدت نفسها مندفعة إليه مع أنها تعلم أنه متزوج، وله أبناء. لقد شغفها حبا، وكان تعيينه وكيلا للكلية أمرا مدهشا بالنسبة لها، بينما كان مجلس القطار يبحث فى مسألة ذبحه بالطريقة التى تجعله لا يفكر فى قضايا الدراسات العليا أو غيرها أو يكون له حضور بارز فى قرارات الكلية.

بقيت مع ابنها عقب تشييع أبيها عدة أيام بين جدتها وأهلها. قالت لها عمتها الكبيرة:

– سنأتى برجل المساحة فى القرية ليتولى قياس الأرض، ويتولى توزيع الميراث بشرع الله فى كل ما يملكه أبوك، الله يرحمه، وسيكتب ذلك ويوقع عليه الورثة والشهود.

– جئت من أجل الواجب يا عمة، وليس من أجل الميراث. إنى لم أطلب منه فى حياته شيئا.

– إنه حقك يا بنتى لا فضل فيه لأحد عليك. وعليك أن تختارى الطريقة التى تكون عليها الأرض: إيجارا أو مزارعة، وكذلك الحيوانات. وحقك سيصل إليك فى موعده.

– البركة فيك يا عمتى.

* * *

عادت سحر، وذهبت إلى الكلية، وعزّاها من عرفوا بوفاة والدها. فوجئت ذات صباح بسيد يدخل عليها مكتبها دون أن يكون معها أحد. قال لها مباشرة:

– تعلمين أنى متزوج، ولكن هناك خلافا بينى وبين زوجتى أدى إلى جفوة منذ زمن طويل.

– وما شأنى بهذا؟

– أطلب القرب منك!

– إنك تطلب مُصارِعة لا زوجة!

– الزواج ليس مصارَعة يا دكتورة.

– الدكتورة ليلى صديقة عزيزة، وقد عملتُ معها فى الامتحانات والكونترول، وهى مثال للأخلاق الراقية والأدب الرفيع. فهل تريدنى أن أفسد هذه العلاقة وأدخل فى صراع الزوجة الثانية مع الزوجة الأولى دون سبب؟

– ستكونين فى مكان بعيد عنها. بعد العودة من الخليج اشتريت قطعة أرض وبنيتُ فوقها بيتا من عدة أدوار. ستسكنين فى دور خاص بك.

– لا أستطيع العيش مع زوجة أخرى، ولا سيما الدكتورة ليلى!

– أليس هذا من الشرع والدين؟

– لا أرفض الشرع ولا الدين، ولكننى لا أستطيع أن أتحمل زوجة ثانية.

– قلت لك إن هناك خلافا بيننا منذ زمان.

– ولماذا لا تسعى لحل هذا الخلاف؟

– إنها رافضة للحل.

– هل جربت أن يتدخل بينكما أحد ممن تثق فيهم؟

– لا.

– إذا اذهب وابحث عن حَكَمٍ، والله يصلح بينكما.

أحنى رأسه وانسحب يجر أذيال الخزى والإحباط، وراح يبحث عن أحد من مجموعة الصوت العالى فى القسم ليثرثر معه ويبلع هزيمته أمام سحر. لقد كانت تتمنى الزواج بأى رجل ولو كان الدكتور سيد. ولكنها شعرت أنها كانت موفقة فى ردها عليه".

ومن مفارقات الحياة ألا تُنْفَق الأموال التى كان إبراهيم الحلوانى شحيحا بها شُحَّه بحياته بل بما هو أغلى من حياته، ولا يعرف من أمرها شيئا سوى تحويلها إلى أطيان، إلا بعد وفاته، وكان الإنفاق عن سعة أيما سعة. واستمتع المعزون والفقراء استمتاعا عريضا بما اشْتُرِىَ بها من لحوم ومخبوزات وحَلْوَيَات لم يكونوا ليطولوا منها شظية واحدة وهو حى. وأتصوره لو كان حيا ورأى ما حصل لَطَبَّ ساكتا من طوله. كذلك ذكرنى د. القاعود بطفولتى وبالقرية وأهلها الفقراء حين كانوا يمرضون، إذ كانت غاية ما يمكن أن يقدَّم للمريض منهم على سبيل الدواء زجاجة ليمونادة، وكان المريض يلف رأسه بمنديل، ويطبخ له أهله، إن كانوا مقتدرين، فرخة. وهو ما حدث فى مرض إبراهيم الحلوانى، الذى أعتقد أنه لم يعجل بموته المرضُ التى أصابه بقدر ما عجَّلت به الفلوس التى أُنْفِقَتْ على الفرخة والشوربة. لقد أكل الفرخة وشرب الشوربة مضطرا على مبدإ "كُلْ بحقِّك حَلْفاء"، وروحه تفارقه نَفَسًا نَفَسًا كلما وضع فى فمه نسيرة! إنه لشخصية أخرى عجيبة من شخصيات الرواية الرائعة.

وحين عادت د. سحر إلى مقر عملها تقدم لخطبتها صاحبنا أبو كباية، فرفضته، فكان وقع الرفض على نفسية هذا المجرم المنحط وقعا شديد السوء والألم. وقد حفظت لها د. ليلى الليمونى زوجةُ أبى السِّيد لها تلك اليد الكريمة، ووفقها الله فى تزويجها بأحد الزملاء، وكانت زيجة ناجحة، فقد كانت ظروف الطرفين متلائمة. وعاشت د. سحر فى التبات والنبات، ولا أدرى أخلفت أم لا صبيانا وبنات، ولا إن كانت خلفت فكم من الصبيان وكم من البنات؟ كما تقول الحكايات، التى كنا نتلهف على سماعها من أفواه الأخوات والأمهات، أثناء الطفولات.

على أن الرواية تضم رغم كل هذا الشجن والألم فقرات بارعة الفكاهة سواء فى تصوير الشخصيات أو سرد الأحداث كما فى السطور التالية التى تتعلق بالدكتورة الجامعية مواهب، وهى متاحة فى أول الفصل الثانى من الرواية. وهذه السطور الفكاهية ليست مجرد فكاهة للتخفيف عن القارئ، بل تكشف جانبا من الأوضاع الجامعية المتردية: "كانت إحدى المدرسات قد فتحت باب المكتب واتجهت مسرعة صوب العميد، ولكنها لمحت الرئيس السابق للجامعة فانحرفت نحوه، وبصوتها العالى الخشن الذى يتندر به بعض الأساتذة الخبثاء رحبت بمعالى الرئيس السابق وسلمت عليه وكالت له المدائح، فهو من أشرف عليها، ومنحها الدرجة لتكون الدكتورة مواهب (أو "كرنبة هانم" كما يسمونها فيما بينهم)، وقيل إنه هو الذى زوّجها بعد طول انتظار، ولكنها ما زالت فى درجة "مدرس" حتى قاربت الخمسين، ولم تنجب بحثا واحدا مذ ترددت الزغاريد فى جنبات الكلية عقب حصولها على الدكتوراه! اكتفت بدرجة "مدرس" لتنال أكبر قدر من الساعات، وتوزع أكبر كمية من المذكرات التى قيل إنها مسروقة، وتجد فى أستاذها ومشرفها ورئيس الجامعة السابق عونا لها فى رحلة جمع عشرات الألوف من الجنيهات، وقيل إنها تحولها إلى دولارات خضراء تحتفظ بها حتى يرتفع سعرها!

– أهلا يا مواهب!

– أهلا بمعاليك يا رَيِّس.

بدت مبتهجة، ونسيت الموضوع العاجل الذى جاءت من أجله لتتحدث به إلى العميد. كان جسمها البرميلى الرجراج يميزها عن بقية قريناتها فى الكلية، وشعرها يصنع صورة رمادية على جانبى رأسها، فقد اختلط الشيب بما تبقى من شباب. كانت فى حركتها تشبه قاذفة قنابل أو طائرة شبحية أو دبابة قديمة صدئة تصدر حشرجة صاخبة، وخاصة حين يرتفع صوتها الخشن عند الحوار أو النقاش.

تتساقط الكلمات من بين شدقيها مثل القذائف الثقيلة. بدا الرئيس السابق مستسلما لترحيبها الجَهْوَرِى.

دخل الساعى بصينية عليها أقداح الشاى والقهوة، وراح يكشف عن حفاوة ملحوظة وهو يمسح الطاولة الصغيرة أمام سيادة رئيس الجامعة السابق، ثم يصب القهوة لمعاليه وينتقل دائرا على العميد وبقية الأساتذة الذين حضروا تباعا".

وواضح أن الوصف الفكه يخلو من نية الإساءة إلى الدكتورة مواهب. إنه وصف ظريف: يُضْحِك لكن دون أن يؤلم الشخصية الموصوفة، بل ربما سَرَّها إذ يجعلها محور الاهتمام ويسلط الضوء عليها رغم خلوها من المواهب والقدرات الخاصة التى ترفع الشخص فوق أقرانه أو تجعل له مكانة بارزة بينهم. وواضح أيضا أن تسميتها: "مواهب" هو من باب الأضداد، فهى عارية تماما من أية موهبة. وفى السيمياء يقف النقاد طويلا أمام أسماء الأشخاص فى الأعمال القصصية محاولين التوصل إلى المغزى الكامن وراء كل اسم. وعلى هذا فإطلاق المؤلف اسم "مواهب" على الدكتورة المذكورة هو من باب إطلاق اسم على غير مسمى بغرض التفكيه، الذى يناسب شخصية الدكتورة غاية المناسبة.

ومما يمكن أن يدخل باب السيميائية أيضا اسم "كرنبة هانم"، فمن الواضح أنه ليس مجرد اسم، والسلام، بل هو اسمٌ اختير اختيارا للتفكهة من خلال الإشارة إلى منظر السيدة المسماة به، وتأتى كلمة "هانم" لتزيد الأمر مفارقة، "فـ"كرنبة" للتفكهة، و"هانم" للتبجيل والاحترام، وهو ما لا يتمشى مع "كرنبة" بل يزيد الأمر إضحاكا وعبثا. وبالمثل فإن فى اسم "سيد كباية" إشارة إلى إدمانه على الخمر الرخيصة، التى يسميها السارد فى عدة مواضع: "منقوع البراطيش"، وهى تسمية شعبية وراءها ما وراءها من دلالات. ولم يكذّب العبد لله خبرا،

فأضاف هو أيضا من عندياته لأبى السيد لقب "سيد محارة" لا على سبيل الاحتقار، بل للإيماء إلى أنه، وإن صار مدرسا بالجامعة وتزوج دكتورة مثله، قد ظل يحمل فى شخصيته عقلية المحّار ونفسيته وأخلاقه وسلوكه وعاداته وطباعه ولغته ومفاهيمه لم يحاول البتة تطوير نفسه والتحول عنها إلى عقلية الدكتور الجامعى ونفسيته وتقاليد مجتمعه العلمى، الذى لا يخلو هو أيضا من العيوب والمآخذ، بيد أن لعيوبه ومآخذه طعما آخر ونكهة مختلفة.

أما "سحر البحيرى" و"ليلى الليمونى"، ومثلهما كثير من أسماء الرواية الأخرى، فاسمان أطلقا اعتباطا على صاحبتيهما. وهذا يجرنى إلى مناقشة ما كان يقوله أحد طلابى فى مرحلة الماجستير فى هذا الموضوع منذ عامين، إذ كان يؤكد، وهو ينظر إلىّ بعينيه الصغيرتين القلقتين اللتين لا تخلوان من مكر ظريف، بينما أنظر أنا فى عثنونه غير الظريف، أنه لا بد أن يكون لكل اسم فى أية رواية معنى رمزى أو دلالة اجتماعية... إلخ. وكنت أقول له: ليس ذلك شرطا. فكثير من القصاصين، حين يختارون لشخوصهم أسماء، لا يُعَنّون أنفسهم بما ينبغى أن تشير إليه، بل يجلبون لكل شخص منهم اسما ما من الأسماء التى لا تنتهى لمجرد تمييزه عن غيره ليس إلا، وإن لم يمنع ذلك أن تكون هناك أسماء معينة فى العمل القصصى لها وضع مختلف كما فى هذه الرواية، التى من الواضح أن بعض الأسماء فيها أسماء رمزية أو يمكن أن تكون رمزية، وبدون أى افتعال من جانب القارئ والناقد، بينما بعضها الآخر يتأبى على هذا أشد التأبى. وقد ظل الباحث المذكور يكرر كلامه حتى تركتُه لحاله براحته بعدما وجدتُ تشبثه بما يقرأ عما يقوله النقاد الغربيون فى هذه النقطة، إلى أن جاءنى ذات يوم وأفضى لى بأنه اقتنع أخيرا بصواب ما أقول، فكدت أرقص، بل فكرت فى أن أذبح عجلا لأهل الله أن لانت دماغ هذا العنيد

الذى يتصور أن ما يقوله نقاد الغرب وحى سماوى مقدس ينبغى الخرور عليه فى صَمَمٍ وعَمًى وبَكَمٍ دون إحارة كلمة منه.

وبالمثل عندنا كلمة "تنجب" فى قول السارد عن د. مواهب: "وقيل إنه هو الذى زوّجها بعد طول انتظار، ولكنها ما زالت فى درجة "مدرس" حتى قاربت الخمسين، ولم تنجب بحثا واحدا مذ ترددت الزغاريد فى جنبات الكلية عقب حصولها على الدكتوراه!". إنها أظرف وأوقع وأنسب كلمة فى هذا السياق. فمواهب مدرسة جامعية، والمدرس الجامعى أمامه ترقيتان حتى يصل إلى مرتبة "الأستاذ"، التى هى آخر المراتب العلمية فى الجامعة، وكل من الترقيتين يحتاج إلى عدد من الأبحاث. ومواهب قد تزوجت بعد طول انتظار فيما هو واضح، والمرأة المتزوجة تريد أن تنجب، والمتوقع منها ولها هو أن تنجب. وهنا يأتى المؤلف فيؤلف بين الأمرين: إنتاج بحوث للترقية، وإنتاج أولاد للحياة، ويقول إنها لم "تنجب" بحثا واحدا للترقية.

كذلك وفق المؤلف فى تشبيه د. مواهب صاحبة الضجيج المزعج بعدد من الأسلحة الحربية ذات الضجة المُصِمَّة، وكأنه يقول لك: اختر المشبَّه به الذى يروقك، فكل الأشياء المشبه بها تنطبق عليها، ومن ثم لا تمثل "مواهب" أية مشكلة لك فى وصفها وتصويرها، فحالتها واضحة وضوحا ساطعا للعيان. إنها ليست بالشخصية المعقدة لا مضمونا ولا شكلا: "كانت فى حركتها تشبه قاذفة قنابل أو طائرة شبحية أو دبابة قديمة صدئة تصدر حشرجة صاخبة، وخاصة حين يرتفع صوتها الخشن عند الحوار أو النقاش. تتساقط الكلمات من بين شدقيها مثل القذائف الثقيلة. بدا الرئيس السابق مستسلما لترحيبها الجَهْوَرِىّ".

وهناك السطور التالية التى تصف تأمل عمات د. سحر الحلوانى الفضولية لملامح سحر كى يتأكدن أنها فعلا ابنة أخيهن التى اختفت مع أمها مذ كانت

رضيعة جراء شحه القاتل وقسوته البشعة، ثم عادت بعد بضع عشرت من السنين: "أخذت كل منهما تتملى الفتاة وجها وعينين، أنفا وشفتين، شعرا وأذنين، وتجد كل واحدة فى الفتاة ما ينسبها إلى إبراهيم وإليهم. نجحت الشقيقات الثلاث فى إثبات النسب بعد كشف الهيئة الذى قمن به، وكأنه تحليل الـ"دى إن إيه". امتلأ داخلهن بالسعادة لأن شقيقهن له نسل سيبقى، وإن كان فى أنثى!". وما أبدع وصفه لنظرات العمات الثلاث إلى ملامح سحر بأنه "كشف هيئة" و"تحليل الدى إن إيه". ويزيد الأمر إبداعا أن العمات لا يعرفن معنى "كشف الهيئة" ولا كان تحليل الـ"دى إن إيه" قد عُرِف بعد، بل ولا كُنَّ ليفهمنه لو كان قد عُرِف فى ذلك الوقت. ولا يصح أن نغفل عن الموسيقى فى قول السارد: "وجها وعينين، أنفا وشفتين، شعرا وأذنين"، التى قد نرى فيها إيماء إلى شعور السعادة الذى كان يغمر العمات الثلاث وهن ماضيات فى تأمل ملامح ابنة أخيهن ويقتربن من التيقن من أنها بنته فعلا، فضلا عما فى العبارة المنغمة الجميلة من تذكير بآيات سورة "البلد"، التى لا أظنها كانت غائبة عن المؤلف آنئذ ولو فى هامش الشعور، فهو يحفظ القرآن ويكثر من تلاوته، ويستشهد بآياته فى مطلع بعض رواياته، وينطلق من مبادئه وقيمه فى صياغة تلك الروايات، وكأنه يحاول إضفاء معنى الجلال على ما تفعله العمات، إلى جانب ما توحى به الموسيقى من السرور والابتهاج كما قلت.

ونأتى إلى الناحية اللغوية والأسلوبية، التى لا أحب بل لا أطيق أن أتجاهلها رغم أن الاتجاه العام بين النقاد الآن، وبخاصة فى النقد القصصى، هو إغضاء الطرف عنها، وكأن اللغة ليست هى أهم عنصر من العناصر التى يتكون منها، إذ هى الوعاء الحامل لكل شيء فيه. وبالنسبة إلى ناحية اللغة والأسلوب فقد لفت نظرى استخدام المؤلف للفعل: "أَوَى" متعديا فى بداية الفصل الثانى فى قوله: "فلم

يجدوا مكانا يَأْوِيهم غير ركن فى فصل بإحدى المدارس". والظن الشائع أنه فعل لازم. إلا أن المعاجم تقول إنه لازم ومتعدٍّ جميعا. وعلى هذا يمكن أن نقول: "أَوَى نبيلٌ إلى البيت، وأَوَى البيتُ نبيلا".

وإذا كان الشىء بالشىء يذكر فإنى لم أجد فى المعاجم أن "آوى" الثلاثى المزيد بهمزة يمكن أن يستعمل لازما بل متعديا فحسب. أقول هذا لأنى، فى تحليلى لرواية "دعاء الكروان" للدكتور طه حسين بكتابى: "فصول من النقد القصصى"، قد لاحظت أن كلمة "أَوَى" كثيرا ما تكتب فى كتب د. طه حسين بمَدَّة على الألف، ولا أدرى حتى الآن لماذا. فهو يقول مثلا: "آوَى الرجلُ إلى بيته"، بمعنى "لجأ إليه أو دخله"، بدلا من "أَوَى" كما ينبغى أن تكون صيغة الفعل الماضى فى هذا السياق. ترى هل كفر العبد لله حين لاحظ هذه الملاحظة؟ لكن اللجنة التى كانت تقرأ أعمالى فى الترقية لوظيفة الأستاذ المساعد، ومنها د. عبده الإسكندرانى إن كان تخمينى لشخصيته الحقيقية صحيحا، كان لها رأى آخر، إذ خطأتنى أنا، ثم لم تكتف بهذا بل استشهدت بالقرآن على صواب استعمال الـمَدَّة بدل الفتحة هنا. وهذان هما الشاهدان اللذان خطأتنى بهما: "قال (أى ابن نوح): سآوِى إلى جبل يعصمنى من الماء"، "قال (أى لوط): لو أن لى بكم قوة أو آوِى إلى ركن شديد". وكان رأى اللجنة أن القرآن الكريم قد استعمل الـمَدَّة لا الفتحة على الهمزة كما هو الحال أمامنا. فماذا يريد "السيد الباحث" بعد هذا؟ وطبعا هذا كلام "فى البطيخ" أو "فى الهجايص" كما يقال فى مصر، بل هو فضيحة الفضائح، إذ الفعل هنا مضارع لا ماض، وماضى هذا المضارع هو "أَوَيْتُ"، والـمَدَّة سببها همزة المضارعة لا همزة التعدية، وهو ما يعضد ما قلت، إلا أن كلام اللجنة طبعا لا ينزل الأرض. ترى بالله عليك أيها القارئ الكريم ماذا يمكن أن يقال فى مثل هذا الكلام؟

كذلك رأيت الكاتب يقول مثلا: "تفاعل مع بعضهم"، وهو تركيب يرفضه المغرمون بالبحث عن الأخطاء النحوية والصرفية والمعجمية. لكنى لا أستطيع المشاركة فى تخطئته. إنهم يَرَوْن أن يقال بدلا من ذلك: "تفاعل (سيد عبد الله) وبعضُهم" على اعتبار أن "التفاعل" لا يكون إلا بين اثنين، ومن ثم لا بد أن تكون هناك "واو عطف" تربط الطرفين معا. وفاتهم أن "مع" فى عبارة المؤلف تقوم بهذا الدور المطلوب دون أى فرق، وأنه لا يمكننا أن نقول: "تفاعل فلان" ونسكت، وإلا كان الكلام ناقصا كما هو واضح. وأتصور أنهم يخلطون بين إيجابِ النحاة أن نقول: "تفاعل محمدٌ وعليٌّ" ومَنْعِهم أن نقول: "تفاعل مُحَمَّد وعليًّا" على اعتبار أن "تفاعل" يحتاج إلى طرفين، وهذا لا يتحقق بواو المعية التى يُنْصَب "عليًّا" بعدها بل بـ"واو العطف" التى يُرْفَع "عليٌّ" عقبها، إذ واو المعية يمكن حذفها هى وما بعدها وتكتمل الجملة مع ذلك، فنقول مثلا: "سار سعيدٌ والنيلَ"، أى سار على شاطئ النيل، ونقول أيضا: "سار سعيدٌ" وتكون عندنا جملة كاملة. أما "تعاون مُحَمَّد" فلا تصح لأن التعاون يستلزم طرفا آخر. ولكن من قال إن الطرف الآخر لا بد أن يأتى بعد الواو العاطفة؟ الواقع أنه يمكن أن يأتى بعد "مع"، التى لا تفترق فى هذا السياق عن تلك الواو، إذ لا يمكن حذفها، وإلا اختل الكلام ولم تكتمل الجملة حسبما وضحنا.

أما قول المؤلف: "ومع أنه يحترف مهنة السباكة إلا أنه كان حريصا على أن يضع نفسه فى موضع بعيد عن الامتهان أو المؤاخذة من أى أحد" فأنا رغم ضيقى بالمتنطسين اللغويين لا أستطيع أن أجد له مخرجا، إذ لا يمكن الاستثناء هنا لأن جملة المستثنى منه لم تكتمل. وقد يردّ علىَّ أحدهم بأن هناك الاستثناء المفرغ، وهو يصح رغم نقص جملة المستثنى منه، فأقول له: لكن الاستثناء المفرغ لا يكون إلا إذا سبق جملةَ المستثنى منه نفىٌ أو استفهامٌ، مثل "ما قام إلا طارقٌ"، و"هل

شاهدتَ إلا طارقًا؟"... وهكذا. وهذا الشرط هنا غير متحقق. ثم إن "مع أن..." هى متعلَّق للفعل فى "كان حريصا"، فكيف يكون الفعل المتعلِّق مستثنًى من المتعلَّق به؟

ومن سمات الرواية الأسلوبية خروج الكلام فى كثير من الأحيان من السرد إلى الحوار الداخلى والخارجى دون تمهيد ثم رجوعه إلى السرد من جديد فى سلاسة وانسيابية تامين حتى إن القارئ لا يلحظ شيئا من هذا أو ذاك ما لم يكن مركزا تمام التركيز. والشائع بين الأدباء والنقاد أن تلك طريقة تعلمناها واقتبسناها من الرواية الغربية. وهو وهم خاطئ لا يصح اعتقاده ولا يليق القول به، فالقرآن الكريم مثلا مفعم بشواهد كثيرة على هذه الطريقة. فنحن حين نصنع هذا لا نكون عالة على أحد، إذ هو جزء من تراثنا. وقد أشرت إلى القرآن بالذات لأن الجميع يعرف القرآن ويستطيع الرجوع إليه بأقصى سرعة، فكثير منا يحفظه، وإلا فلا يوجد بيت مسلم ليس فيه مصحف يمكن التحقق مما نريد منه دون مشاكل.

وهذا مثالٌ خَطَرَ من تلقائه على بالى، فنسخته على الفور من المصحف الضوئى، وهو من سورة "الدخان": "فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ (١٠) يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (١٢) أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ (١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ (١٤) إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ (١٥) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ (١٦) وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٨) وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (١٩) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (٢٠) وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ (٢١)".

ومن الأمثلة التى تقابلنا فى الرواية النصان التاليان، والأول عن زوجة سيد كباية، والثانى عن صديقه الذى أغراه بمتابعة الدراسات العليا وشجعه على ذلك، وكلا النصين موجود فى آخر الرواية عقب مقتله فى حادثة السيارة بعد رفته من الجامعة: "خرجت الدكتورة ليلى تتابع ما فعله سيد، وتسأل من يقفون على باب الكلية: إلى أين اتجه بسيارته؟ وكيف كانت حالته؟ وهل كان معه أحد؟ كانت تتحدث بينما يشتعل داخلها بالألم والبؤس النفسى والاجتماعى نتيجة اقترانها بشخصٍ فقد الرشد والصواب، ولم يبال بنفسه ولا أولاده ولا صورته أمام الناس. ثم يأتى عزله من وظيفته ليصب مزيدا من الملح على الجرح. صحيح أن لديه بعض المدخرات التى تهيئ له حياة لا بأس بها، وسيحصل على معاش بسيط نسبيا يساعد على تسيير الأمور. الضربة القاتلة هى العزل من الوظيفة. ماذا سيقول الناس؟ وكيف يواجه الأولاد زملاءهم فى المدارس حين يأتى الحديث عن الآباء ووظائفهم؟ وبم يردون على أقرانهم حين يسألونهم: لماذا يجلس أبوهم فى البيت؟ ولماذا هو فى المعاش قبل الستين؟ ألم تعلموا أن الأساتذة يظلون فى العمل بعد سن المعاش؟ لماذا يا سيد وضعتَ الجميع تحت سيف لسانك ومطرقة يدك؟ الله يسامحك!".

"كان زميله فتحى محروس يبكى بحرقة، ويأسى على زميله الذى كان يمكن أن يرقى بسلوكه وعلمه إلى مرتبة إنسانية أعلى، ولكنه أخلد إلى الأرض. فما كانت المهنة، مهما كانت متواضعة، قيدا على صاحبها يمنعه من مباشرة إنسانيته المهذبة. كنتُ سباكا، ولم يمثل ذلك عقدة لى أو سلوكا نشازا فى حياتى، وما زلت حتى اليوم أحل مشكلات السباكة فى بيتى وبيت أبى. لا تجوز عليك إلا الرحمة. الله يرحمك يا سيدا!".

وبعد فهذه رواية بديعة، وهى أفضل رواية قرأتها حتى الآن لحلمى القاعود. وقد كنت أعرف منذ وقت بعيد أن له رواية عن حرب رمضان، ولم أكن قرأتها، وقَرَّ فى رُوعِى أنها عملٌ هاوٍ، وبخاصة أنه لم ينم إلى علمى أنه أتبع هذه الرواية بأخرى. ثم علمت أنه كتب روايتين أخريين بأُخَرَة، وأن الروايتين تدوران حول بعض الوقائع والشخصيات التى يعرفها وكان له تداخل فيها على نحو أو على آخر، ثم علمت بهذه الرواية، ولم أكن قرأت له أى شىء من هذه الروايات، فأقبلت عليها فى شىء من التوجس ظنا منى أنه خاض هذا البحر دون أن يتعلم العوم جيدا، لكنى فوجئت بأنه، فى رواية "محضر غش"، قد استطاع تحويل بعض الأحداث الاعتيادية فى الجامعة إلى عمل روائى جيد بل يتفوق على كثير مما نقرؤه منذ عقود لكتاب يُنْظَر إليهم على أنهم قادة المرحلة. ثم قرأت "اللحية التايوانى" فكانت أجود. ثم ثلثت بـ"الحب يأتى مصادفة"، وهى الرواية التى كتبها فى شبابه الأول، فألفيتها أقل من سابقتيها، وإن كانت فى حد ذاتها لا بأس بها من كاتب يجرب قلمه لأول مرة فى المجال الروائى. ومع هذا فإن مقارنتها بكثير من الإنتاج الروائى فى الفترة الأخيرة تريناها أفضل من كثير من هذا الكثير.

أما روايتنا الحالية فشىء آخر. إنها طلقة رصاص خرجت من قلبه فسكنت قلوبنا، لكنها طلقة رصاص محيية لا مميتة. وواضح أن الحكاية الأصلية التى فصَّل منها الزميلُ الكريمُ روايتَه لها به اتصال وثيق وحميم وأنه عانى من إجرام بعض أشخاصها، وأن علاقته بسائر أبطالها علاقة متشابكة. كما أن طبيعة الشخصيات والوقائع من الحدة بحيث جعلت للرواية حرارة عنيفة ليست للروايات الثلاث الأخريات. كذلك فالرواية تشتمل على أكثر من عقدة، وهى عُقَدٌ متداخلةٌ، ونجح الكاتب فى الوصول بكل منها إلى بر النهاية ما بين مأساة وفرح. وكانت النهاية فى كل حكاية نهاية منطقية تماما لا افتعال فيها حتى لكأن كل حكاية قد

كتبت نفسها بنفسها. وقد تَوْبَل الكاتبُ روايته النارية ببعض الفكاهات التى خففت من ناريتها بعض التخفيف. ولا ينبغى أن ننسى أيضا اللغة التى كتبت بها الرواية، ولا أظننى بحاجة إلى النص على أنها لغة سليمة، فهذا أمر طبيعى، إذ الكاتب أستاذ جامعى، وهو فوق ذلك متخصص فى العربية وآدابها، وله مؤلفات كثيرة متنوعة، وإن لم يمنع هذا من العثور على هَنَةٍ هنا أو هناك أعزوها إلى السهو، الذى نقع كلنا فيه، كما أن اللغة من التشابك والاتساع والعمق بحيث لا يمكن أن يحيط أى منا بها ولا أن يبرأ مائة فى المائة من كل خطإ بما فى ذلك أخطاء النسيان والسهو كما أومأت آنفا. ولكن لا بد من الإشارة إلى بساطة لغة الرواية وسلاستها وقدرتها على أن تُنْطِق كلَّ شخصية من شخصياتها بوجه عام بما يناسبها ويناسب بيئتها من الألفاظ والعبارات وأن تضفى عليها ما يلائمها من الأفكار والآراء والمشاعر والعواطف.

نبذة عن المؤلف

إبراهيم محمود عوض

من مواليد قرية كتامة الغابة – غربية – مصر فى ٦/ ١/ ١٩٤٨م

تخرج من آداب القاهرة عام ١٩٧٠م

حصل على الدكتورية من جامعة أكسفورد عام ١٩٨٢م

أستاذ النقد الأدبى بجامعة عين شمس

البريد الضوئى: (ibrahim_awad9@yahoo.com)

المؤلفات:

معركة الشعر الجاهلى بين الرافعى وطه حسين

المتنبى– دراسة جديدة لحياته وشخصيته

لغة المتنبى– دراسة تحليلية

المتنبى بإزاء القرن الإسماعيلى فى تاريخ الإسلام (مترجم عن الفرنسية مع تعليقات ودراسة)

المستشرقون والقرآن

ماذا بعد إعلان سلمان رشدى توبته؟ دراسة فنية وموضوعية للآيات الشيطانية

الترجمة من الإنجليزية – منهج جديد

عنترة بن شداد– قضايا إنسانية وفنية

النابغة الجعدى وشعره

من ذخائر المكتبة العربية

السجع فى القرآن (مترجم عن الإنجليزية مع تعليقات ودراسة)

جمال الدين الأفغانى– مراسلات ووثائق لم تنشر من قبل (مترجم عن الفرنسية)

فصول من النقد القصصى

سورة طه – دراسة لغوية وأسلوبية مقارنة

أصول الشعر العربى (مترجم عن الإنجليزية مع تعليقات ودراسة)

افتراءات الكاتبة البنجلاديشية تسليمة نسرين على الإسلام والمسلمين– دراسة نقدية لرواية "العار"

مصدر القرآن– دراسة لشبهات المستشرقين والمبشرين حول الوحى المحمدى

نقد القصة فى مصر من بداياته حتى ١٩٨٠م

د. مُحَمَّد حسين هيكل أديبا وناقدا ومفكرا إسلاميا

ثورة الإسلام– أستاذ جامعى يزعم أن مُحَمَّدا لم يكن إلا تاجرا (ترجمة وتفنيد)

مع الجاحظ فى رسالة "الرد على النصارى"

كاتب من جيل العمالقة: مُحَمَّد لطفى جمعة– قراءة فى فكره الإسلامى

إبطال القنبلة النووية الملقاة على السيرة النبوية– خطاب مفتوح إلى الدكتور محمود على مراد فى الدفاع عن سيرة ابن إسحاق

سورة يوسف– دراسة أسلوبية فنية مقارنة

سورة المائدة– دراسة أسلوبية فقهية مقارنة

المرايا المشوِّهة– دراسة حول الشعر العربى فى ضوء الاتجاهات النقدية الجديدة

القصاص محمود طاهر لاشين– حياته وفنه

فى الشعر الجاهلى– تحليل وتذوق

في الشعر الإسلامى والأموى– تحليل وتذوق

فى الشعر العباسى– تحليل وتذوق

فى الشعر العربى الحديث– تحليل وتذوق

موقف القرآن الكريم والكتاب المقدس من العلم

سورة النورين التى يزعم فريق من الشيعة أنها من القرآن الكريم– دراسة تحليلية

منكرو المجاز فى القرآن والأسس الفكرية التى يستندون إليها

أدباء سعوديون

شعر عبد الله الفيصل– دراسة فنية تحليلية

دراسات فى المسرح

دراسات دينية مترجمة عن الإنجليزية

د. مُحَمَّد مندور بين أوهام الادعاء العريضة وحقائق الواقع الصلبة

دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية– أضاليل وأباطيل

شعراء عباسيون

من الطبرى إلى سيد قطب– دراسات فى مناهج التفسير ومذاهبه

القرآن والحديث– مقارنة أسلوبية

اليسار الإسلامى وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة

مُحَمَّد لطفى جمعة وجيمس جويس

"وليمة لأعشاب البحر" بين قيم الإسلام وحرية الإبداع – قراءة نقدية

لكن مُحَمَّدا لا بواكى له– الرسول يهان فى مصر ونحن نائمون

مناهج النقد العربى الحديث

دفاع عن النحو والفصحى– الدعوة إلى العامية تطل برأسها من جديد

عصمة القرآن الكريم وجهالات المبشرين

الفرقان الحق– فضيحة العصر

لتحيا اللغة العربية يعيش سيبويه

التذوق الأدبى

الروض البهيج فى دراسة "لامية الخليج"

المهزلة الأركونية فى المسألة القرآنية

سهل بن هارون وقصة النمر والثعلب– فصول مترجمة ومؤلفة

"تاريخ الأدب العربى" للدكتور خورشيد أحمد فارق: عرض وتحليل ومناقشة (مع النص الإنجليزى)

الأسلوب هو الرجل– شخصية زكى مبارك من خلال أسلوبه

فنون الأدب فى لغة العرب

الإسلام فى خمس موسوعات إنجليزية (نصوص ودراسات)

فى الأدب المقارن– مباحث واجتهادات

مختارات إنجليزية استشراقية عن الإسلام

نظرة على فن الكتابة عند العرب فى القرن الثالث الهجرى (مترجم عن الفرنسية)

فصول فى ثقافة العرب قبل الإسلام

بعد الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ ماذا يقولون عن الإسلام؟ (نصوص وردود)

دراسات فى النثر العربى الحديث

"مدخل إلى الأدب العربى" لهاملتون جب– قراءة نقدية (مع النص الإنجليزى)

خواطر على الخواطر (مع الشعراوى فى تفسيره)

معَ روايتَىْ "عذراء الهند" لأحمد شوقى و"ربما يأتى القمر" للسعيد نجم (نقد قصصى)

جولة فى كتاب مصطفى محمود: "القرآن– محاولة لفهم عصرى"

قراءة فى كتابات ابن حزم وابن رشد وابن مضاء حول النحو والنحاة مع محاولة تيسير بعض المسائل النحوية

فى النقد التطبيقى: حلمى القاعود روائيا (قراءة تكاملية)

علاوة على الدراسات المنشورة فى المواقع المشباكية المختلفة

الفهرست